

UNIVERSAL
LIBRARY

OU-234354

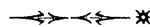
UNIVERSAL
LIBRARY

٢٩٤٢٥٩
٥-٢٠

تاريخ المتمدن الاسلامي ١٩٢٠

١٩٢٠

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والسياسة والتجارة فيها ونظام
الحياة الاجتماعية وآدابها وحضارة المملكة
وابهة الدولة الخ



تأليف

عرجي زيدان

منشور الهلال

الجزء الرابع

في سياسة الدولة وتنازع رجالها على السيادة

ويشمل النظر في دول الخلفاء من عهد الراشدين فالامويين فالعباسيين
فالاندلسيين فالفاطميين وسياسة كل منها في تأييد سلطانها ومعاملة رعاياها
وخصوصاً الخلافة العباسية مع علاقتها بما عاصرها من الامارات والسلطنات غير
العربية على اختلاف المصور

منطبعة الهلال بالقاهرة

سنة ١٩٠٥

المقدمة

أخذنا في تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم أهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية الى مثله . ولكننا لم نكن نتوقع ما لاقاه من حفاوة أهل اللغات الأخرى في العالم الاسلامي بامرهم ولا اعجاب كبار العلماء المستشرقين في اوربا بموضوعه الى مثل ما رأيناه منهم على اثر صدور الاجزاء الثلاثة الماضية . لانهم فضلاً عما كتبوه الينا من عبارات الاستحسان والتنشيط وما نشروه من التقارير في المجلات والجرائد التي تصدر في بلادهم قد اخذوا يشتغلون بنقله الى السنتهم ونشره بين مواطنهم ونحن لم نفرغ بعد من تأليفه . وبعض هذه الترجمات قد طبع ونشر ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع والآخر تحت الترجمة — فقد صدر الجزء الاول من الترجمة الاوردية (الهندستانية) مطبوعاً على الحجر في امرتسار (الهند) بقلم الشيخ محمد غلام منشي جريدة وكل الهندية الشهيرة . وسيصدر الجزء الاول من الترجمة الفارسية قريباً بقلم ميرزا ذكاء الملك صاحب جريدة تريت الفارسية . وكتب الينا المستشرق الكبير الاستاذ مرجليوث المشتغل بنقله الى الانكليزية في جامعة أوكسفورد أنه سيفرغ من ترجمته ويبدأ بنشره في اواخر هذا الصيف . وبعث الينا الاستاذ دانيالوف المستشرق الروسي في موسكو انه أتم نقل الجزء الأول الى اللغة الروسية وبليه الثاني . وقد خابرننا بعض المستشرقين بشأن نقله الى اللغة الفرنسية وغيرها فنشطنا ذلك في المثيرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دوائر التمدن الاسلامي وكشف اسراره بما يبلغ اليه الامكان على اسلوب لم يطرقه كتاب العرب نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى اسبابها وبيان ارتباطها بعضها ببعض مع تطبيقها على احكام العقل ونواميس العمران . فنطالع كتب التاريخ والادب وغيرها على سذاجة اسلوبها في سرد الحوادث وايراد الوقائع وتدبر ما نقرأه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن العجيب كما يستخرج السكر من الخروب . لان مؤرخي الاسلام مع ما بذلوه من الجهد في تحقيق الحوادث وتمحيص اسانيدها ومصادرها قلما نظروا في علاقاتها أو علوا

اسبابها وانما نقولها على علاتها وخصوصاً ما يتعلق منها بسياسة الدولة وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة أو امة الى امة أو طائفة الى طائفة . لان تحليل تلك الحوادث يبعث أحياناً على الطعن في اقوال بعض الخلفاء أو تحطئة بعض المذاهب وهم يتحاشون ذلك احتراماً للدين ورجاله . ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكاً من مواضيع سائر الاجزاء الماضية وادعى الى اعمال الفكرة واستنباط الاقيسة وتطبيق النتائج على المقدمات لانه عبارة عن فلسفة تاريخ الاسلام في عهد ذلك التمدن

موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام في الجزء الاول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية والجند والقضاء وغيرها . وخصصنا الجزء الثاني لبيان ثروة الدولة الاسلامية ورجالها واسباب تكون تلك الثروة واسباب انحطاطها . وجعلنا الجزء الثالث خاصاً بالعلم والادب فبحثنا في ما كان منها عند العرب في الجاهلية وما احدثه الاسلام من التغيير في القرائح والعقول وما نقل عن اللغات الاجنبية من العلوم وما كان من تأثير التمدن الاسلامي في كل ذلك فبعد أن نظرنا في التمدن المذكور من حيث نظام الدولة وثروتها وعلومها عمدنا الى البحث في سياستها فخصصنا لها هذا الجزء برمته وعلاه اهم اجزاء الكتاب واورعها مسلكاً لما يحول بيننا وبين اسباب الوقائع السياسية من العقبات والشكوك ولا سيما انتقال الخلافة من دولة الى دولة وما يعترض ذلك من تنازع أهل الدولة على الاستئثار بالسلطة وتأثير الاختلاف الجنسي أو المذهبي في ذلك مما لا يتيسر العثور عليه في كتب القوم لما قدمناه من تحاشي المؤرخين الخوض في مثله . على أننا لم نعدم بصيصاً من خلال تلك الظلمة تلمسنا به سبيلنا في البحث عن الاسباب والعلل فتوقفنا الى كشف اسباب اكثر الحوادث فبسطناها بما يقتضيه ذلك من النظر الفلسفي والحكم العقلي والقياس التمثيلي وتحرينا الحقيقة جهد طاقتنا

ولما عمدنا الى تقسيم الموضوع وقبويه اعترضتنا عقبة اخرى لا ثقل وعورة عن تلك لاختلاط الحوادث وتقاطع اسبابها واشترك نتائجها وتلون مظاهرها وتعدد اوجها

من حيث الدين أو الجنس أو المكان أو الزمان فرأينا بعد امعان النظر أن تقسم الموضوع باعتبار العناصر التي سادت في الاسلام وما كان من تنازعها على تلك السيادة مع ملاحظة اطوار التمدن الاسلامي باختلاف تلك العناصر . فقسمنا تاريخ الاسلام الى دورين كبيرين : الاول دور التمدن الذي نحن في صدده . يبتدىء بظهور الاسلام و ينتهي بذهاب الدولة العباسية من العراق و انحطاط المملكة الاسلامية و تسلط المغول عليها . والدور الثاني هو النهضة السياسية التي حدثت بعد ذلك الانحطاط بتغلب الدولة العثمانية و احياء الخلافة الاسلامية بجمع شتات المسلمين السنين في ظلها و ظهور الدولة الصفوية الفارسية و جمع شتات الشيعة تحت رايتها

و قسمنا الدور الاول الى خمسة اعصر باعتبار تغلب أحد العناصر الاسلامية على سائرهما . ولا يتيسر وضع حد فاصل بين هذه الاعصر لاسباب لا تخفى على المطالع فيغلب أن تحتاط أو أواخر كل عصر باوائل العصر الذي يليه واليك هي :

- ١ العصر العربي الاول : من ظهور الاسلام الى انقضاء الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ
- ٢ العصر الفارسي الاول : من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ
- ٣ العصر التركي الاول : من خلافة المتوكل الى تساطد الديلم سنة ٣٣٤ هـ
- ٤ العصر العربي الثاني : من قيام الدولة الفاطمية الى انقضائها
- ٥ العصر المغولي : من ظهور جنكيز خان الى وفاة تيمور لك

أما العصر التركي الثاني فهو عصر الدولة العثمانية والعصر الفارسي الثاني عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس و يتألف منها الدور الاسلامي الثاني وهو خارج عن دائرة بحثنا في هذا الكتاب

و قسمنا كلاً من الاعصر الخمسة الى فصول وابواب على ما يقتضيه المقام . فقدّمنا الكلام بتهديد في العرب قبل الاسلام من حيث نظام الاجتماع فوصفنا البدو والحضر و انساب العرب وقبائلهم و بطونهم واستفحال عصبية النجب عندهم ومنها الامومة والخوالة ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع ثم العبيد والموالي في الجاهلية وأنواعهم وأحكامهم والنزلة الاجانب في جزيرة العرب قبل الاسلام

وخصوصاً الانباء الفرس . وختمنا التمهيد بفصل في سياسة الدولة ومناقب العرب
ثم تقدمنا الى العصر العربي الأول فقسمناه الى ايام الراشدين وايام بني أمية .
فبيّنا أولاً ان الاسلام قام بالجامعة الاسلامية التي جمعت كلمة العرب على اختلاف
قبائلهم وبطونهم تحت راية الاسلام . فتساووا في الفضل من حيث انسابهم وتفاضلوا
من حيث سبقهم الى الدين أو جهادهم في سبيله فتولدت طبقات اسلامية جديدة
كالمهاجرين والانصار وأهل بدر وأهل القادسية مما لم يكن من قبل . ثم وصفنا سياسة
الخلفاء الراشدين وانها مبنية على التقوى والحق والعدل وذكرنا مزايا كل خليفة منهم
وان سياسة عمر بن الخطاب كانت في أول خلافته تدعو الى حصر المسلمين في
جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق وأنه اضطر بطبيعة العمران أن يأذن لقواده
وامرائه في الانسياح بالارض فانتشر العرب بالفتح او المهاجرة وتكاثروا بالتناسل
الكثير . وختمنا العصر الأول بفصل في العبيد والموالي واحكامهم في الاسلام

ثم انتقلنا الى القسم الثاني من العصر العربي الأول وهو أيام الامويين فذكرنا
أولاً الاسباب التي ساعدت على انتقال الخلافة اليهم وما كان بين هاشم وأمية من
المنافسة قبل الاسلام وكيف شقّ على الامويين ان يعظم امر بني هاشم بالنبوة وهم
أقل منهم عددًا وقوة . فما زالوا حتى غلبوهم على الدولة فاخذها معاوية بن أبي سفيان
من علي بن ابي طالب بالدهاء والاطماع . وفصلنا سياسة الامويين في تأييد سلطتهم
وبدنان محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت والامويون يملكون ان
الهاشميين أحق منهم بالخلافة فمددوا الى الاستقواء بالعصبية كما كانت في الجاهلية
وكان العرب المسلمون قدنسوا دهشة النبوة فعادوا الى عصبية النسب أولاً بين قریش
وسائر العرب ثم بين اليمنية والمضرية . وبانح الامويون في التعصب على غير العرب
فاحتقروا الموالي الفرس وغيرهم وضيقوا عليهم . وتحضر العرب في عصر الامويين
وألفوا السكني في المدن فحدثت العصبية الوطنية أي تعصب البلاد بعضها على بعض
كالبحرة والكوفة والشام وغيرها . واضطر الامويون في التغلب على بني هاشم الى
اصطناع القبائل والرجال ببذل المال فحملهم ذلك على الاستكثار من الاموال وجرحهم

الاستكثار منها الى ابتزازها بحق أو غير حق فضيقوا على الرعية من المسلمين وأهل
الذمة حتى ملّ الناس أيامهم وخصوصاً بعد ما ظهر من استخفافهم بأحكام الشريعة
وتهتكهم وفتكهم واحتقارهم الموالى وتضييقهم على أهل الذمة . وبلى ذلك فصل طويل
في أحكام أهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب الى آخر أيام الامويين

ثم تقدمنا الى العصر الفارسي الأول فصدرناه بفصل في انتقال الخلافة الى
العباسيين بنصرة الموالى الناقبين على بني أمية . وكيف نصرروا بني العباس وهم في
الاصل من شيعة علي وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين لان
العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا فنقل أبو مسلم الخراساني المملكة
الاسلامية من الامويين وسلمها الى العباسيين . فلما قبض العباسيون على أزوة
الدولة نكثوا البيعة وغدروا بمن كانوا يخافونه على سلطانهم من العلويين وغيرهم حتى
فتكوا بجماعة من اكبر دعاةهم ونصرائهم وفيهم أبو مسلم نفسه . وقسمنا سياسة العباسيين
الى سياستين : الاولى سياستهم في تأييد سلطتهم وكانت مبنية على القدر والفتك فخافهم
الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم وكظموا غيظهم املاً يصيهم ما أصاب ابا مسلم
واصحابه فاستخدمهم العباسيون في مصالح دولتهم وسلموا اليهم مقاييد الحكومة وجعلوهم
وزراءهم وأشهرهم البرامكة . فلما اشتد ساعد البرامكة ونالوا مانالوه من القوة والسطوة
وانثروا اخذوا يبدلون الاموال لاكتساب قلوب الناس وقد أضمرنا ارجاع البيعة
الى العلويين او تسليم الدولة للفرس فشعر الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات
هذه النكبة وأسبابها فتضاعفت نقمة الفرس على العباسيين . ولما مات الرشيد اختلف
ابناء الامين والمأمون وكان الفرس اخوال المأمون فنصروه وحاربوا معه وقتلوا أخاه
وأعادوا الخلافة اليه على ان يبايع بعده لملي الرضا أي يتقل الدولة من العباسيين
الى العلويين فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم

والثانية سياستهم في معاملة الرعية وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسبة .
ويتخلل ذلك فصول في أهل الذمة وأحكامهم وأسباب ما لحقهم من الاضطهاد
الى عهد غير بعيد وفصل في حرية الدين واطلاق الافكار وما كان من تنازع العناصر

وكيف ذهبت العصية العربية بذهاب دولة الامين وما رافق ذلك من اختلاط الانساب حتى ندر الدم العربي الخالص بعد ذهاب القرن الثاني للهجرة الا في البادية ثم تقدمنا الى العصر التركي الأول وذكرنا الاسباب التي دعت الى تداخل الاتراك في الدولة من أيام المعتصم وكيف جمع الاتراك وجندهم وبنى لهم سائرًا وكيف تدرجوا في مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء وما ترتب على ذلك من احتجاب الخلفاء في دور النساء ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم حتى رفعوا الخدم والخصيان الى رتب القيادة وامارة الامراء وغيرها وأطلقوا أيدي النساء في مصالح الدولة قَال ذلك كله الى فساد الاحكام واختلال الاعال وذهبت هبة الخلفاء فعمد أصحاب الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم فتشعبت الدولة العباسية الى فروع فارسية وتركية وعربية وكردية وكلها تباع للخليفة العباسي . فاستغرقنا بذلك الى البحث في معنى الخلافة ونسبتها الى السلطة من أول الاسلام الى الآن

ثم انتقلنا الى العصر العربي الثاني فذكرنا نقمة العرب على العباسيين منذ اهلهم وأسقطهم من الديوان وأضفنا اليها نقمة العلويين والامويين وكيف ظهرت الدولة الاموية في الاندلس والفاطمية في مصر لمقاومة الدولة العباسية وأوشك الفاطميون وهم علويون أن يتغلبوا على العباسيين لولم يقف السلاجقة في سبيلهم . على أن الفاطميين ما لبثوا ان تضعضعوا وغلبهم الاكراد على دولتهم وأولهم صلاح الدين فأعاد البيعة الى العباسيين وانقضى هذا العصر وقد تضعضت المملكة الاسلامية وانقسمت على نفسها وطمع بها أعداؤها المحيطون بها فجاءها المغول وهي في تلك الحال فاكتسحوها وزادوها ضعفًا واختلالاً وهو العصر المغولي وبه ينتهي هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد في تمحيص الحقائق وتحقيق الحوادث بالاعتماد على أوثق المصادر وأصح الروايات وتدبرنا ذلك واستخرجنا من علل الحوادث وأسبابها ما نلناه الاقرب الى الصواب ووجهتنا الصدق والاخلاص والانصاف والله حسبنا ونعم الوكيل

وسيكون .وضع الجزء الخامس حضارة المملكة واهية الدولة وآداب الاجتماع وبه ينتهي هذا الكتاب

العصر العربي الاول

من ظهور الاسلام الى سنة ١٣٢ هـ

نريد بهذا العصر المدة التي كانت فيها الدولة الاسلامية في ايدي العرب وكانت سياستها عربية وقوادها عرب وعماها عرب وكانت السيادة فيها للعصر العربي . والعصر المذكور يتبدى بالاسلام ويتقضي بانقضاء الدولة الاموية . وهو ينقسم الى دولتين دولة الراشدين ودولة الامويين ولكل منهما احكام خصوصية في السياسة وشؤون الحكومة سيأتي بيانها . ولا بد لنا تمهيداً لذلك ان نأتي بفذلكة في حال العرب قبل الاسلام من حيث ما همنا ببيان في هذا الباب فنقول

تمهيد في العرب قبل الاسلام

البدو والحضر

البدو أهل البادية والحضر أهل المدن والبداءة أقدم من الحضارة لأنها أقرب منها الى الفطرة الطبيعية . فالإنسان كان في اول ادواره بدوياً يحترف الزراعة والفلاحة او يتجمل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والمعز او النحل والدود لتنتاجها واستخراج فضلاتها مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمسارح للمرعى . فالتجأوا الى السهول والبراري وكان همهم باوغل الضروري من القوت والكن والدفع بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلبسة العيش . فاذا اتسعت احوالهم وحصل لهم ما وراء ذلك من اسباب الغنى والرفه عمدوا الى السكون والدعة وتأثقوا وارتفوا وتمدنوا

فالبداءة تقوم اما على الفلاحة والزرع او على تربية الحيوان . فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار في مواطنهم ينتظرون الغلة وهم سكان المداشر والقرى والحيال وكانوا قليلين في بادية العرب . وانما يكثر هذا الصنف من البدو في بلاد البربر بشمالى افريقيا وفي ما يجاور المدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها . واما البدو الذين يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظن والارتحال لارتياح المسارح والمياه لحيواناتهم . وهم

صنفان اهل سائمة واهل ابل فأهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر ولا يبعدون في القفر لقلة المسارح الطيبة ويقال لهم الشاوية نسبة الى الشاء . وهؤلاء مثل البربر في شمالي افريقيا والترك واخوانهم التركان والصقالبة وغيرهم ممن يقتطون بوادي تركستان وخراسان ونحوها

واما اهل الابل فاشهرهم بدو العرب وهم اكثر طمناً وابعد في القفر مجالاً من اهل السائمة لان مسارح التلول ونبتاتها وشجرها لا يستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالفقر وورود مياهه المملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه ذراياً من اذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لما خض النتاج في رماله لان الابل اصعب الحيوان فصلاً ومحاضاً واحوجها في ذلك الى الدفء . فاضطروا الى ابعاد النجعة والايغال في القفار فهم ينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عايه والمفتقر من الحيوان لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وقيامهم بالمدافعة عن انفسهم . فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون في الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غرراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتفردون في القفر والبيداء واقفين ببأسهم حتى صار البأس لهم خلقاً ولذلك كان اكثر البدو توغلاً في القفر أشدهم بأساً واصبرهم على المشاق

فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ولذلك كانت المدن قليلة في تلك الجزيرة ولا سيما في اواسطها . واشهر المدن العربية قبل الاسلام مكة والمدينة والطائف في الحجاز ومأرب وصنعاء في اليمن . وسكانها اخلاط من العرب والفرس واليهود وغيرهم يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من اهل البادية

العصبية العربية قبل الاسلام

قلنا ان العرب جمهورهم من البدو والعصبية ضرورية لاهل البادية . لان الناس مفلطرون على المطامع ودأبهم المتخاصم والتنازع فأهل المدن يدفع عدوانهم بالحكام واهل الدولة من ان يظلم بعضهم بعضاً وهي أيضاً تدفع غارات الاعداء بما تقيمه من الاسوار وتمده من الجند والسلاح . واما البدو فيحكم بينهم مشائخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس اهل القبيلة أو الحي من الوقار لهم — واكرام السن من سنن البدو . واذا

سطا عليهم عدوٌّ في منازلهم قام في الدفاع عنها فتباثهم وشجعانهم وهؤلاء لا يصدق دفاعهم إلا اذا كانوا عصبية تشد بها شوكتهم ويخشى جانبهم
 واهل البلد الواحد او المصلحة الواحدة لابد لهم من جامعة تجمع بين افرادهم .
 والجامعة تختلف في الامم باختلاف احوالهم فبعض الامم يجمعهم الوطن وآخرون يجمعهم الدين وغيرهم يجمعهم النسب او اللغة . وقد رأيت ان البدو لا وطن لهم وكانوا قبل الاسلام لادين لهم فلم يكن لهم ما يجمعهم غير النسب واللغة وهما متلازمان خصوصاً في البداوة . ففي العرب في حفظ انسابهم وضبطها وتفاخروا بها وبالغوا في استقصائها حتى ردوها الى الآباء الاولين

فاقرب اسباب العصبية عندهم الاخوة والودية والعمومة ومنها تآلف العائلة او الاسرة ومن العائلات تآلف الفصيلة كال ابي طالب وال عباس مثلاً فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات وكلاهما من بني هاشم . ومن الفصائل تآلف الفخذ مثل بني هاشم وبني امية وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الانخاذ تآلف البطن مثل بني عبد مناف وبني نخزوم وكلاهما من قريش . ومن البطون تآلف العماره مثل بني قريش وبني كنانة وكلاهما من مضر . ومن العماثر تآلف القبيلة مثل ربيعة ومضر وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتآلف الشعب وهو النسب الابعد مثل عدنان وقحطان

انساب العرب

والذي عليه النسابون ان سكان جزيرة العرب قبل الاسلام يرجعون في اصولهم الى قسمين العرب البائدة والعرب الباقية . فالقبائل البائدة هي التي بادت وضاعت اخبارها قبل ظهور الاسلام مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرم وجاسم . وقد بحثنا بحثاً تحليلياً في نسب هذه القبائل واما كتبها بمقالة نشرت في الهلال العشرين من السنة الخامسة لاخل لها هنا . واما العرب الباقية فهي القبائل التي ظهر الاسلام وهي حية فقامت به ونشرته وانشأت الدولة الاسلامية . والقبائل الباقية فرقان ترجع كل منهما الى أب واحد يجمعها وطن تنسب اليه : الفرقة الأولى القحطانية وترجع في انسابها الى قحطان وهو بقطان الذي ينتهي نسبه الى ارفكشاد من آباء التوراة ومقر القبائل القحطانية في اليمن ولذلك عرفت ايضاً بالقبائل اليمنية او عرب اليمن . والفرقة الثانية العدنانية نسبة الى عدنان من بعض اعقاب اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتعرف ايضاً بالاسماعيلية ولما كان مقر اكثرها في الحجاز ونجد عرفت بالقبائل الحجازية او بعرب الحجاز ونجد

ولكل من القحطانية والعدانية فروع من القبائل والعماير والبطون والانخاذ والفصائل لايحصيها عدو ولا يحل لذكرها ولكننا ناتي بها يههنا منها في هذا المقام — فالعرب القحطانية اقدم من العدانية او تمدت قبلها على الاقل ومنها بنو حمر الذين انشأوا تمدناً في اليمن ومنهم الملوك التابعة وآثارهم في حضرموت وخرائب اليمن لا يزال اكثرها مدفوناً في الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند . وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شيء كثير لصعوبة السلوك في تلك القفار . على ان بعضهم اتى الكتب في هذا الموضوع وذهب الى ان التمدن اليمني اقدم من التمدن المصري وان الفراعنة اخذوا جرائم تمدنهم عن اولئك العرب القحطانية . والمظنون ان ملكة سبا التي زارت سليمان الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد انما هي من ملوك هذه الدولة وما زال اليمنية في بلاد اليمن وحضرموت حتى كان سيل العرم او انبثاق السد المعروف بسد مأرب . وهو عبارة عن حائط كان موصلاً بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما فيرتفع ويروي السفحين الى اعلاهما . بناه بعض ملوك تلك الدولة بناءً متيناً فصبر على صدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون . فلما دنا القرن الثاني للميلاد (تقريباً) وكانت الدولة قد شاخت احسوا بقرب سقوط السد فخافوا الطوفان والقحط فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا في البلاد بحسب قبائلهم وبطونهم ومنهم بنو غسان في الشام وبنو لحم في العراق وبنو الاوس والخزرج في المدينة والازد في منا وخزاعة بجوار مكة . ثم انفجر السد فهاجر من بقي هناك من القبائل اليمنية . وفي نحو القرن الخامس للميلاد استولى الاحباش على بلاد اليمن ثم جاء الفرس فاخرجوا الاحباش وضموا اليمن الى مملكتهم . وجاء الاسلام واليمن من اعمال مملكة الفرس

فلما ظهر الاسلام كانت دولة العرب القحطانية قد دالت وهم الحضرة وسكان المدن . واما البدو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين غير من بقي من القحطانية الحضري في المدينة وغيرها من مدن الحجاز واليمن . واليك اشهر القبائل القحطانية عند ظهور الاسلام وهي: سبا وحمر وكهلان والازد ومازن وغسان والاوز والخزرج وخزاعة وبجيلة وخثعم وهمدان وطى . ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والاشعر وغيرها . واما القبائل العدانية او عرب الحجاز ونجد فلم يظهروا قبل الاسلام الا قليلاً ولم ينشئوا دولة الا بعد الاسلام . وهم قبائل عديدة مواطنهم على الغالب في نجد والحجاز والعراق وتهامة وكلها بادية رحالة الا قريشاً فقد كانوا حضراً يقيمون في مكة وبعض اهل

الطائف . واعظم القبائل العدنانية قبيلة « معد » ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها ويقال انه كان معاصراً لارميا النبي ^(١) وتفرع من معد اباد ونزار وسكنت اباد العراق وتشعبت الى بطون وانحاذ . واما نزار ففيها العظمة والقوة ولها الفضل الاعظم على العرب لان منها جاءهم النبي . وانقسمت نزار الى قبيلتي ربيعة ومضر فسكنت ربيعة في جزيرة العراق ومن بطونها ضبيعة واسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم . واما مضر بن نزار فهم اهل الكثرة والغلب بالحجازا اكثر من سائر بني عدنان وكانت لهم الرئاسة بمكة . ومن مضر تشعبت عدة عمائر من حملتها قريش وتشعبت قريش الى ٢٥ بطناً من حملتها بنو عبد مناف ومنهم بنو هاشم رهط النبي وبه شرفت مضر بعد الاسلام على سائر العرب فخطانها وعدنانها

واشهر القبائل العدنانية غير ما تقدم خزيمة وكنانة والنضر وشيدان وقيس وهوازن وسليم وعطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتميم وهلال وباهلة ونخزوم وامية وعبد القيس وغيرها وبعضها فروع لبعض الآخر . ولكل قبيلة او عمارة شوؤن خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة . ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل تعرف بها رايته وتسم بها اهلها اي تنقش عليها علامة خاصة بها كياً بالنار يقال لها الميسم ^(٢) وكانت القبيلة تمتاز بشيء تعرف به ويذيع بين القبائل خبره وتفاخر به سواها فكانت مضر مثلاً تفتخر بفصاحتها وربيعه تفتخر بفروسيتها ونجدتها ^(٣) واشتهر بعض القبائل بالعز والمنعة دون سواها كقبيلة بهدلة من العدنانية فقد ذكروا ان العز والقوة تسلسلا اليها من معد الى نزار فمضر فخنذف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة

عصبة النسب

وبين القبائل وانحاذها او بطونها او عمائرها عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض — الاقرب فالاقرب على الابد فالابعد . فتجتمع الفصيلتان من النخذ الواحد على نخذ آخر ولو كانوا جميعاً من بطن واحد وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة اخرى ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة على حد قول المثل « انا واخي على ان عمي وانا وابن عمي على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه اوسع العصبيات ثم ان القبائل يتعصب بعضها على بعض . والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ويقال نحو ذلك

(١) ابن خلدون ٣٠٠ ج ١ (٢) الاغا في ٤ ج ١٩

(٣) المسعودي ٢١١ ج ١

في البطون من عمارة واحدة او الانخاذ من بطن واحدة حتى تصل الى الانفصال والعائلات .
فبنو العباس وبنو ابي طالب مثلاً تحاموا وكلاهما من بني هاشم . وبنو هاشم وبنو امية تحاموا
وكلاهما من بني عبد مناف وقس على ذلك

وكل من القبائل او البطون او الانخاذ يفاخر سواء بحسبنا قومه ويذكر مثالب
الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على ان اشهر حوادث المنافسة بين
العرب انما هو بين القبائل القحطانية (او اليمنية) والقبائل العدنانية وقد يرد ذكر ذلك في التاريخ
ولا ينتبه له القاري لانهم قلما يذكرون انتساب القبائل الى احدى هاتين العصبيتين
فيقولون مثلاً « انتسبت الحرب بين قيس وكلب » ولا يذكرون ان قيساً من العدنانية وكلباً
من القحطانية لا عنقادهم ان القاري يعرف ذلك . وقس عليه قولهم تفاخرت قحطان ونزار
او معد واليمن او مضر وحمير او هوازن وكهلان او قيس ومعدان او نحو ذلك

العرب والعجم قبل الاسلام

على ان العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس او الترك
ويستوهمهم « العجم » ويفخروهم بالانساب واللغة ويحتقروهم وقد شقوا من اسمهم لفظ
الاعجم للدلالة على الخرس ان او العجم مشتق من العجمة فانجمي عندهم غير العربي
والاعجم الاخرس ^(١) والاخرز عندهم الذي في عينه ضيق وهذا وصف العجم وهو عند
العرب من النقائص فاذا قيل للعربي يا اخرز عدّ قوله اهانة لانه اخرجه من العرب .
على ان العجمي في الاصل الفارسي والعجم الفرس لان الفرس اقدم من خالط العرب من
الامم الغريبة عن لسانهم ثم اطلقوا لفظ العجم على كل اجنبي غير عربي
والمنافسة بين العرب والعجم قديمة فان الفرس في ايام دولتهم كثيراً ما كانوا يخرجون
العرب من بلادهم بالسيف والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى في ايام سابور
قبل الاسلام ببضعة قرون . وكان هذا قد تعمد اذى العرب واخراجهم من بلادهم
وخصوصاً قبيلة اباد وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور اصبحت قباب اباد حولها الخيل والنعم
ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند فقتل منهم خلقاً كثيراً ومن افلت لحق بارض الروم .
وفعل نحو ذلك ببني تميم في البحرين . وما زالت الضغائن بين العرب والفرس حتى اضطر عرب
اليمن الى استجداد كسرى على الاحباش في القرن الخامس للميلاد فارسل جنداً اخرجوا

الاحباش واحتلوا مملكتهم وحكموا العرب الى ان جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب
فسلطوا على الهجم فكبر ذلك عليهم وخصوصاً في ايام بني امية لتعصبهم على غير العرب .
ونشأت فرقة الشعوبية للطعن في العرب وسيأتي بيان ذلك

الامومة والخؤولة

الاصل في العصبية عند العرب الابوة والانتساب الى الاب مثل سائر الامم الراقية
على ان الامومة كان لها شأن كبير عندهم وكثيرا ما كانت انزوجة أو المصاهرة سبباً
كبيراً للعصبية ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على الاجال وانما الفضل فيه للامومة فان
المرأة كانت لا تزال محتقرة حتى تصير أمّاً فتعلو منزلتها وتشد عرى الاتحاد بها . فالرجل
منهم يفضل أمه على امرأته لان الام في اعتقاده أبقى له من امرأته . ومن أمثلة ذلك ان
صخر بن عمرو بن الشريد أخا الخنساء لما حضر محاربة بني أسد طعنه ربيعة بن ثور
الاسدي فادخل بعض حلقات الدرع في جنبه وبقي مدة حول في أشد ما يكون من المرض
وامه وزوجته سليمى تمرضانه فضجرت زوجته منه فرت بها امرأة فسألتها عنه فقالت
« لا هو حي فيرجى ولا ميت فينسى » فسمعه صخر فأشدد قصيدة قال منها :

أرى أم صخر لا تملى عيادي وملت سليمى مضجعي ومكاني
وأى امرئ ساوى بأمّ حليمة فلا عاش الا في شوق وهوان^(١)

وكانت العرب من أجل ذلك لا يعززون بالمرأة الا ان تكون أمّاً^(٢) ولم يكن ذلك
خاصاً بحال المرأة عند العرب فقد كان هذا شأنها ايضاً عند اليونان لانهم كانوا يعدون المرأة
أمة يحبونها قبل الزواج وبعده وتشتغل بأشغال البيت من الحياكة والغزل وتمريض
المرضى . وكذلك كان يفعل الفرس بنسائهم فاذا صارت المرأة أمّاً عات منزلتها وصار اليها
الامر وانتهى في بيتها ولا يزال هذا دأب أهل البادية الى اليوم . ونشأت من ذلك عصبية
الخؤولة عند العرب وهي نصره عشيرة الام لاولادها وبمباراة أخرى لعشيرة زوجها ولو
كان الاب من قبيلة يمنية والام من قبيلة عدنانية أو بالعكس

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام وأقرب الشواهد عليها نصره أهل

المدينة للذي في حجرته اليهم فان الخوالة كانت من أهم أسباب نصرتهم لان أم النبي من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية وأبوه من قريش وهي قبيلة مضرية . فلما توفي والده ذهبت به أمه الى المدينة لكي تلجئ الى أخواله بني النجار وهم كثيرون وكانوا من أقرب أهلها الى الدين وقد ترهب أحدهم في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة وهم بالنصرانية ثم أسك عنها واتخذ بيته مسجداً . فقامت عندهم على الرحب والسعة ثم ذهبت به الى أعمامه في مكة وماتت على الطريق . فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد اعمامه هاجر الى أخواله في المدينة وأهلها يعرفون ذلك فيه لان خوالة بني النجار جعلت الخزرج كلهم أخواله فاما نزل المدينة رحب به أهلها وكان أول من تابعه منهم أخواله أو من يمت اليهم بقرابة . وكانوا أشد أهل المدينة غيرة عليه ودفاعاً عنه^(١) ثم تهافت أهل المدينة الى مبايعته . وكُن في أثناء غزواته اذا اشتد القتال جلس تحت راية الانصار^(٢) وهم يستهلكون في سبيل نصرته ولا سيما آل النجار . وكان أعداء الانصار اذا هجّوهم خصّوا بني النجار منهم بالذكر لتصدرهم في ذلك أكثر من سائر أهل المدينة . فمن قصيدة قالها عمرو بن العاص يوم أحد وهو لم يسلم بعد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا مع الصبح في رضوى الحبك المنطق
تمنت بنو النجار جهلاً لقاءنا لدى جنب سابع والاماني تصدق
فما راعهم بالشر الا نجاة كراديس خيل في الازقة تمرق^(٣)

وظلت الخوالة مرعية عند العرب بعد الاسلام وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان نصره بنو كلب وهم بمنية لان نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت اصابعها بالدم . وكان انصرتهم دخل كبير في قيامه وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنة يزيد . ولما افضت الخلافة الى يزيد كان الكلبيّة من حزبه لانهم أخواله وامثال هذه الشواهد كثيرة في تاريخ الاسلام منها ان المأمون نصره الفرس لان امه منهم وكان اخوه الامين ضده وحزبه عربي لان امه عربية فلجأ المأمون الى خراسان واقام بمرء عند أخواله فاخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه . والمعتمد كانت امه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيراً وقد جندهم فنصروه

(١) ابن هشام ١٨٩ ج ١ (٢) ابن هشام ٨١ ج ٢

(٣) ابن هشام ١١٠ ج ٢

علي الفرس . وقس على ذلك تأثير الأم في الدولة مما سيأتي تفصيله . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوون احزابهم بالتزويج من القبائل المختلفة فيكتسبون عصبية قبائل نسايمهم

توابع العصبية العربية

الحلف

فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الأب ثم الام على انهم كانوا يجتمعون باسباب أخرى كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية في هذه الايام . واشهر احلاف الجاهلية حلف المطيبين وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت انسابها من القحطانية والعدنانية . وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم وهو من قبيل الولاة كاليهود الذين نزلوا المدينة من بني النضير وبني قينقاع وغيرهم ومنهم حلفاء الاوس والخزرج وكان اهل وادي القرى حلفاء بني هاشم وسيأتي ذكرهم في الموالي

ولتحالف او الحلف عندهم شروط واسباب منها ان يكون الحليف اسيراً لا يستطيع فداء نفسه فيسمونه بسمه تلك القبيلة فيعدّ حليفاً لها ^(١) والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من ابناءها ^(٢) اما اذا قتل فديته نصف دية الصريح ^(٣)

الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الاسلام الاستلحاق وهو ان يدعي الرجل رجلاً يلحقه بنسبه وقد يكون عبداً او اسيراً او مولى فيسميه مولاه وينسبه اليه . ومن اشهر حوادث الاستلحاق في الجاهلية ان امية جد بني امية كان له عبد اسمه ذكوان اسلملحقه بنسبه وكناه ابا عمرو فصار اسمه عندهم ابا عمرو بن امية ومن نسله جاء الوليد بن عقبة اخو عثمان بن عفان لأمه وكان من جلة الصحابة

واشهر حوادث الاستلحاق في الاسلام استلحاق زياد بن ابيه بابي سفيان والد معاوية داهية العرب وقصة استلحاقه مشهورة في كتب التاريخ . وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية وكانت جارية فولدت زياداً من غلام رومي من موالي ثقيف اسمه عبيد ولم يكن ذلك مشهوراً عند العرب فكانوا يعتبرون زياداً مجهول الاب فسموه «زياد بن ابيه»

(١) الاغاني ١١٠ ج ٧ (٢) تاريخ الوزراء ٢٥١ (٣) الاغاني ١٦٧ ج ٢

فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج الى من ينصره قرب اليه جماعة من دهاة العرب ومنهم زياد المذكور واطخص زياداً بالاستلحاق فاستشهد خماراً من اهل الطائف اسمه ابو مريم السلولي فشهد ان ابا سفيان جاءه والتمس منه بغياً فاتاه بسمية فحملت منه زياد وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون ان معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد وقد تم له ما اراد . فسمي زياد من حينئذ « زياد بن ابي سفيان » بعد ان كان يعرف بزياد بن ابيه او ابن سمية ^(١) وما زال آل زياد معدودين من قريش حتى ردهم المهدي سنة ١٦٠ هـ الى نسب عبيد المذكور وصاروا من موالي ثقيف ^(٢) ومثل هؤلاء آل ابي بكره فقد كانوا من موالي النبي والحقوا بثقيف فردهم المهدي الى اصلهم . وكانوا يسمون المستلحق « دعياً » وقد يكون الرجل دعياً ادعياء فيكون هو دعياً في رهط ورهطه دعياً في قبيلة مثل ابن هزمة فقد كان دعياً في الخلاج والحلاج ادعياء في قريش وكثيراً ما كانوا يستلحقون الرهط او العشيرة دفعة واحدة لنزولهم فيهم او لنصرتهم اياهم كما اصاب بني العم من اهل البصرة فانهم نزولوا ببني تميم في ايام عمر بن الخطاب فاسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم « انتم وان لم تكونوا من العرب اخواننا واهلنا وانتم الانصار وبنو العم » فلقبوا بذلك وصاروا من جملة العرب ^(٣)

وكانوا يعدون الدعي من انفسهم ويورثونه كما يورثون الابن الصريح ^(٤) ويورثونه وكثيراً ما كان العرب يرغبون في استلحاق مواليهم رغبة منهم في ان يرثوهم وقد يأبى المولى ان يلحقوه اذا عرف غرضهم كما اصاب نعيماً المغني المشهور اذا اراد مواليه ان يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم « والله لأن اكون مولى لائقاً احب الي من ان اكون دعياً لاحقاً وقد علمت انكم تريدون مالي » ^(٥)

ومن اسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف « المؤاخاة » وقد تكون بين القبائل او بين الافراد ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن فاذا آخيت العربي اخذ بناصرته وحماكم ودافع عنك كأنك اخوه

الخلع

وضد الاستلحاق عندهم « الخلع » فكان الرجل اذا ساء امره من ابنه سوا الخلع كان صريحاً او دعياً خالعه اي نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعه ما قد يرتكبه الولد من المكروه

(١) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٦

(٣) الاغانى ٧٦ ج ٣ (٤) الاغانى ٩٤ ج ١٧ (٥) الاغانى ٣٤ ج ١

وقد تفعل ذلك القبيلة او العشيرة فيذهب جماعة منها الى سوق عكاظ ومهم المراد خلعه ويشهدون على انفسهم انهم خلعوه ويعلنون منادياً بذلك فلا تحمل القبيلة جريرة له ولا تطالب بمجريرة يجزها احد عليه . كما فعلت خزاعة بقيس بن الحداية الشاعر الجاهلي^(١) وقد يكتبون بالخلع كتاباً

ومن اشهر حوادث الخلع قبل الاسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته وكان قد ذهب الى الحبشة بتجارة في الجاهلية مع عمارة بن الوليد الخزومي واختصما في الطريق فأساء عمارة الى عمرو فاضمر له الشر وعمرو من بني سهم فكتب الى ابيه ان يخلعه وتبرأ من جريرته اذا اذى عمارة ففعل فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وأرسلوا بذلك منادياً الى مكة^(٢)

وكان الخلاء في البادية كثيرين يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمرّدون على القبيلة . فلما جاء الاسلام اصبح تمردهم على الحكومة . فقد كان يعلي الاحول من شعراء الدولة الاموية خائفاً يجمع صعاليك الازد وخلصاءها فيغير بهم على احياء العرب ويقطع الطريق على السابلة . وكان في تجار الرقيق من يتابع الخلاء ويذهب بهم الى بلاد الروم

العبيد في الجاهلية

الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الانسان لان الانسان مفطور على الاستبداد والقوي يستعبد الضعيف . وكان الانسان في اول عهد العمران اذا غلب عدوه وقبض عليه لا يستعبد بل يقتله الا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن . ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمنهن في حرث الارض ورعاية الماشية او نحو ذلك من الصنائع او يبيعونهم ببيع المتاع . ذلك كان شأنهم في عهد التمدن القديم في مصر واشور وبابل . وكان للاسترقاق سوق رائجة في الدولة الرومانية فكانوا يأتون بالاسرى بالئات والالوف ويبيعونهم ببيع الاغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات . ولما انتظم حال تلك الدولة صاروا يتزوجون بالجواري وبعد ان كان الروماني يتصرف بعبده كما يشاء من قتل او جلد

أصبح قصاصه منوطاً برأي القضاة وإذا بالغ السيد في ظلم عبده حكم القضاة عليه على أن العبيد ما زالوا كثراً في المملكة الرومانية لا يخلو منهم بيت وأكثرهم من الأسرى أو ابتائهم يستخدمونهم في المنازل ويعلمونهم الصنائع على اختلاف ضروبها ويبيعونهم في أسواق خاصة بالرقيق • ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين ريالاً رومانياً إلى أربعة آلاف ريال ويقال نحو ذلك في سائر الممالك القديمة • فالفرس مثلاً كانوا يستعبدون الأتراك في الحرب ويهادونهم وقديهادون أبناء الأمراء منهم • وما ذكره التاريخ من ذلك أن أبرويز ملك الفرس أهدى إلى موريقس ملك الروم مئة غلام من أبناء أراكنة الترك في نهاية الحسن والجمال في أذلهم أقرط الذهب فيها الدر واللؤلؤ في جملة هدايا أخرى • فأهداه ملك الروم هدية فاخرة في جملة ما عثرون جارية من بنات ملوك برجان والجلافة والصفالبة والوشكنس من الأجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهم أكاليل الجواهر^(١)

العبيد عند العرب

والعرب أيضاً كانوا يستخدمون العبيد من أسرى الحرب أو ممن يتعاونهم من الأمم المجاورة لجزبتهم كالحبشة وما حوالها من الأمم المتوحشة • فكان التخاسون يحمون العبيد والأماء من تلك البلاد وغرها إلى جزيرة العرب يبيعونهم في أسواقها بالمواسم وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل تجارها بسائر السلع • ومن أشهر التخاسين في الجاهلية عبد الله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار^(٢) فإذا اشترى أحدهم عبداً وضع في عنقه حبلاً وقاده إلى منزله^(٣) كما تقاد الدابة • وإذا كان العبد أسير حرب جزئاً وناصيته وجملواها في كنانتهم حتى يفترق نفسه • وكانوا يبتاعون الأرقاء ويهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الامتعة إلا إذا دبر المولى عبده أي قال له « انت حرٌ بعد موئي » فإنه يكون حرّاً • وقد يخرجون العبيد في جملة صدقات العرائس ومن أخرج في الصداق بشار بن برد الشاعر الإسلامي الشهير فإنه كان هو وأمه لرجل من الأزدي زوج امرأة من بني عقيل فساق إليها بشاراً وأمه في صداقها^(٤)

فبدل ذلك على كثرتهم ولا سيما عند الأمراء والملوك حتى يزدبون على المئات والالوف • فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبي بكر ومعه ألف عبد دون من كان معه من عشيرته^(٥)

(١) المسعودي ١١٩ ج ١ (٢) المسعودي ٢٨٢ ج ١

(٣) المعارف لابن قتيبة ١١٢ (٤) الأغاني ٢٠ ج ٣ (٥) المسعودي ٢٨٧ ج ١

ولم يكن شريف من اشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستعملهم في حاجيات منزله فعبد الله بن ابي ربيعة كان له عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المن وكان عددهم كثيراً وفيهم من يخرج للحرب وقلاً كانوا يثقون بامانتهم^(١) على انهم كانوا يستعينون بهم في القتال وكان لذلك شأن بعد الاسلام . وكانوا يعملون الخدعى العبد نصف ما على الحر^(٢) واذا شهد حرباً لا يضرب له بسهم^(٣) بل يكون سهمة لسيده

وكان من اصناف العبيد عندهم «الغن» وهو العبد الذي يعدل بالارض ويباع معها ويشبهه Serf في المملكة الرومانية . ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة كما اتفق لابي هب مع العاصي بن هشام فانها تقامرا على ان من ثمر كان عبداً لصاحبه فقمره ابو هب فاسترقه واسترقاه ابله^(٤) وكانوا يسترقون المديونين ايضاً

وكانت العرب تزوج الاماء فاذا ولد لهم منهن اولاد استعبدوهم فاذا انجب احدهم الحقوه بانسابهم واعترفوا به والاب بقي عبداً . واشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة الحاق عنزة العنسي بابيه شداد وهو ابن جاريته زبيبة وكان شداد نفاه فلما انجب الحقوه بنسبه^(٥) وقصته مشهورة . وكان العرب قبل الاسلام لا يعتقون عبيدهم الا لسبب هام . واذا احب العبد العنق استباع اي طلب البيع فاذا رضي صاحبه بائه لسواه . اما بعد الاسلام فكثير الاعناق لحكمة سياسية دينية سيأتى ذكرها

المولى في الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر والغالب فيه ان يكون عبداً معتقاً فكل عبد اعتق صار مولى وهو يشبه ما كان في الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد او اسير اعنقه صاحبه فهو مولى له وينسب اليه او الى قبيلته او رهطه . فمولى العباس مثلاً هو مولى بني هاشم وهو ايضاً مولى قريش ومولى مضر . وقد ينسب المولى الى بلد معتقه فيقال فلان مولى اهل المدينة او مولى اهل مكة . والمولى عندهم كالقريب ولكنهم يسمون قرابة الاهل صريجة وقرابة المولى غير صريجة . ويطلق المولى

(١) الاغانى ٣٢ ج ١ (٢) الاغانى ١٢٤ ج ١٤ (٣) المعارف لابن قتيبة ١١٠

(٤) الاغانى ١٠٠ ج ٣ (٥) الاغانى ١٤٨ ج ٧

على صاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحِب
والتابع والصهر وغير ذلك واكثرها يطلق على المولى بسبيل المجاز . واما عند التحقيق
فالمولى ثلاثة انواع : مولى عتاقة ومولى عقد ومولى رحم

مولى العتاقة

فمولى العتاقة هو الذي كان اسيراً أو عبداً واعتق وكانوا يعتقون الاسير مكافأة
على احسان فيشترط الرجل على عبده مثلاً اذا فعل كذا وكذا فهو حرٌّ ويكون مولى
لمعتقه وكان لذلك تأثير كبير في صدر الاسلام لان المسلمين كثيراً ما كانوا يستعينون
بالعبيد على اسيادهم بطريق الاعناق — من أمثلة ذلك ان المسلمين لما حاصروا الطائف
في السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم امر النبي منادياً فنادى « ايما عبد نزل فهو
حرٌّ وولاءه لله ورسوله » فنزل جماعة كبيرة ^(١) وقد يكون الاعناق لسبب آخر
واذا كان العبد من أسرى الحرب وأرادوا اعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله فيصير
مولى للمالك تلك الناصية ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبي بعد واقعة أحد جواباً على
قول هيرة بن ابي وهب :

الا اعتبرتم بخيل الله اذا قتلت اهل القليب ومن الفينة فيها
كم من اسير فككنناه بلا ثمن وجزّ ناصية كئنا موالها ^(٢)

(المكاتبه) وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع وهو ما يعبرون عنه
بالمكاتبه وذلك ان يكتب العبد على نفسه صكاً بثمن اذا سمي وأداء عتق وقد يجمل الدفع
انجماً « تفسيطاً » فابو سعيد المقرئ احد كبار التابعين كان عبداً لرجل من جندع وكتبه
على اربعين الفاً وشاه لكل اضحى فاداه ^(٣)

قلنا ان من اعتق عبداً كان ولاؤه له ومعنى ذلك انه يكون هو صاحب ولاؤه فينسب
اليه واذا مات كان هو وارثه . على انهم كانوا يشترطون احياناً ان لا يكون ولاؤه لمعتقه
بل يكون لمن يؤدي ثمن المكاتبه . وقد تكون العتاقة « سائبة » وهي ان يعتق العبد
ولا ولاؤه له . فكان الرجل اذا قال لعبده « انت سائبة » يعتق ولا يكون ولاؤه لمعتقه
ويضع ماله حيث شاء . ومن اشهر المعتقين سائبة سالم مولى ابي حذيفة بن عتبة وأصله
من اصطخر وكان مملوكاً لبشينة امرأة ابي حذيفة فاعتقته سائبة ^(٤)

(١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (٢) ابن هشام ١٠٥ ج ٢

(٣) المعارف لابن قتيبة ١٥٤ (٤) المعارف ٩٢

على ان الاسلام نهى عن ان يكون الولاء لغير المعتق فبريرة بنت سمود الثقفية دخلت على عائشة ام المؤمنين تستعينها في كتابتها وعليها خمس اواق نجت عليها في خمس سنين فقالت لها عائشة « رأيت ان عددت لهم عدة واحدة ابيعك اهلك فاعتقك فيكون ولاؤك لي » فذهبت بريرة الى اهلها فعرضت ذلك عليهم فقالوا « لا الا ان يكون لنا الولاء » قالت عائشة « فدخلت على رسول الله (صلم) فذكرت ذلك له فقال اشترها فاعتقها فانما الولاء لمن اعتق »^(١) الا ان يشتري احد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء الى المشتري كما اصاب ابا معشر احد اصحاب الحديث فقد كان مكاتباً لامرأة من بني مخزوم فأدى وعقق ثم اشترت ام موسى بنت منصور الحميرية ولاءه^(٢) ومن أسباب العتاقة عندهم التدبير وذلك ان يقول الرجل لعبدك انت حر بعد موتي فلا يرثه اهله

مولى العقد

ويقال له ايضاً مولى حلف او اصطناع وذلك ان ينتمي الرجل الى رجل بالخدمة على اختلاف ضرورها او بالمخالفة او المخالطة او الملازمة على ان يتعاقب ذلك احياناً . ومن امثلة الموالى بالمخالفة او المخالطة اليهود في يثرب (المدينة) فقد جاء الاسلام وهم يعدون من موالي الاوس والخزرج فولأؤهم من قبيل الحلف . ولولاء اليهود في يثرب تاريخ يطول شرحه خلاصته ان اليهود نزلوا فيها قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل ان ينتقل اليها الاوس والخزرج من عرب اليمن . فلما جاءوا اليها رأوا اليهود مستأثرين بالارض والماشية فاقاموا في ضيق حتى اتفق ان اميراً منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام في شأنهم وكانه استعانهم عليهم فاتفقوا على الكيد بهم . فجاء المدينة وفعل ذلك فذلّ اليهود وخافوا وأصبحوا اذا داهمهم أحد من الاوس او الخزرج بشيء يكرهونه لا يمشون بمضهم الى بعض كما كانوا يفعلون من قبل بل يذهب كل منهم الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم فيستجير بهم فلجأ كل قوم من اليهود الى بطن من الاوس او الخزرج يتنزلون بهم^(٣) ويحالفونهم على انهم مواليهم وفيهم من ينسب ولاؤه الى رهط خاص كموالي بني التجار اخوال النبي أو موالي غيرهم من عرب المدينة ومن هذا القبيل اكثر موالي العرب بعد الاسلام فقد كان العرب اهل السيادة والشوكة واهل البلاد يلازمونهم بالخدمة او المخالطة او المعاشرة فينسبون اليهم ويسمون ذلك ولاء

الموالة وهي ان يقول شخص لآخر « انت مولاي ترتني اذا مات وتعمل عني اذا حيت » وقال الآخر « قبلت » ولكل طبقة من العرب طبقة من الموالي فقد كان البرامكة مثلاً من موالي الرشيد ومن هم دونهم من العجم موالي الامراء وهكذا
 وكان المولى في الجاهلية رباً كان نصرانياً او يهودياً او مجوسياً لا فرق في ذلك عندهم فموالي النبي كان احدهم حبشي الاصل والاخر يوناني والاخر قبطي والاخر فارسي^(١)
 وعدس مولى عتبة ابن ابي ربيعة كان من اهالي نينوى وقتل يوم بدر على النصرانية^(٢)
 اما بعد ظهور الاسلام فاصبح الولاء خاصاً بالمسلمين لان القرآن نهى عن تولي اليهود والنصارى بالآية « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء » الخ . وصاروا يعدّون بعد الاسلام من اهل الذمة

مولى الرحم

واما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل فينسب الى القبيلة التي تزوج من مواليها ومن امثلة ذلك سديف الشاعر فقد كان مولى خزاعة ثم ادعى ولاء بني هاشم لانه تزوج مولاة لآل ابي لهب (من بني هاشم)^(٣)

وللموالي عند العرب احكام عامة واحكام خاصة فاحكامهم العامة ان المولى احظ منزلة من الحر وارتفع من العبد فهو حرٌّ لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر في الزواج والميراث . فالمولى لا يتزوج حرة ودية المولى نصف دية الحر^(٤) كانه عبد . ويعامل نحوه ذلك في ما يقع عليه من القصاص فيجلد نصف حدة الحر

واما احكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء واهمها الارث فمولى العتاقة يورث ولا يرث ومولى العقد لا يرث ولا يورث ومولى الرحم يرث ويورث^(٥) فمن اعتق عبداً كان الولاء له وهو يرثه ولذلك يسمونه مولى النعمة . وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكه مواليهم او يكتسبونه بالعمل او غيره واذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل اموالهم^(٦) وكان للموالي شأن في عصبية العرب قبل الاسلام وقد عظم شأنهم في الاسلام حتى كانوا سبباً في قلب الممالك ونقل السلطة من دولة الى دولة

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٢ (٢) المسعودي ٣١ ج ١

(٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٤ (٤) الاغانى ١٧٦ ج ٢

(٥) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ (٦) Gibbon's Roman Empire II, 197

النزلة الاجانب في الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن يتبعهم من العبيد والموالي والحلفاء ونحوم وفيها ايضاً جماعة من النزلة نزحوا اليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند وفيهم الاحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم . وكان بعضهم يتوالدون فيها ويترؤسون باهلها فيختلطون بهم وتضيع انسابهم فيهم كالكلدان والسريان وغيرهم . وفيهم من يحالفونهم وينتمون اليهم كاليهود والنصارى ومنهم من يدخلون في جملة عبيدهم ومواليهم كلاحباش والفرس والهنود فتضيع اصولهم . ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور الاسلام عرباً صرفاً الا بعض اليهود كبنى قينقاع والنضير وغيرهم وشرذمات من نصارى الروم وطائفة من الفرس الاحرار يعرفون بالابناء

الابناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون في بلاد اليمن ويعرفون بابناء الفرس الاحرار أو « الابناء » تمييزاً لهم عن الفرس الموالي . وابناء الفرس الاحرار هم ابناء الجند الفارسي الذي جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذي يزن الحميري على الاحباش وكان الاحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ففزع سيف المذكور الى كسرى ملك الفرس واستجده في حديث طويل فسير كسرى معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز . فلما وصل الجيش الى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الاحباش فاستظهر الفرس عليهم واخرجوهم من البلاد وملك سيف بن ذي يزن وهرز اربع سنين . وكان سيف قد اتخذ من الاحباش خدماً نخلوا به يوماً وهو في الصيد وقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال وطلبهم اصحابه فقتلوه جميعاً وتضعف امر اليمن ولم يولوا عليهم احداً من العرب فظلت سيادة الفرس عليها حتى ظهر الاسلام وفيها عاملان من قواد الفرس احدهما اسمه فيروز الدثلي والاخر راذويه فأسلما

فالجيش الفارسي لما استوطنوا اليمن تزوجوا فيها وتناسلوا ورزقوا الاولاد والاحفاد وعرفوا بالابناء . واشتهر منهم في صدر الاسلام طائوس بن كيسان احد اعلام التابعين وهوب بن منبه صاحب الاخبار والقصص ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم وكان مثل هؤلاء الفرس ايضاً في الشام والعراق والجزيرة واختلفت اسماؤهم باختلاف اماكنهم بعد الاسلام فعم يسمون في اليمن الابناء كما رأيت وفي صنعاء خاصة يسمون بني

الاحرار وفي الكوفة الاحامرة وبالبصرة الاساورة وبالجزيرة الحضارمة وبالشام الجراجمة^(١) وكان للانباء شأن عند ظهور الاسلام فتجندوا للمسلمين ونصروهم وظلوا يميزون عن سائر المسلمين غير العرب بانهم غير الموالي

سياسة الدولة في الجاهلية

لم يكن للعرب دولة في جاهليتهم الا ما كان في اليمن من دول التبابعة مما لا يدخل في بحثنا . وانما نريد سياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها احكامهم ومعاملاتهم لحفظ علاقتهم السياسية وادابهم الاجتماعية مما يقوم مقام القوانين الادارية والسياسة الدولية في الامم المتعدنة

فالرئاسة عندهم أو الامارة انما يناها اهل العصبة والجاه واذا تساوت العصبة في جماعة قدموا اكبرهم سنًا . ولذلك كان لفظ « الشيخ » عندهم بدلًا على الشيخوخة والرئاسة معًا . واذا اشكل عليهم الانتخاب لاي سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعًا فانهم يقرعون بين اهل الرئاسة فمن خرجت عليه القرعة رأسوه — ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . واما حضرم في مكة فالرئاسة فيهم لسادن الكعبة وقد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم في الجزء الاول من هذا الكتاب

وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرئاسة والشرف فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرئاسة فيها كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاري من قيس وبيت آل زرارعة بن عدي من تميم وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله ابن همام من شيبان وبيت بني الربان من بني الحرث بن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف لتوالي ثلاثة آباء منها في الرئاسة على الاقل . ولاهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة . وكان اهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن بن علي « ولِ اهل البيوتات تستصلح بهم عشائركم »

والامير البدوي مع سلطانه المطلقة فلما يستبد في احكامه ويغلب ان يستشير اهل

بطانته وخاصته على أنه لم يكن يجتنب عن احد ولا يمتنن احداً . يجالس الناس ويخالطهم رفيهم ووضعهم . وهم لا يعرفون ألقاب التفعيم ولا نعوت التمليق فاذا خاطب البدوي اميره ناداه باسمه . وطالبه بحقه ببارات تشف عن عزة النفس وإباء الضيم أو هي انفة البداوة . على انهم كانوا يتكلمون على الاسنان والامير يخاطب رعاياه بألقاب الوفار كالأب والعم والخال والابن أو ابن الاخ على ما تقتضيه الاسنان والانساب . وظل ذلك شأنهم في صدر الاسلام ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه في شؤونه حتى اذا تحضروا احتجبوا وتكبروا فأتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم

مناقب العرب في الجاهلية

الوفاء

على ان العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل في الخصومة بينهم لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » لانه اذا تأصل في امة اغناها عن القضاء والحكومة انما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكناً في خلق العربي ويزيد تمكناً فيه كلما بعد عن المدن واوغل في الصحراء لان الغدر والتكت لا يعيشان الا في القصور السماء بظل الحقائق الغناء

ونرى الوفاء مطبوعاً في افعال اهل البادية واشعارهم وامثالهم يتجلى في عاداتهم واخلاقهم وفي سائر اعمالهم وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائي والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلة احسن تمثيل فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدي ولم يقدم شريك على ذلك الا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفي حنظلة فجاء في الوقت المعين لاجند يقوده ولا ضابطة تحفره مما حمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة ^(١)

واغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل) بن عادياء وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحاً وامتعة تساوي مالاً كثيراً وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه فبعث ملك كندة يطلب والاسلحة والامتعة المودعة عند السموأل فلم يسلمها . ولما الح عليه

اجابه « لا اندر بدمتي ولا اخون امانتي ولا اترك الوفاء الواجب علي » فجرد الملك عليه جيشاً وحاصره في حصنه فوق ابن السمؤال اسيراً عند الملك فهدد السمؤال بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعة فأبى التسليم وقال « ما كنت لآخفر ذمائي وابطل وفائي فافعل ما شئت » فذبح ولده والسمؤال بنظر . فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائباً واما السمؤال فصبر على ما تحمله من الشكل محافظة على الوفاء ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرئ القيس فن كانت هذه مناقبهم قلّت حاجتهم الى القوانين واستغنوا عن الجند والضابطة وخصوصاً اذا اضفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدينونة فهذه كلها من مناقب العرب اهل البادية

الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الدمام ايضاً « الجوار » فان البدوي يحافظ على جهاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار في الاصل ان يحافظ الرجل على جاره القريب وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل « جارك القريب ولا اخوك البعيد » ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار وكلها بمعنى الحماية والحفظ مع ان اصل المادة « جار » يفيد ضد ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على الاطلاق فاذا خاف احدهم سوا جاء الى رجل يحميه ويكفي ان يقول له « اجرني » فيجيره بقدر طاقته وقد يفرط باهله ولا يفرط بجاره

ومن امثلة ذلك ان الاعشى امتدح الاسود العنسي فاعطاه جائزة من الحلال والعنبر فرجع وطريقه على بني عامر فخافهم على ما معه من المال فأتى علقمة بن علاثة فقال له « اجرني » فقال « قد اجرتك » قال « من الجن والانس » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال « لا » فتركه واتى عامر بن الطفيل فقال له « اجرني » قال « قد اجرتك » قال « من الانس والجن » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال « نعم » قال « وكيف تجبرني من الموت » قال « اذا متّ وانت جاري بعثت الى اهلك الدية » فقال « الآن علمت انك تجبرني » ^(١)

وقد يجيىء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته فيكفي ان يعقد طرف ثوبه الى جانب طنب البيت فاذا فعل ذلك صار جاراً ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به ان يجيره وان يطلب له بظلامته ^(٢)

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه ان عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر

انصباباً ميلاً في ميل على قبره لا ينشرفه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش
 اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته ^(١)
 وما زال الجوار مرعياً عند العرب بعد الاسلام الا من خالط الامم الاخرى في البلاد
 المفتوحة . على ان تايد الدولة اقتضى ضعف الجوار لان اهل الوجاهة اصبحوا من اهل الدولة
 والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه فاذا استجار به مظلوم قالوا « انما يجير الرجل على
 عشيرته واما على سلطانه فلا » خوفاً على مناصبهم كما اصاب ابن مفرغ لما هجا بني زياد
 واستجار بالاحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد وهو يومئذ امير البصرة فابى الاحنف
 خوف العزل وقال له « اذا شئت ان اجيرك من بني سعد فعلت » فذهب الى غيره من وجهاء
 العرب فابوا اجارته لنفس هذا السبب ^(٢)

الارحية

ومن المناقب التي تفني العرب عن الوازع القهري او القوة الحاكمة « الارحية »
 وهي من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية او ما يجري مجراها من احوال الفروسية التي
 يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن
 الاحدونة . وكان للارحية شأن عظيم عند العرب لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم لانهم اهل
 خيال وذوو نفوس حساسة يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم وقد يسمعون الكلمة فتطير
 لها نفوسهم وربما بذل العربي حياته في سبيل كلمة يقولها او فراراً من كلمة يسمعا ولذلك
 كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهلة في المواسم والاندية مما يرغب في الفضائل ويغني
 عن زجر الحكام

ومناقب العرب كثيرة كالكرم والضيافة وعلو الهمة مما لا دخل له في موضوعنا



سياسة الدولة في عصر الراشدين

من سنة ١١ — ٤١ هـ

الجامعة الإسلامية

قد رأيت ان العرب انما كانوا يتفاضلون بالعصبة ويتفاخرون بالانساب فلما جاء الاسلام كان في جملة ما بدله من احوالهم انه جمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف انسابهم ومواطنهم . وبعد ان كان النبي يفاخر الحجازي والمصري يفاخر الحيري ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والانخاذ جاء الاسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو « الاسلام » فقال النبي « المسلمون اخوة » وقال من خطبة القاها يوم فتح مكة « يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وادم من تراب »^(١) وقال من خطبة في حجة الوداع « ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب واكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى »^(٢)

واقصدى النبي خلفاؤه الاولون لاسيما عمر بن الخطاب فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد ان اسلم اتفق وهو يطوف في الكعبة ان فزارياً وطياً ازارد فاحمل فرفع جبلة يده وهشم الفزاري فشكاه الى عمر فاراد عمر ان بهشم اتف جبلة فقال « وكيف ذلك يا امير المؤمنين وهو سوقه وانا ملك » فاجابه عمر « ان الاسلام جمعك واياء فلست تفضله بشيء الا بالتقى والمغاية » فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار^(٣)

فيؤخذ من ذلك ان الجامعة الكبرى انما هي الاسلام ولكنهم كانوا يجمعون للعرب مزية على سواهم من الامم لانهم قوام الاسلام . وأوصى عمر بن الخطاب باهل البادية خيراً لانهم أصل العرب ومادة الاسلام^(٤) وقال « اياكم واخلاق العجم » والاسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم . وعمر اول خليفة فضل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبهم ومن اقواله « قبح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقدوس الله عز وجل وفتح الاعاجم » وفدى سبايا العرب من الجاهلية والاسلام الى ايامه^(٥) عملاً بالحديث

(١) ابن هشام ٢١٩ ج ٢ (٢) البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج ١

(٣) الاغانى ٤ ج ١٤ (٤) ابن الاثير ٢٥ ج ٣ (٥) ابن الاثير ١٨٦ ج ٢

« لا سبأ في الاسلام »

وكان عمر لا يدع احداً من العجم يدخل المدينة ^(١) وهو الذي قسم خيبر بين المسلمين واخرج اليهود منها وقسم وادي القرى واجلي يهود نجران الى الكوفة ^(٢) فتخلو جزيرة العرب من غير العرب . وكان كثير العنابة بالجامعة العربية بوصي العرب بحفظ انسابهم لئلا تضع عصبيتهم ومن وصاياه « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدكم عن اصله قال من قرية كذا » ^(٣)

الجامعة العربية

ثم ان عمر مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها قد حرص العرب المسلمين على سكني العراق والشام فقال « ليست الحجاز لكم بدار الا على النجعة . . . سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها » ^(٤) لعلمه ان في العراق والشام عرباً يتحدون معهم وينصرونهم . وكان عرب العراق ناقلين على الفرس من ايام دولتهم لما كانوا يسومونهم اياه من الاضطهاد . وكانت ديانة عرب العراق والشام النصرانية ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبة العربية وليس للدين . وخصوصاً عرب العراق فانهم حاربوا مع المسلمين ودلّوهم على عورات الفرس — فابوزيد الطائي حارب مع المسلمين في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني وانما حارب حمية للعرب . وجاء المسلمين يوم واقعة البويب انس بن هلال الثمري في جمع عظيم من الثمروم نصارى وقالوا « نقاتل مع قومنا » ^(٥) وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية بقطع النظر عن الدين

وكثيراً ما كان عرب الشام والعراق عوناً للمسلمين في حروبهم يرشدونهم وينصونهم ويحملون اليهم اخبار اعدائهم . فلما خرج الوليد ابن عقبة غازياً للروم لقيه الروم فقاتلوه فجاءه رجل من العرب نصراني وقال له « اني لست من دينكم ولكنني اضحكم للنسب فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار فان رأوكم ضعفاء افنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم » ^(٦) وقد تفقته هذه النصيحة

ولم يكن عمر يجهد تلك الرابطة فحرص المسلمين على فتح الشام والعراق . ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لم عرف فضلهم فلما هم المسلمون بوضع الجزية على اهل الذمة وفي

(١) المسعودي ٢٩ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٨٠ ج ٢ (٣) ابن خلدون ١٠٩ ج ١

(٤) ابن خلدون ١٢٢ ج ١ (٥) ابن الاثير ٢١٥ ج ٢ (٦) الاغانى ١٨٧ ج ٤

جملتهم عرب تغلب واياك والنزروهم نصاري أبي هؤلاء الجزية وبلغ عمر ذلك فاستشار اصحابه فقال له بعضهم « انهم عرب ياتفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك » فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ولكنه شرط عليهم ان لا ينصروا اولادهم^(١)

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية وكان يعد ذلك حقاً واجباً . فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة انضمت اليه عربها النصاري الا قبيلة اباد فانهم تحملوا الى بلاد الروم فكتب الوليد الى عمر بذلك فكتب عمر الى ملك الروم « بلغني ان حياً من احياء العرب ترك دارنا واتى دارك فوالله لتخرجنه الينا او لتخرجن النصاري اليك » فاخرجهم ملك الروم^(٢) الانسياح في الارض

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعاً للجامعة العربية وللاستعانة بها على الروم والفرس ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما الا في السنة السابعة عشرة او الثامنة عشرة وهو مايعبرون عنه بالانسياح في الارض . فكانوا يطلبون الفتح وقد طابت لهم الفنائم واستلذوا النصر فاذا استأذنوه في فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم كما وقع لعمر بن العاص لما أراد فتح مصر وكان قد عرفها من ايام الجاهلية فلما فتحت الشام والعراق جاء الى الخليفة عمر ورغبه في فتحها وقال له « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وهي اكثر الارض اموالاً وأعجز عن القتال والحرب » فلم يجبه عمر ولما اخط عليه اطاعه وهو يتردد وقال له « سر اني مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى فاذا ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف والا ان دخلتها قبل ان ياتي كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستصره » فسار عمر بجنده مسرعاً خوفاً من ان ياتي كتاب الخليفة بالرجوع . فوصله كتابه في بلد قرب العريش خارج حدود مصر فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهي من مصر ففرض الكتاب واذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً في ارضها فامض واعلم اني ممدك » فمضى حتى فتح مصر

ولما فتح المسلمون الاهواز قال عمر « ليت بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون

الينا ولا نصل اليهم » ومن هذا القليل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر • وكان اذا هم المسلمون بالنزول في بلد او انشاء معسكر في البلاد المفتوحة اوصاهم ان لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء حتى اذا أراد ان يأتيهم اتاهم على راحتته مما يدل على رغبته في العصية العربية على ان يكون مركزها في بلاد العرب • ومع ذلك فلما لم يرَ بدءاً من الانسياح في الارض أذن لقواده بالفتح ولكنه ظل على رأيه في القرشين على الخصوص فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج وقال « اخوف ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد » فاذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو اجابه « قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من غزوك اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك » كان يفعل ذلك بالهاجرين من قريش فقط فلما ولي عثمان خلى عنهم فلحق معظمهم بعاوية في الشام وانتشروا في البلاد ^(١)

فسياسة عمر بن الخطاب في أوائل دولته كانت تقضي ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق وان يختص قريش بالاقامة في المدينة لانها مركز الاسلام وهم أساسه ومنشأه على انه لم يستطع ايقاف تيار الفتح فلم يرَ بدءاً من الاذن في الانسياح

فالعصية التي قام بها الاسلام الجامعة العربية ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين وخصوصاً عند الامم التي خضعت لسلطان المسلمين فكانوا اذا قالوا العرب ارادوا المسلمين وبالعكس ولفظ « طيوتنا » عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء ^(٢) والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده ان العرب كانوا في الجاهلية عصيات عديدة تختلف باختلاف الانساب فاصبحوا بالاسلام عصية واحدة تجمعها كلمة العرب وتركوا ذكر الاباء والاجداد عملاً بما يقتضيه روح الاسلام • وكانوا في جاهليتهم يتفاضلون بالانساب فاصبحوا في الاسلام يتفاضلون بالقوى والجهاد في سبيل الدين فنشأت فيهم جامعات اسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل

طبقات عربية اسلامية

لما قام النبي بالدعوة الاسلامية احتاج الى من يسمع دعوته وينصره فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه وهاجر بعضهم الى الحبشة وهاجر الآخرون الى المدينة معه فمروا بالمهاجرين وهم اقدم الطبقات الاسلامية . ولما جاء المدينة وأقام فيها نصره اهلها وآمنوا بدعوته فمهاهم « الانصار » وهم طبقة أخرى والطبقتان معاً تسميان « الصحابة » اي الذين صحبوا النبي او عرفوه . وتفرع من الصحابة عصابات تعرف كل منها بجماعة خاصة لاحوال خاصة كان لها تأثير في نصره الاسلام او نشره . فواقعة بدر كان لها شأن عظيم في تأييد الاسلام فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين ونسبوا اليها فسموا « البدرين » او « اهل بدر » وكذلك واقعة القادسية التي كانت عنوان فتح العراق وفارس فان الذين شهدوها عرفوا باهل القادسية . وقد جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات او الجماعات امتيازات خاصة وفضلوا اهل بدر وأهل القادسية بالاعطاء على سائر المسلمين

ويقال نحو ذلك في من شهد فتح مكة او سواها من الوقائع الاخرى التي كان لها شأن في الاحزاب الاسلامية كواقعة الجمل وواقعة صفين فان شيعة علي يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل لانهم انتصروا فيها ويسمونهم « اصحاب الجمل » وشيعة بني امية يفضلون « اصحاب صفين » لمثل هذا السبب وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر اصحابه على ان الصحابة يتفاضلون ايضاً في السبق الى الهجرة او الى البيعة ومنهم اصحاب بيعة العقبة واصحاب الغار . والذين لهم صجة قبل بيعة الرضوان يفرقون عن من صاحب بعدها ونحو ذلك مما يطول شرحه . ناهيك بالمناصب التي اقتضتها الاحوال الدينية او الادارية كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم

على ان عصبية النسب لم تذهب بعد الاسلام ذهاباً تاماً ولكنها تحولت الى وجهة دينية فاصبح اشرف الانساب عندهم اقربها الى قبيلة النبي (قريش) . فالنسب القرشي اشرف الانساب وللقريشيين التقدم في المناصب والمراتب والاعطاء وخصوصاً بعد اشتهار الحديث « الائمة من قريش » ^(١) فاعتقدوا الفضل للقريشيين على الناس كافة في كل شيء حتى في احوال الحياة والولادة فقالوا « لا تحمل لستين الا قرشية ولا تحمل لخمسين الا عريية » ^(٢)

وانه لا تكون بنت امرأة قرشية امة ^(١) وان القرشي لا يتزندق ^(٢) وانه لا ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم غير الاخبار ^(٣) وظلت الرئاسة في قريش لا ينافزهم فيها منازع الى عهد غير بعيد

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والانصار شأن خاص وحزب خاص ولا سيما في ايام بني امية اذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس الى عصبية الجاهلية فاخصم المهاجرون والانصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر — والمهاجرون من العدنانية (مضر) والانصار من القحطانية (الاسوس والخزرج) فعادوا الى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين الى احد الاحزاب التي نشأت في ذلك العهد فكان الانصار مع علي ومعظم المهاجرين مع معاوية وعادوا الى المهاجرة والمفاخرة بالاشعار وغيرها

وكان الانصار اهل المدينة من اشجع الناس وهم اهل الشورى يعقدون الامامة وحكمهم جائز على الامة وهم شيعة علي وسائر اهل البيت . فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا من اقوى مقاوميه فكان رجاله بكرهونهم ويسعون في اذلالهم وكثيراً ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب — يروى ان بعض الانصار استأذنوا للدخول على معاوية في ابان خلافته فدخل الحاجب وقال « هل تأذن للانصار » وكان عمرو بن العاص حاضراً فقال « ما هذا اللقب يا امير المؤمنين ؟ اردد الناس الى انسابهم »

سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للاسلام في عصر الراشدين دولة سياسية بل هي خلافة دينية اساس احكامها التقوى والرفق والعدل مما لم يسمع بمثله في عصر من العصور . ورجل هذا العصر بل رجل الاسلام على الاطلاق « عمر بن الخطاب » فان ما يروونه من اعماله واحكامه يندر اجتماعه في البشر ومناقبه مدونة في الكتب ومشهورة . واما ابو بكر فلا يقل عظمة عنه لولا قصر مدة حكمه وبكفيه من الاثر في الاسلام قتاله اهل الردة اذ رجع الناس عن الاسلام بعد موت النبي فخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهي لا تزال في طفوليتها فشمروا ابو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وايد الدين وكذلك يقال عن علي وعثمان

(١) الاغاني ١١٠ ج ١٤ (٢) الاغاني ٦٠ ج ١٤

(٣) البيان للجاحظ ١٥١ ج ١

ابو بكر

وعصر الراشدين هو بالحقيقة عصر الاسلام الذهبي ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل فقد اسلم ابو بكر وعنده من ماله اربعون ألفاً وهي ثروة طائلة يومئذ انفقها كلها في سبيل الاسلام مع ما اكتسبه من التجارة . وكان له في خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار . وكان منزله في السنخ بضواحي المدينة يغدو اليها على رجليه وبندر ان يركب فرسه . فاذا جاء المدينة صلى في الناس فاذا جاء العشاء عاد الى السنخ . وكان مع ذلك يعدو كل يوم الى السوق يبيع ويبتاع وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها . وكان قبل الخلافة يحلب للحجّ اغنامهم فلما صار خليفة سعى جارية تقول « الان لا يحلب لنا مناع دارنا » فقال « بلى اعمرى لاحلبناكم واني لارجوان لا يغيرني ما دخلت فيه » . وبعد خلافته بستة اشهر تحوّل الى المدينة وقال « ما تصلح امور المسلمين مع التجارة وما يصلح الاّ التفريغ لهم والنظر في شؤونهم » فترك التجارة فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه له ٦,٠٠٠ درهم في السنة فلما حضرته الوفاة اوصى بقطعة ارض كانت له ان تباع ويصرف ثمنها عوض ما اخذه من مال المسلمين

عمر بن الخطاب

اما عمر بن الخطاب ففي ايامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم وانصبت خزائن كسرى وقيصربن يدي رجاله ومع ذلك فانه كان من الزهد والنقشف بما ليس بعده غاية حتى قيل انه كان يقف للخطابة وعليه ازار مرقع مجلد . واذا اتفق عطاءه واحتاج الى المال اتى صاحب بيت المال فاستقرضه على ان يؤديه من عطائه . وكان شديد الحرص على اموال المسلمين لا ينفقها الا في مصالحهم ويتولى امورهم بنفسه ديناً وسياسية فيسعى في نشر الاسلام ويعلم العرب قواعد الدين فيطوف الاسواق ويقرأ القرآن ويحرض الناس على التقوى واذا حرضهم على شيء بدأ بنفسه . ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة وكان يبعث اناساً من القراء يعلمون اهل البادية القرآن ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئاً منه عاقبه بالضرب وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب^(١) وكان شديداً على غماله وقواده يحاسبهم ويدقق في استطلاع احوالهم فمن رأى فيه اعوجاجاً قومه لا يبالي من هو حتى خالد بن الوليد القائد الاسلامي الشهير فان عمر نقم عليه الامر بخالف قواعد التقوى

فاستقدمه اليه ووجهه وهدهد كانه غلام وخالد لا يجيبه^(١) وقد يضرب عامله بالدرة او بوجهه وليس فيهم من يرد في وجهه او يعترضه وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر او يطمع باموال المسلمين . ومع ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الاب لبنيه فيغديهم على موائد يجفن لهم فيها عشرة عشرة واذا اغاب قواده تفقد بيوتهم وتعهد اهالهم بما يحتاجون اليه^(٢) وكان عادلاً في الناس رفيقاً بغير المسلمين . وكانت الدنيا في ايامه مجمعة على الطاعة والناس يدخلون في الاسلام او يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة . كانه كان قابضاً على شؤون الدولة واعنة الحكومة بيد من حديد . فلما قتل تزعزت اركانها ونقض كثير من اهل الامصار وخصوصاً خراسان وسجستان^(٣) وغيرها من الاطراف البعيدة

عثمان بن عفان

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين لولا ضعفه واستسلامه الى بعض ذوي قرابته من بني امية حتى نعم عليه سائر المسلمين وخصوصاً اهل المدينة لاسباب تقدم بيانها وقتلوه . فاتخذ بنو امية قتله حجة لطلب الخلافة لانفسهم — على ان عثمان اول خليفة اُقتنى المال لنفسه فقد ذكروا انه كان عند خازنه يوم مقتله ١٥٠٠٠ دينار و ١٠٠٠٠٠ درهم وله ضياع بوادي القرى وحنين وغيرها قيمتها ١٠٠٠٠ دينار . فضلاعاً خلفه من الخيل والابل وفي ايامه اُقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واخزنوا الاموال^(٤) وتعودوا الغنى والترف فلما جاءهم علي^٥ بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف اكبروه وساعدوا على التمتع قيام معاوية واطاعهم بالاموال وسياً في بيان ذلك

علي بن ابي طالب

اما علي فخكاياته في الزهد والتقوى كثيرة وكان شديد التمسك بالاسلام حرّاً القول والفعل لا يعرف الدعا ولا يركن الى الحيلة في شأن من الشؤون وانما همه الدين وعمدته في اعماله الصدق والحق . فمن امثلة نقشفه وزهده انه تزوج فاطمة بنت النبي وليس له فراش الا جلد كبش كانا بنامان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضحهما بالنهار ولم يكن عنده خادم يخدمه . وجاءه مال من اصبهان في ايام خلافته فقسمه على سبعة اسهم فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة وكان يلبس قطيفة لا ثقيه البرد . وراه بعضهم يحمل تمرأ في ملحفته فد

(١) ابن الاثير ١٧٤ ج ٢ (٢) الجزء الثاني من هذا الكتاب

(٣) ابن الاثير ٦٠ ج ٣ (٤) المسعودي ٣٠١ ج ١

اشتراه بدرهم فقال له يا امير المؤمنين الانحمله عنك فقال « ابو العيال احق بحمله » ومن اقواله في كيف يجب ان يكون المسلمون قوله « خصص البطون من الطوى ببس الشفاء من الظاعمش العيون من البكاء » ^(١) ومن امثلة عدله انه رأى درعاً له عند رجل فنقاضيا الى شريح القاخي فوقف علي بجانب خصمه احتراماً للعدل . وكان اذا بعث رجاله في حرب اوصاهم ان يرفقوا بالناس وان يكفوا الاذى عن النساء

وكان شديداً في محاسبة رجاله حرصاً على العدل والحق كما كان يفعل عمر . ولو تولى امور المسلمين في زمن عمر والناس في دهشة النبوة وصدق الدين لكان نصيبه من الحكم اطول ولما بدا في تديره ضعف ولكنه تولاهما وقد فسدت النيات وطمع العمال في الاحكام واطمعهم وادهاهم معاوية بن ابي سفيان فانه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل وعلي^٢ يضع الاحزاب بتدقيقه في محاسبة عماله وقواده والمبالغة في المحافظة على الدين واسباب التقوى ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عمه عبدالله بن عباس وكان عاملاً له على البصرة فوشى به ابو الاسود الدؤلي الى علي فكتب علي^٣ الى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشي فاجابه « اما بعد فان الذي بلغك باطل واني لما تحت يدي لضايط وله حافظ فلا تصدق الظنين والسلام » فكتب اليه علي^٤ « اما بعد فاعلمي ما اخذت من الجزية ومن اين اخذت وفيما وضعت » فكتب اليه ابن عباس « اما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك اني رزئته من اهل هذه البلاد فابعث الى عمالك من احببت فاني ظاعن عنه والسلام » واستدعى اخواله من بني هلال بن عامر فاجتمعت معه قيس كلها فحمل مالا وقال « هذه ارزاقنا اجتمعت » فتبعه اهل البصرة الى مكة ^(٥) ولم ينتفع علي^٦ به ولا باحزابه — فلم يفعل علي^٧ باين غمه غير ما كان عمر يفعل به عماله ولكن الاحوال كانت قد تغيرت وقام معاوية ببتناع الاحزاب بالعتاء ويجتذب القواد بالدهاء

وزد على ذلك ان رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية وكانت لا تزال فيهم الاريمية والانفة وحرية البداوة والوفاء وجاء الاسلام فكمّل الاسباب الباعثة عن الاتحاد والنهضة والقوة

على ان سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران او تقتضيه سياسة الملك وانما هي خلافة دينية توفقت الى رجال يندر اجتماعهم في عصر والى احوال يكفي منها الجامعة الاسلامية والحمية الدينية والانفة البدوية والاريمية العربية . فهذه كلها اجتمعت

(١) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٩٦ ج ٣

في عصر واحد وتلاءمت فانتشر الاسلام وفتح العالم في بضعة عشرة سنة كما هو مشهور^(١) فاهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصالح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب وان انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسي لم يكن منه بدٌ - سنة الله في خلقه

انتشار العرب في الارض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيدهم على فتح العراق والشام لعلهم بما هنالك من قبائل العرب فاذا انضموا الى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة . ولكنه منعه مما وراء ذلك وامرهم اذا بنوا بلداً في دار الفتح ان لا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ما يوجب الخوف على الجامعة العربية ان يزداد تباعد اطرافها فتمتزق ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبي على ان يستبقى البلاد المفتوحة لاستمرار ما فيها من غلة او مال لاهل الحجاز . ولهذا السبب ايضاً نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتماداً على الحديث القائل « السكة (المحراث) ما دخلت دار قوم الا دخله الذل »^(٢) ولان الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب وهو يريد ان يقيمهم حامية للجمع الحراج والحزبة واستبقاء السلطة ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط الا حصوناً او معسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية او جيش الاحتلال^(٣) ولهذا السبب ايضاً أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملاً بوصية النبي « ان لا يترك في جزيرة العرب دينان »^(٤) وان لا يأتي الحج احداً من المشركين^(٥) فاخرجهم وتخلص من خطرهم اذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لافلقوا الراحة وربما كانوا عوناً لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن خلدون ١١٩ ج ١

(٣) الجزء الاول من هذا الكتاب (٤) ابن هشام ١٩٥ ج ٢

(٥) ابن هشام ٥٠ ج ٣

فكانت السياسة في صدر الاسلام ان يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها • وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم فلم يكفوا عن عمر حتى اذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم فكان عمر وهو في المدينة قابضاً على اطراف الدولة يشدها نحوه ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقاً وغرباً حتى اضطر اخيراً الى مجاراتهم واذن بانسياحهم في الارض ففرق العرب وفتحوا مصر وفارس وافريقيا وغيرها ولما تولى عثمان اطلق العنان لقريش ان يخرجوا من المدينة فخرجوا وتفرق العرب في الارض وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ نفس^(١) وهم جند المسلمين وعليهم حامية مملكتهم الجديدة واستغلالها وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد
الاستكثار بالتناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياض على ما صارت اليه بعد الاسلام • ذكروا ان اكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل وهو جيش يوم الصفقة^(٢) والذين تجندوا الاسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الاسلام قليلين كما رأيت ومملكتهم الواسعة تحتاج الى رجال فعمدوا الى الاستكثار بالتناسل وهو من قواعد العصبية العربية • فان عبد المطلب جد النبي لما ظهرت قريش عليه نذر لله اذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون ان يمنعوه ويذبوا عنه فحراهم قرباناً لله فجاءه عشرة اولاد فاشد ازره بهم

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم وما وقع في ايديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيّات استكثروا من امهات الاولاد فضلاً عن الزوجات فكثرت نسلهم — والتربى يزيد الدولة في اوطاها قوة بكثرة النسل • وتسابقوا الى احراز الجوارى حتى ان بعضهم احصن ثمانين امرأة معاً كالمغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله اربع نسوة و٧٦ أمة^(٣) فلا غرابة اذا ولد لاحدهم خمسون ولداً او مئة ولد او اكثر • ذكروا انه وقع للارض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد^(٤) وخلف عبد الرحمن بن الحكم الاموي ١٥٠ ذكراً و ٥٠ انثى^(٥) وخلف تميم بن المعز الفاطمي اكثر من مئة ذكر و ٦٠ انثى^(٦) وكان لعمر بن الوليد تسعون

(١) ابن خلدون ١٣٦ ج ١ (٢) المقدم الفريد ٧٨ ج ٣

(٣) فلاغاني ١٤٣ ج ١٤ والمعارف ١٠٠ (٤) ابن خلدون ١٤٧ ج ٢

(٥) نفع الطيب ١٦٤ ج ١ (٦) ابن خلدون ٩٩ ج ١

ولداً منهم ستون يركبون الخيل^(١) . وولد لابن سيرين ٣٠ ولداً من امرأة و ١١ بنتاً^(٢) وقس على ذلك مما يطول شرحه وفي التاريخ ادلة كثيرة على قيام الدول بمصيبة الملك من الاولاد والاخوة والاعمام كالعباسيين والايوبيين وغيرهم
انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام . فلما ظهر الاسلام اجتمعت كلّة العرب على نصرته ونهضوا للفتح واوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا في الارض حتى نصبوا اعلامهم على ضفاف الكنج شرقاً وشواطئ البحر الاثلاثيكي غرباً وملاوا الارض فتحاً ونصراً واحتلوا مدائن كسرى وقيصر واقاموا في المدن واركبوا الى الحضارة وتمودوا الترف واختلطت أنسابهم بتوالي الاجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم والقبائل التي قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وانصارها من العدنانية والقحطانية — واليك اسماء القبائل التي مهدت قواعد الدولة الاسلامية ونشرت الدين الاسلامي بالفتح من اول الاسلام:

من العدنانية من القحطانية

مضر	ربيعة	كهلان	حميز
قريش	تغلب بن وائل	الايوس والخزرج	قضاة وبطونها
كثانة	بكر » »	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الازد	سليح
اسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خثعم	بهراء
تميم	ذهل	بجيلة	عذرة
غطفان	شيدان	مذحج	
سليم	تيم الله	مراد	وغيرها
هوازن	الفر بن قاسط	زيد والنخع	
ثقيف	وغيرها	الاشعريون	
سعد بن بكر وعامر		لخم وكندة	

(١) القمد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٤٥٣ ج ١

على ان هذه القبائل لم تكن في اوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس بل كانت رابطة
ثم احتلوا وقرقوا في الارض وافقهم الدولة الاسلامية العربية فبنا منهم الثغور القصية
واكلتهم الافطار المتباعدة واستلحمتهم الوقائع وضاعت انسابهم بتوالي الاحيال حتى
خرجت الدولة من ايديهم

انتشار العرب بالمهاجرة

على ان انتشار العرب في الارض لم يكن بالفتح فقط ولكنهم تفرقوا ايضا بالمهاجرة
باهلهم وخيامهم وانعامهم التماسا لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة . فقد
جلبت بطون من خزاعة الى مصر والشام في صدر الاسلام لان ارضهم اجديت فمشوا
يطلبون الغيث والمرعى ^(١) وكذلك كانت تفعل العرب كلما اصابها جديب حتى كانت لهم
اعوام خاصة يجلبون بها الى مصر والشام يسمونها اعوام الجلاء ^(٢) وكانوا يفعلون ذلك قبل
الاسلام اذا اجديت ارضهم يعموا العراق وفارس فيعطيهن الفرس التمر والشعير ولكنهم كانوا
لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم ^(٣) خوفاً من الدل في سلطان دولة العجمية . اما
بعد الاسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آبائهم او اعمامهم او اخوالهم وغرسوا فيها
اعلامهم وجعلوها فيما لهم

على ان الغالب في نزوح العرب من احيائهم وانجاعتهم الى المدن او اكنافها ان يكون
بايعاز بعض الحلفاء او الامراء وخصوصاً بعد رجوع العرب الى عصبية النسب بين قحطان
وعدنان او مضر وقيس في عهد الدولة الاموية . فكان الامير او الخليفة اذا تولى بلداً
وخاف على سلطانه من امير آخر ذي عصبية اخرى استقدم جماعة من قبيلته او من ينتهي
اليها بالحلف ونحوه يسكنهم في ضواحي بلده لاستنصارهم عند الحاجة فيطلق لهم المرعى
ويفرض لهم العطاء كما حدث في ولاية الوليد بن رفاعه على مصر في خلافة هشام بن
عبد الملك الاموي وكان هشام يقرب قبيلة قيس (العدنانية) لانهم نصره وابدوا خلافته
ولم يكن منهم في مصر الا بعض البطون وقيس قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وانخاض
واول من بنه هشام الى نقلهم ابن الحبحاب فانه وفد عليه فسأله ان ينقل الى مصر منهم
ايانا فاذن له في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر اي ان يقبضوا
رواتبهم من حكومة مصر على ان لا ينزلهم في الفسطاط فانزلهم في الحوف الشرقي (الشرقية

(١) الاغانى ج ٦ ص ١٣ (٢) الاغانى ج ٤٧ ص ١١

(٣) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٢

والدقيلية) ولا سيما في بلبيس وامرهم بالزرع ^(١) ثم نقاتروا بعد ذلك وتكاثروا فيها
 * بنو سليم وبنو هلال * وقد يكون الباعث على استقدامهم وتحضيرهم رغبة الامير او
 الخليفة في التخلص من شرهم كما فعل العزيز بالله الفاطمي ببني سليم وبني هلال وهما بطنان من
 مضر كانوا الى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون احياء ناجعة اهل بادية
 محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد بنو سليم من جهة المدينة وبنو هلال من جبل غزوان عند
 الطائف . فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء اطراف العراق والشام فيغيرون على الضواحي
 ويفسدون السابلة وربما اغار بنو سليم على الحاج ايام الموسم بمكة وايام الزيارة بالمدينة .
 ثم ظهر القرامطة فتخيز بنو سليم لهم وعاشوا في البلاد وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم .
 فلما افضت خلافة مصر الى العزيز بالله الفاطمي كان القرامطة قد تغلبوا على الشام فانتزعها
 العزيز منهم وردهم الى قراهم في البحرين ونقل اشياعهم من بني هلال وسليم وانزلهم بالصعيد
 في العدو الشرقية من بحر النيل فاقاموا هناك وكان لهم اضرار في البلاد والخلفاء يدارونهم
 ويحشون عن وسيلة يتخلصون بها منهم . فاتفق بعد سنين ان عامل الفاطميين في افرقية شق
 عصا الطاعة وبايع للدولة العباسية وقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة والطرز والرايات
 فعظم الامر على الخليفة بالقاهرة وهو يومئذ المنتصر بالله فاشار عليه وزيره الحسن بن علي
 ان يقرب اليه احياء هلال وسليم المذكورين وبصطنع مشائخهم وبوليهم اعمال افرقية
 ويرسلهم لاستلام امورها فاذا فازوا كانت احدى الحسينين والا فانه يتخلص من شرهم .
 فبعث الخليفة وزيره الى هذه الاحياء سنة ٤٤١ هـ وحرضهم على الذهاب الى المغرب وتملكه
 ففرحوا واجازوا النيل وساروا برًا الى برقة ففتحوها . ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب
 طمعاً بالكسب واصبحت افرقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين فاقسموا البلاد فيما بينهم ^(٢)
 وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين الى الاندلس بعد انقسام فتحها اذ
 صرف عرب الشام وغيرهم المهم الى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها . فنزل بها من جراثيم
 العرب وساداتهم جماعة اورثوها اعقابهم وفيهم قبائل من العدنانية والقحطانية ^(٣) وكل
 قبيلة كانت نزل البلد الذي يشبه بلدها باقليمه ومرعاه . ناهيك بما كان ينتقل من القبائل او
 البطون في اثناء الحروب في عصر الامويين للنجدة او نحوها

(١) المقرئ ٨٠ ج ١ (٢) ابن خلدون ١٤ ج ٦

(٣) نفع الطيب ١٣٧ ج ١

العبيد والموالي في الاسلام

للعبيد والموالي شأن كبير في الدولة الاسلامية وقد اثروا في سياستها وجندها وفي سائر احوالها من العلم والادب والفقه فلا غرو اذا افردنا للكلام عنهم فصلاً خاصة الرق في الاسلام

قلنا ان الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان اكثره بالاسر او الشراء واما في الاسلام فاكثر الاسترقاق بالاسر وخصوصاً في اثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في ايديهم من الاسرى . فاذا غلبوا جنداً او فتحوا بلداً اسروا رجاله وسبوا نساءه واطفاله واقتسموا الاسرى والسبايا والغنائم وهي كثيرة ربما زاد عدد الاسرى في المعركة الواحدة على عشرات الالوف فيجتمون اعناقهم ويتسمونهم على الاسهم وقد يصيب الفارس من العرب مئة اسير ومئة جارية في وقعة واحدة فيجتمع عند بعضهم بتوالي الايام الف عبد او اكثر ^(١) وهم عند الامراء اكثر مما عند غيرهم وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين . على ان الخليفة عثمان كان عنده الف عبد ^(٢)

والغالب في الاسرى اذا كانوا كثيراً ان يباعوا بالجملة قبل تفريق الاسهم فينادون على الاسير بمئة درهم او الف درهم وافل او اكثر وربما اقتضى لبيع اسرى معركة واحدة عدة اشهر . ومن اكثر الفتوح اسرى وغنائم فتوح الاندلس فقد ذكروا انهم ظلوا يبيعون الاسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة اشهر ^(٣) وتكاثرت الاسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية حتى نادوا على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة ^(٤) وكثرت الاسرى والغنائم عليهم في واقعة ارك بالاندلس حتى بيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم ^(٥)

على انهم كانوا يعدون البلد المفتوح عنوة ملكاً للفاطميين بما فيه من الناس والدواب والبساتين والانهار والاشجار وقد تمسك بنو امية بذلك وبالغوا فيه كقول سعيد بن العاص « السواد بستان فريش » وقول عمرو بن العاص لصاحب خربت « انتم خزانة لنا ائخ » لاعتباره مصر ففتح عنوة . ومن اقوال الامويين « ان مصر فطحت عنوة واهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا » ^(٦)

(١) ابن الاثير ١٤٢ ج ٤ (٢) الدميري ٤٩ ج ١

(٣) نفع الطيب ٢١٣ ج ١ (٤) ابن الاثير ١٩٩ ج ٦

(٥) نفع الطيب ٢٠٩ ج ١ (٦) ابن الاثير ٢٧٩ ج ٢

والغالب في عامة الجند من المسلمين ان يبيعوا اسراهم ويحجزوا اثمانهم لعجزهم عن القيام بمعاشهم فلم يكن يستبقى الاسرى في حوزته عبيداً الا الامراء حتى يفتديهم اهلهم او يعتقهم هو لسبب من الاسباب

ومن مصادر الرقيق في الاسلام غير الاسران بعض العمال وخصوصاً في افريقية وتركستان ومصر كانوا يؤدون بعض خراج اعمالهم من الرقيق ^(١) وكان بعض اهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقاً من اولادهم ^(٢) غير ما كان يقع في ايدي المسلمين من الرقيق الاصلي في جملة الغنائم

اما احكام الاسرى في الاسلام فالخليفة (او من يقوم مقامه) مخير بين اربعة اشياء اما القتل واما الاسترقاق واما الفداء بمال او اسرى واما المن عليهم بغير فداء . فان اسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في احد الثلاثة الباقية ^(٣) فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الاحوال

ومن ملك رقيقاً بالاسر او الشراء او غير ذلك كان مخيراً في استبقائه او يبعه او المن عليه بالعق ومن اعتق عبداً صار مولاه . وللعق اسباب كثيرة اهمها في الاسلام اظهار التقوى او الغيرة على الدين فاذا اسلم العبد وظهر التقوى اطلقه سيده . فقد اعتق عبد الله بن عمر ابن الخطاب على هذه الصورة الف عبد ^(٤) واعتق محمد بن سليمان ٧٠٠٠ مملوك ومملوكة . وقد يعتقونهم فداء عن يمين او وفاء لنذر او التماساً للثواب او شكرًا لله على نعمة او نحو ذلك . وكان بعض اهل الورع يتناعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله . واقسم عمر بن ابي ربيعة لما اسن ان لا يقول بيت شعر الا اعتق رقبة وقد نظم وبراً بقسمة غير مرة ^(٥) كانوا يعتقون العبيد ترغيباً لهم في الجهاد كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المري صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك في واقعة الشعب لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل فصاح في العبيد « اي عبد قاتل فهو حر » فقاتل العبيد قتالاً اعجب منه الناس وانهمزم الاعداء ^(٦) وكثيراً ما كانوا يرغبون العبيد في نصرة الاسلام وهم عند اعدائهم بان يعدوهم بالعق كما فعل النبي يوم حصار الطائف اذ قال « كل عبد نزل اليّ فهو حر » ^(٧) وكان فعل

(١) المقرئ ٣١٣ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٣

(٣) الماوردي ١٢٥ (٤) ابن خلكان ٢٤٧ ج ١

(٥) الاغانى ٦٤ ج ١ (٦) ابن الاثير ٧٨ ج ٥

(٧) المعارف ٩٧

المسلمون في بعض البلاد التي فتحوها فكانوا يعدون عبيدها بالعتق اذا استلموا فيدخل بعضهم في الاسلام على نية ان يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب ولكنهم لما ارادوا ذلك عدهم المسلمون مرتدين فخلّ حرّهم

على ان الاسلام جاء رحمة للارقاء فاوصى النبي بهم خيراً بقوله « لا تحملوا العبيد مالا يطبقون واطعموهم مما تأكلون » ^(١) وقال « لا يقل احدكم عبيدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي » وفي القرآن « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختلاً فخوراً » والاسلام من الجهة الاخرى يحرض العبيد على التقوى وحسن العبادة ^(٢) وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرق والسبي بقوله لا سبأ في الاسلام ولا رق على عربي في الاسلام » ومن أحكام العبيد عندهم ان يعاملوا معاملة نصف الحر فالعبد اذا اذنب ضرب نصف ما يضرب الحر ^(٣) واذا احسن كانت جائزته لمولاه — والاسرى الذين يقعون في ايدي العرب بالفتح من أهل البلاد المفتوحة فيهم النصراني واليهودي والمجوسي والصابي والسامري وغيرهم • فهو لاء اما ان يفديهم اهلهم او يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق او يستبقوهم في خدمتهم لقضاء حاجات المنازل او رعاية الابل او الماشية او لبري القسي ورمي النبيل او جمع النبيل المتساقطة وقت القتال او الرواية الشعر او حفظ القرآن او الحديث او غير ذلك • فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته فالعبد الذي لا يعرف صناعة يساوي مئة دينار فاذا كان راعياً للابل يحسن القيام بها يقدرّون قيمته ٢٠٠ دينار فاذا كان عارفاً بصناعة النبيل والقسي يباع باربعمئة دينار فاذا كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار — تلك اثمان العبيد في واسط دولة بني أمية ^(٤)

وأما القن فهو العبد الذي يشتغل في الارض وهو خاص بالقرى ويسمى المزارع المقيم • فلاحاً قراراً • فاذا اقتطعت أرضه او بيعت لاحد او دخلت في ملك احد بالفتح او غيره كان الفلاح تبعاً لها وصار • عبداً قنّاً • الا انه لا يرجو ان يباع او يعتق ولا يستطيع مولاه ذلك لو اراده بل هو قنٌّ ما بقي حياً وكذلك اولاده بعده فانهم يكونون عبيداً لملك الارض او مقتطعها وقد اشرنا اليه في كلامنا عن العبيد في الجاهلية

(١) المقرئ ١٣٧ ج ١ (٢) البخاري ٥٩ ج ٢

(٣) الاغانى ١٥٢ ج ٤ (٤) الاغانى ١٣٣ ج ١

الموالي في الاسلام

والباقون في الاسر اذا اعتنقوا الاسلام نجوا من الرق غالباً اذ يغلب ان يعتقدوهم مكافأة لهم ومن أعتق منهم صار مولى ولذلك كان الموالي من المسلمين غير العرب استنكافاً من استرقاق المسلم ثم اطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربي فاذا قالوا الموالي ارادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوساً او ذميين واعتنقوا الاسلام او كانوا ممن لازم العرب او التجأوا اليهم ويسمونهم «الحمراء» فاذا قالوا «الحمراء» ارادوا الموالي • والحمراء في القاموس العجم وهم كل من سوى العرب

واصبح الموالي في الاسلام طبقة خاصة من طبقات الميأة الاجتماعية كان لها شأن عظيم في تاريخ الاسلام ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية العربية لقول النبي « مولى القوم منهم »^(١) وقوله من ادعى الى غيرايه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين^(٢) وأهل الرجل عند العرب الموالي والذراري • وبنق الرجل بمولاه كما يثق بابنه لانه لم يعتقه إلا حباً به والمولى يعدّ عتقه مئة لمولاه عليه فيترك نسبه الى اهله وينتسب الى مولاه فيقال فلان مولى فلان ولا يقال ابن فلان • او ينتسب الى قبيلته فيقال مثلاً ابن سريج مولى بني نوفل ومحرز مولى عبد الدار وحكم الوادي مولى الوليد بن عبد الملك وابن عباد مولى بني مخزوم وقس عليه • ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة وخصوصاً في من يعيش من الموالي في بيت مواليهم ولكن الغالب ان يخرجوا للعمل يعملونه حتى اذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوأئهم

وللموالي فضل كبير في الاسلام لان معظم الحفاظ واهل التفسير واللغة والشعر وسائر العلماء وأكثر التابعين منهم لاشتغال العرب عن هذه العلوم بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة^(٣) ومعظم الموالي الذين خدموا العرب في صدر الاسلام من بقايا الفتيء والغنائم في فارس وغيرها وأكثرهم غلمان كانوا في جملة السبي فربوا في الاسلام ونسبوا فيه او نبغ اولادهم — منهم اربعون غلاماً كانوا يتعلمون الانجيل في عين التمر لما فتحها خالد بن الوليد فغنمهم خالد وبعثهم الى ابي بكر بالمدينة ففرقهم في اهل البلاء من جملة الغنائم فاعتنقوا الاسلام واعتنقهم مواليهم فنبغ من اولادهم جماعة كانوا عوناً كبيراً

(١) العقد الفريد ١١١ ج ٢ (٢) ابن هشام ٧٧ ج ٣ والبيان ١٦٤ ج ١

(٣) الجزء الثالث من هذا الكتاب

للمسلمين في السياسة والحرب والعلم والدين منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والاندلس
فان اباہ من اولئك الاربعين . وكذلك محمد بن سيرين صاحب تعبير الرؤيا فان اباہ
منهم . وحران مولى عثمان بن عفان ^(١) وايضاً محمد بن اسحق صاحب المغازي والسير
فان جده يسار منهم ^(٢) وقس على ذلك سائر مشاهير الموالى الذين أصلهم من السبي في اثنا
الفتح او بعده

فابو صفر من سبي دبا في ايام ابي بكر وحماد الراوية اصل ابيه ويلمي من سبي
مكتف بن زيد الخيل ^(٣) وسائب خاثر اصله من فيء كسرى . ومروان بن ابي
حفصة الشاعر الشهير اصله يهودي من سبي اصطخر ^(٤) والهروي اللغوي المشهور اسير
وقع في سهم عرب نشأوا في البادية ^(٥) وابن الاعرابي سندي الاصل وابو دلامة كوفي
اسود كان عبداً لرجل من بني اسد فاعتقه ^(٦) وقل نحو ذلك سائر حملة العلم في الاسلام
(راجع الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ٤٩)

وقد يكون المولى من اصل رفيع واسترقه الاسر ولم يتوفق له الفداء فان بعض موالي
المنصور من اولاد المرازبة ^(٧) وابو علي بن بزيمة الذي يروى عنه وابو زهير جد المطلب
بن زياد اصلهما من ابناء الاكاسرة وقعا في الاسر يوم المداثن فاهدهما سعد الفايح الى
سمرة بن جنادة الصحابي فاعتقهما ابنة جابر ^(٨) . وانتقى ابو موسى الاشعري ستين
غلاماً من اولاد الدهاقين من سبي يروذ بفارس وفرق بعضهم في المسلمين غير الذين
اقتداهم اهلهم ^(٩)

وكان للخلفاء والامراء ثقة كبرى بمواليهم يمهّدون اليهم بكل شؤونهم فاكثر حجاب
الحلفاء الراشدين من مواليهم لافرق في ان يكون اصلهم فارسياً او ديلمياً او حبشياً
او رومياً فوالى ابي بكر اولهم بلال بن رباح كان عبداً حبشياً لرجل من مكة
اشترى ابو بكر بخمس اواق واعتقه . وهو اول من اذن في المدينة وكان له مقام
رفيع في الاسلام وكذلك عامر بن فهيرة وابو نافع ومرة بن ابي عثمان وغيرهم ^(١٠) وقس

٠ (١) ابن الاثير ١٩٢ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨

(٣) المعارف ١٨٣ (٤) الاغانى ٣٦ ج ٩ (٥) ابن خلكان ٥٠١ ج ١

(٦) الاغانى ١٢٠ ج ٩ (٧) الاغانى ٨٢ ج ٢٠ (٨) المعارف ١٠٣

(٩) ابن الاثير ٢٣ ج ٣ (١٠) المعارف ٥٨

على ذلك موالي عمر وعثمان وعلي وغيرهم من الخلفاء وكبار الصحابة . وكانهم يستهلكون في سبيل مواليهم لاعتقادهم الفضل لهم عليهم وفي التاريخ شواهد كثيرة من هذا القبيل على اختلاف الاعصر — من ذلك ان محمد بن يزيد المهلبى لما نشبت الفتنة بين الامين والمؤمن كان هو من حزب الامين وأراد ان يحفظ له الاهواز من أصحاب طاهر بن الحسين قائد جند المؤمنين فباغته طاهر بجنده قبل ان يحصن وضايقه فالتفت المهلبى المذكور الى مواليه وقال لهم « ما رأيكم .. اني أرى من .مي قد انهزم ولست آمن خذلانهم ولا ارجو رجعتهم وقد عزمت على الزول والقتال بنفسى حتى يقضى الله بما احب فمن أراد الانصراف فلينصرف فوالله لان تبقوا احب الي » من ان تموتوا « فقالوا « والله ما انصفناك اذا تكون قد اعقتنا من الرق ورفعتنا من الضمة واغنيتنا بعد القلة ثم نخذلك على هذا الحال فلعن الله الدنيا والعيش بعدك » ثم نزلوا فعرقوا دوابهم واستقلوا بين يديه (١)

على ان المولى لا يزال احط مقاماً من العربي . وكان الموالي في صدر الاسلام يتولون كثيراً من مصالح الدولة التي تفتقر الى امانة وثقة فضلاً عن العلم والدين ولهم الرواتب السنية (٢) لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التي تحتاج الى شرف وعصية كالقضاء مثلاً فانهم كانوا يعدونه فوق مرتبتهم . فان عمر بن عبد العزيز لما اراد ان يولي مكحولاً القضاء ابى وقال « قال النبي لا يقضي بين الناس الا ذو الشرف في قومه وانا مولى (٣)



(١) ابن الاثير ١٠٦ ج ٦ (٢) الاغاني ١٦٣ ج ١٠

(٣) العقد الفريد ٨ ج ١

سياسة الدولة في عصر الامويين

من سنة ٤١ — ١٣٢ هـ

قد رأيت مما تقدم ان سياسة الدولة في ايام الراشدين انما كان قوامها الجامعة العربية وعمادها العدل والرفق والارحية ففتحوا العالم وأسسوا الدولة الاسلامية واخضعوا معظم المعمور في بضع وعشرين سنة ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق والعمل بالكتاب والسنة وغايتهم نشر الدين والتاس الثواب في الآخرة وحكومتهم بالانتخاب والشورى وسترى في سياسة بني أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه

انتقال الخليفة الى الامويين

لما طمع بنو أمية في الخلافة كانت قد افضت الى علي بن ابي طالب صهر النبي وابن عمه والمسلمون يمتقدون انه أحق الناس بها لقربته من النبي وتقواه وشجاعته وعلمه وسابقته في الاسلام وفضله في تأييده . فتصدى له معاوية بن ابي سفيان وكان أبوه وأخوته من أشد الناس مقاومة للاسلام عند ظهوره ولم يسلموا الا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وانما اقدموا على ذلك مضطرين لما رأوا الاسلام قد تأيد في جزيرة العرب ولم يبق سبيل الى مقاومته

وكان ابو سفيان والد معاوية زعيم اهل مكة وقد حارب النبي في عدة أماكن وجاهر بعدوانه وطعن فيه فلما ظفر المسلمون في غزواتهم واشتد ازهرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى اقبلوا عليها كان ابو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون . فلقيهم العباس عم النبي فقال له ابو سفيان وقد اسقط يده « لقد اصبح امر ابن اخيك عظيماً » فاشار عليه العباس ان يستأمن فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الاسلام فاسلم هو وأولاده وفيهم معاوية وقد تألفهم النبي بالعطاء ليثبتوا في اسلامهم^(١)

المنافسة بين أمية وهاشم

والسبب في طلب معاوية للخلافة متصل بالجاهلية . وذلك ان بني عبد مناف هم اشرف بطون قريش واكثرهم عدداً وقوة وهم نخذان بنو أمية وبنو هاشم وكان بنو أمية أكثر عدداً من بني هاشم وافر رجالاً وكان لهم قبل الاسلام شرف معروف انتهى الى حرب ابن أمية والد ابني سفيان وجد معاوية . وكان حرب المذكور رئيسهم في واقعة الفجار قبل الاسلام وله جاء وشوكة في الفخذين جميعاً . فلما جاء الاسلام والنبي من بني هاشم شق ذلك على بني أمية وكانوا من اقوى الساعين في مقاومته فلم يفلحوا . ولكنهم حملوا النبي على الفرار من مكة الى المدينة وقد نصره الانصار هناك وهم من القحطانية حتى استتم له الامر وقد مات عمه ابو طالب وهاجر بنوه مع النبي الى المدينة . ثم لحقهم اخوه حمزة ثم العباس وغيره من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم فخلا الجولبي أمية في مكة واستغلظت رئاستهم في قريش وزادت سطوتهم بعد واقعة بدر اذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون . فاستقل ابو سفيان بشرف أمية بمكة والنقد في قريش وكان رئيسهم في واقعة أحد وقائدهم في واقعة الاحزاب وما بعدها . فلما استنحل امر المسلمين فتحوا مكة واستأمن ابو سفيان كما تقدم رأى النبي من حسن السياسة ان يمين على قريش كافة بعد ان ملكهم بالفتح عنوة فمن عليهم واطلق سبيلهم وقال « اذهبوا فانتم الطلقاء » وفيهم معاوية فاسلموا جميعاً

فلما مات النبي وتولى الخلافة ابو بكر جاء القرشيون ومعظمهم من بني أمية وشكروا اليه ما وجدوه في انفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين والانصار فقال لهم ابو بكر « لقد جئتم الاسلام متأخرين فادركوا اخوانكم في الجهاد » فجاهدوا في حروب الردة . ولما تولى عمر ابن الخطاب ادرك ما في نفوسهم تخاف بقاءهم في المدينة فرمى بهم الروم ورجعهم في الشام فاستعمل يزيد بن ابني سفيان عليها فانقل معه سائر قريش واستطابوا فأكهة الشام فاقاموا فيها حتى توفي يزيد المذكور فولى عمر مكانه اخاه معاوية . ولما تولى عثمان سنة ٢٣ هـ أقر معاوية على الشام فاتصلت رئاسة بني أمية على قريش في الاسلام كما كانت في الجاهلية وبنو هاشم مشغولون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا

معاوية وعلي

وكان بنو أمية ينظرون الى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه ويتوقعون فرصة للقبض على ازمة الملك . فلما قتل عمر بن الخطاب وامر بالشورى اختار الصحابة عثمان بن عفان

وهو من بني أمية ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسيسة أموية . وكان عثمان ضعيفاً يؤثر ذوي قرابته في مصالح الدولة فاغتنم الامويون ضعفه وتولوا الاعمال واستاثروا بالاموال فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه وقتلوه

فاتخذ الامويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ورئيسهم معاوية بن ابي سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش . وكان اهل المدينة قد بايعوا علي بن ابي طالب وجهودهم الانصار فاصبح المسلمون بومئذ حزبين رئيسيين (١) الانصار ويريدون الخلافة لاهل بيت النبي جرباً على نصرتهم اياه يوم هجرته (٢) قريش في الشام ويطالبونها لمعاوية ابن زعيمهم في الجاهلية . وجهود الصحابة يرون الحق لعلي فلم ير معاوية سبيلاً الى نيل بغيته الا بالدهاء والتدبير وكان ادهى اهل زمانه بلا منازع فنظر في الامر نظر رجل يطلب الملك كما يطلبه اهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر بلا علاقة بالدين وقد ساعده على ذلك ان خصمه علياً كان يعتبر الخلافة منصباً دينياً وهو زاهد في الدنيا لا مطمع له في غير الثواب والحسنى . وان رجال معاوية قد ذهب منهم حرمة الدين ونسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم . فاثمرت مساعي معاوية في اصطناع الاحزاب بقاعدة ذكرها في حديث دارينته وبين عمرو بن العاص فقال معاوية « لو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقال عمرو « وكيف ذلك يا امير المؤمنين » قال « ان هم شدوا ارحيت واذا ارحوا شددت »

فاول شيء فعله معاوية انه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدّهم المؤرخون ادهى رجال العرب ومعاوية ادهاهم جميعاً وهم عمرو بن العاص وزباد بن ابيه والمغيرة بن شعبة ولولا هم لم يستتب له الامر لا ابن العاص احتال في نجاته من واقعة صفين بعد ان كادت الدائرة تدور عليه اذ ظهرت جيوش علي على جيوشه فاشار عليه عمرو بن العاص ان يرفع المصاحف لايقاف الحرب ثم اشار بالتحكيم وخذع ابا موسى الاشعري نائب علي في ذلك التحكيم فخلع علياً وبايع معاوية . ونال عمرو في مقابل ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر^(١) وزباد بن ابيه رجل لا يعرف له اب فلما رأى معاوية دهاءه قربته منه وادعى انه اخوه واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن ابي سفيان في حديث طويل ذكرنا خلاصته في ما تقدم . واستلحق زياد اول عمل ردت به اعلام الشريعة الاسلامية علانية^(٢) وكان زياد عوناً كبيراً لمعاوية في حفظ العراق وفارس . اما المغيرة بن شعبة

فهو اول من ضرب الزيوف في الاسلام واول من رشى^(١) وهو الذي حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد وجعل الخلافة وراثيه في نسله وساعده على ذلك فهو^(٢) ولاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والاطاع فاطم ابن العاص مصر واطم المغيرة فارس وجعل زياداً اخاه وكان يتساهل في محاسبة عماله ويغضي عن سيئاتهم^(٣) ويطالغ في اكرامهم . ولو رأوا من علي بعض ذلك لكانوا معه ولكن علياً كان دقيقاً في محاسبتهم متصلياً برأيه لا يحيد عما يقتضيه ضميره — كذلك كان يفعل ابو بكر وعمر ولكن المسلمين كانوا في ايامها لا يزالون في ابان الحمية الدينية والارباحية العربية ينصاعون لاوامر خليفتهم بكلمة ولذلك عدوا تصرف علي ضعفاً منه وبعد ان كانوا معه فلما رأوا ضعفه انخازوا الى معاوية واوهم المغيرة بن شعبة فهذا جاء علياً يوم بويج ومعاوية واقف له بالمرصاد فاشار عليه ان يحاسن معاوية ولا يعزله عن عمله في الشام ريثما يستتب له الامر فيعزله اذا شاء . فلم يطعه علي فعاد اليه في اليوم التالي وخادعه وشار عليه ان يعزل معاوية ويفعل كما يشاء ثم انخاز المغيرة الى معاوية وصار من اكبر انصاره وقس على ذلك تصرف علي مع ابن عمه عبدالله بن عباس وكيف كدره واخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم . ولما قتل علي خلفه ابنه الحسن فرأى نفسه عاجزاً عن منازلة معاوية فننازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها . وسار بنو امية بعده على خطته وسار العلويون على خطة علي وكان الفوز دائماً لاهل الدهاء فقضى العلويون معظم ايامهم خائفين شاردين ومات اكثرهم قتلاً مع انهم اهل تقوى ودين وحق واولئك في الضد من ذلك — مما يدل على ان السياسة والدين لا يتحمان الا نادراً وما التحامها ايام الراشدين الا فلتة قلما يتفق مثلها . على اننا لا نعد دولة الراشدين حكومة سياسية وانما هي خلافة دينية

رغبة بني امية في السيادة

ان المحور الذي كانت تدور عليها سياسة بني امية والغرض الذي كانوا يرمون اليه انما هو احرار الخلافة والرجوع الى السيادة التي كانت لهم في الجاهلية بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية الى ذلك او وخامة الاسباب التي تمسكوا بها . وقد فازوا بغايتهم فاتسعت

المملكة الاسلامية في ايامهم واشتدت شوكتها ما لم تبلغ اليه دولة العباسيين بعدها^(١) وكانوا يطلبون السلطة على ان لا يشاركهم فيها احدٌ وكان اشدّهم فتكاً عبد الملك بن مروان بقول « لا يجتمع خلان في اجمة »^(٢)

فرغبة بني امية في السلطة على هذه الصورة مع وجود من هو احق منهم بها جرّهم الى ارتكاب أمور آلت الى توجيه المطاعن عليهم . وقد ظهرت هذه الدولة وتغلّبت على سائر طلاب الخلافة في ايامهم بشيئين العصبة القرشية واصطناع العصبيات او الاحزاب الاخرى وهما اساس كل ما ظهر من سياسة بني امية كما سترى

العصبة العربية في عصر الامويين

العرب وقريش

كانت العصبة العربية في الجاهلية بين القبائل بحسب الانساب فلما جاء الاسلام تنوسيت تلك العصبة واجتمع العرب كافة باسم الاسلام او الجامعة الاسلامية . وما زالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول ايام الخلفاء الراشدين . حتى اذا طمع بنو امية بالملك وقبضوا على ازمة الخلافة استبدوا وتعصبوا للعرب وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها فظلت خشونة البادية غالبية على حكومتهم وظاهرة في سياستهم مع ذهاب مناقب البدو التي ذكرناها . وانما حفظوا من احوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم (قريش) واظهار اهلهم على سواهم . فحاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شان في الجاهلية وضاع فضلها في الاسلام وخصوصاً اهل البصرة والكوفة والشام لان اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ولا هذبته سيرة ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها . فلما استتمت الدولة اذا هم في قبضة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل واهل الحجاز ويثرب فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بانسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة والازد من اليمن وقيس من مضر فصاروا الى الغض من قريش والافنة عليهم فعادت العصبة الى نحو ما كانت عليه في الجاهلية

بدأت هذه العصبة بتعصب العرب كافة على قريش حسداً لم كاذ كرنا ولاستبدادهم في السلطة دون سائر الصحابة او التابعين مع استئثارهم بالقيء — الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية او العدنانية — واول خلاف وقع بين المسلمين من هذا القبيل حدث في ايام عثمان — ذلك ان سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة اختار وجوه الناس واهل القادسية وقراء اهل الكوفة لمجالسته فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل . وكان بنو امية وغيرهم من الصحابة قد اخذوا في امتلاك العقار وبناء المنازل وبنو امية اطول باعاً يومئذ في ذلك لقرباتهم من الخليفة . فاتفق في احدى مسامراتهم عند سعيد بن العاص ان بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة فقال سعيد « ان من له مثل النشاستج لحقيق ان يكون جواداً ولو كان لي مثله لأعاشكم الله به عيشاً رغداً » والنشاستج ضيعة في الكوفة كانت لطلحة وهي عظيمة كثيرة الدخل اشترأها من اهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بغير وعمرها فعظم دخلها ^(١)

فلما قال سعيد ذلك قام غلام من الحضور فقال له « لوددت ان هذا الملطاط لك » والملطاط ما كان للأكاسرة على جانبي الفرات مما يلي الكوفة . فنهض بعض الحاضرين من غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر ابوه عنه وقال « غلام فلا تجازوه » فقالوا « كيف يتمي له سوادنا » اي سواد العراق . فقال سعيد « السواد بستان قريش » وكان الاشترا النخعي حاضراً وهو من اليمنية وكان شديد التعصب لعلي بن ابي طالب فغضب وقال لسعيد « اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنا بستان لك ولقومك » فقام عبد الرحمن الاسدي صاحب شرطة سعيد فقال للاشتر « اتردئون على الامير مقاتله » واغلظ لم فاشار الاشتر الى رفاقه فوثبوا على الرجل فوطأوه وطأاً شديداً حتى غشي عليه ثم جروا برجله ونضوه بالماء فافاق فنظر الى سعيد وقال « ان الذين انتخبتم لمسامرتك قتلوني » فقال سعيد « والله لا يسمر عندي احد ابداً » ^(٢)

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين وخصوصاً بينهم وبين اليمنية ومنهم الانصار . وثبت الانصار في نصرة اهل البيت ضد اهلهم من قريش مثلما فعلوا في اول الاسلام اذ جاءهم النبي مهاجراً فراراً من اهلهم . ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين علي ومعاوية عدو هابيين اليمنية (الانصار) وقريش . فلما احتدم القتال في تلك الواقعة قال رجل يمني من انصار علي « ايها الناس هل من رآح الى الله تحت العوالي

والذي نفسي بيده لنقاتلكم على تأويله (القرآن) كما فاتلناكم على تنزيله « ونقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله واليوم نصر بكم على تأويله
ضرباً يزيل المهاب عن مقله وبذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله^(٢)

القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار أكثر اليمنية شيعة علي وانصاره إلا الذين تألفهم معاوية بالعطاء لعلمه ان اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديهم نفعاً فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بجذل ام يزيد ابنه واستنصرهم على قلة عثمان لان امرأة عثمان كانت كلبية واستغواهم بالمال فحاربوا معه ولما فاز في حروبه ورست قدمه في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لانهم اخواله

فلما مات يزيد وابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة واختلف بنو امية على اختيار خالد ابن يزيد او مروان بن الحكم (وكلاهما من امية) ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بني امية كان انصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير وانصار بني امية بنو كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لانه ابن اختهم . ونهض اناس من بني امية فاعترضوا علي صغر سن خالد فاجمعوا على بيعه مروان لشيخوخته على ان تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين اصحاب مروان واصحاب ابن الزبير اي بين كلب وقيس وفاز مروان وثبت قدمه في الخلافة . ثم توفي مروان ولم يف خالده خلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه وانقسم العرب في سائر انحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين قيسية وكلبية او مضرية ويمنية او نزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وافريقيا والاندلس . وفي كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان مضري ويمني تختلف قوة احدهما او الآخر باختلاف الخلفاء او الامراء او العمال . فالعامل المضري يقدم المضرية والعامل اليمني يقدم اليمنية ويختلف ذلك باختلاف الاحوال وله تاثير في كل شيء من تصارييف احوالهم حتى في تولية الخلفاء والامراء وعزلهم وكثيراً ما كانت الولاة والعزل موقوفين على انحياز احد هذين الحزبين

فقد رأيت ان قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان ولكنها كانت اول نصير لابنه هشام فنصرته فقرىها والحقها بالديوان اي فرض لاهلها الرواتب والجزايات . وفي ايامه نقل كثير من بطونها وانحازها الى بلاد الاسلام وخصوصاً مصر والشام . وفي ايام هشام ارتفع شأن القيسية وصارت سائر المضرية انصاراً لبني أمية ولا سيما لما قتل الوليد بن يزيد وأمه قيسية ^(١) فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يطالب بدمه رغبة في نصرتهم ليشد أزرها بهم فاجع المضرية على نصرة مروان وما زالوا كذلك الى آخر ايامه فلما قامت شيعة بني العباس كانت النية من انصارها

وكان تحت هذين الحزبين الكبيرين احزاب فرعية تتخاصم وتتحارب . على ان مقام قریش ما زال في كل حال محفوظاً ومفضلاً على مقام سائر القبائل شرفاً ونفوذاً فكانوا اذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عاملاً من بني قریش فيذعنون له ويجمعون على طاعته ^(٢)

على ان قریشاً كانوا منقسمين فيما بينهم واهم انقساماتهم بين أمية وهاشم فكان الناس يتعصبون لاحدهما على الآخر تبعاً لرضاه او وطنه وكثيراً ما كانوا يتشاجرون في هذا السبيل فيشغلون اوقاتهم بالمناظرة والمفاخرة حتى تحتدم نار الخصام وتحول الى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء . وكانت قوة بني هاشم في الحجاز والعراق وقوة بني أمية في الشام ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور . وكثيراً ما كان الخصام يبدأ بين الشعراء واشتهر بعضهم على الخصوص في هذه المطاعنات واشهر مناظراتهم في هذا السبيل ما كان بين سديف الشاعر الذي ينتسب بولائه الى بني هاشم فقد كان يتعصب لهم وسياب الشاعر وكان يتعصب لبني أمية فكان هذان الشاعران يخرجان الى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعائب والناس ينقسمون في التعصب لهما حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتا بالسديفية والسيابية وتواصل ذلك الى ايام الدولة العباسية وتغير اسمها الى الخناطين والجزارين ^(٣) وسديف هذا هو الذي قال شعراً بين يدي السفاح قتل به سليمان بن هشام الاموي

(١) ابن الاثير ١٥٩ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٧٨ ج ٥

(٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٤

عصية العرب على العجم

وكما كان القرشيون في أيام بني أمية مقدمين على سائر قبائل العرب فان العرب على الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم الذين دانوا للمسلمين . ولم يكن هؤلاء يستكفون من ذلك بل كانوا يعتقدون فضل العرب في اقامة هذا الدين وانهم مادته وأصله ولا كانوا يأتقون من ان يسموا العرب أسيادهم ويعبدوا انفسهم من مواليهم بل كانوا يعبدون طاعتهم وحجمهم فرضاً واجباً عليهم عملاً بالحديث المأثور « من ابغض العرب ابغضه الله » ^(١) وكثيراً ما كانوا يعترفون بفضلهم عليهم في العقل والحزم وسائر المناقب — فان عبد الله بن المقفع المشيء الشهير وكان عريقاً في النسب الفارسي ضمه مجلس في بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة وفيه جماعة من اشراف العرب فتصدى هو للكلام فسأل بعض الحضور « اي الامم اعقل » فظنوه يريد أمته فقالوا « فارس » فقال « كلاً لانهم وان ملكوا الارض وضخمت دولتهم لكنهم لم يستنبطوا شيئاً بعقولهم » فقالوا « الروم » فقال « لا » وما زالوا يذكرون له أمم تلك الاعصر واحدة بعد واحدة وهو يقول « لا » حتى سئموا فقالوا « قل انت » قال « العرب » واذا فاني حظي من النسبة اليهم فلا يفوتني حظي من معرفتهم . ان العرب حكمت على غير مثال ، بل لها ولا آثر اثرت عليها اصحاب ابل وغنم وسكان شمر وادم يجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ويشارك في ميسوره ومعسوره . ويصف الشيء بمقله فيكون قدوة وبفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ادبتهم انفسهم ورفعتهم همهم وأعلنهم قلوبهم والسنهم فلم يزل جباء الله فيهم وجباؤهم في انفسهم حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وانتجح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم »

العرب والموالي

فكان العرب يزدادون بامثال هذه الاقوال افتخاراً على سائر الامم وخصوصاً على المسلمين منهم فكانوا يترفعون عنهم ويسمونهم الموالي كما تقدم . ومن اقوال اهل العصية للعرب على العجم « لو لم يكن منّا على المولى عتافة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان كما في الاثر — ان قوماً يقادون الى حظوظهم بالسواخير . وكما قال — عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . على اننا تعرضنا للقتل فيهم فمن اعظم عليك

نعمة ممن قتل نفسه لحياتك فالله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا في مكاتبكم
وكانوا يكرهون ان يصلوا خلف الموالي واذا صلوا خلفهم قالوا اننا نفعل ذلك تواضعاً
لله . وكان نافع بن جبير التابعي الشهير اذا مرت به جنازة قال « من هذا » فاذا قالوا
« قرشي » قال « وا قوماء » واذا قالوا « عربي » قال « وا بلدنا » واذا قالوا « مولى » قال
« هو مال الله يأخذ ما شاء وبدع ما شاء »^(١) وكانوا يقولون « لا يقطع الصلاة الا ثلاثة
حمار او كلب او مولى » وكانوا لا يكتونهم بالكفي ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقباب ولا
يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في المواكب وان حضروا طعماً قاموا على رؤوسهم وان
اطعموا المولى لسنته وفضله وعلمه اجلسوه في طريق الخبز لثلاثا يخفي على الناظر اليه انه ليس
من العرب ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر احد من العرب — وسيأتي الكلام على
احكام الموالي في هذا العصر

وكان العرب في ايام هذه الدولة يترفعون عن سائر الامة من الموالي واهل الذمة
ويعدون انفسهم فوقهم جبلة وخلفة وفضلاً وكانوا يسمونهم « الحمراء » كما تقدم وربما ارادوا
بالحمراء الموالي على الخصوص . فكان العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ويرى انه خلق
للسيادة وذاك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الاسلام الا بالسياسة
والحكومة وتركوا سائر الاعمال لسواهم وخصوصاً المهن والصناعات . ومن امثالهم « ان
الحق في الحماكة والمعلمين والغزاليين » لانها صنائع اهل الذمة^(٢) وتخاصم عربي ومولى
بين يدي عبدالله بن عامر صاحب العراق فقال المولى « لا كثر الله فينا مثلك » فقال
العربي « بل كثر الله فينا مثلك » ف قيل له « ايدعو عليك وتدعوه » قال « نعم يكسبون
طرقنا ويحززون خفافنا ويحكون ثيابنا »^(٣)

ولم يكن العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ لانه لازم للسيادة والتغ واما
الحساب والكتابة فقد كانت من صنائع الموالي واهل الذمة ولذلك كان العمال في ايام بني
امية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين لانهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون^(٤)
وكان الامويون في ايام معاوية يعدون الموالي اتباعاً وارقاء وتكاثروا فادرك معاوية
الخطر من تكاثرهم على دولة العرب فهم ان يأمر بقتلهم كلهم او بعضهم . وقبل مباشرة ذلك
استشار بعض كبار الامراء من رجال بطانته وفيهم الاحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال لها

(١) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٠٠ ج ١

(٣) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٤) المسعودي ١١٤ ج ٢

« اني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) واراها قد قطعت على السالف وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان فرأيت ان اقتل شطراً وادع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون » فقال الاحنف « ارى ان تقسي لا تطيب . . اخي لامي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركنا في النسب » واما سمرة فأشار بقتلهم وطلب ان يتولى ذلك هو بنفسه فرأى معاوية ان الحزم في رأي الاحنف فكف عنهم . فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم وكيف يخطر لل خليفة ان يقتل شطراً منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الاغنام

وكان العرب سكروا بجمرة السيادة والنصر بارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك في بضعة عشر عاماً فتوهموا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسيجايا كما توهم الرومان قبلهم وكما بتوهم اهل هذا العصر في بعض الامم السائدة فيعتقدون امتيازها باصل فطرتها عن سائر الامم — فتوهم العرب في انفسهم الفضل على سائر الامم حتى في ابدانهم وامزجتهم فكانوا يعتقدون انه لا تحمل في سن الستين الا قرشية ولا تحمل للحسين الا عريية كما تقدم وان الفالج لا يصيب ابدانهم ولا يضرب احداً من ابناءهم الا ان يذروا بذورهم في الروميات والصقليات وما اشبههن فيعرض الفالج لمن بلدته ^(١) ولذلك كانوا في ايام بني امية شديدي العناية في حفظ انساجهم من شوائب العجمة ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء فقالوا « لا يصلح للقضاء الاعربي » ^(٢) وحرموا منصب الخلافة على ابن الامة ولو كان ابوه قرشياً وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن علي بن الحسين اذ قام بطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبد الملك « بلغني انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن امة » ^(٣) مع ان امه من بنات ملوك فارس . واول من ولي الخلافة من ابناء الاماء يزيد ابن الوليد الاموي سنة ١٠١ هـ وكانوا يسمون العربي من ام اعجمية « الهجين » ولا يزوجون الاعجمي عريية ولو كان اميراً وكانت هي من احقر القبائل . فان بعض دهاقين الفرس اراد ان يتزوج امرأة من باهلة كانت في بعض قصور الترك فأبت مع ان باهلة من احقر قبائل العرب . ولم يكن اثقل على طباعهم من استرقاق العربي ^(٤)

وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلمة في صدر الاسلام لا تحتاج الى دليل . فلما بالغ بنو امية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة اخذ هؤلاء في التذمر

(١) طبقات الاطباء ١٥٠ ج ١ والاغاوي ٨٨ ج ١٥ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١

(٣) سراج الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ٢٨٨

(٤) ابن الاثير ٤٤ و ١٣١ ج ٥

ونصروا آل علي والخوارج وغيرهم من اعداء الامويين وهات عليهم الرد على العرب في مفارحاتهم فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعوية لا يعترفون بفضل العرب على سواهم وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب . ولم يكن الشعوية يستطيعون الظهور في ايام بني امية ^(١) فلما افضت الخلافة الى بني العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الامين والمأمون ظهوراً وألفوا الكتب في مثالب العرب كما سيأتي

آثار بني امية في الاسلام

فالدولة الاموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب كثيرة العناية في حفظ الانساب فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلاً يقيدون فيه من يولد من ابناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة ^(٢) . وهي التي جعلت الاسلام دولة وقد كان في ايام الراشدين ديناً فصار على عهد الامويين عصبة وسيفاً ثم صار دولة ايدها بنشر اللغة العربية في المملكة الاسلامية بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد ان كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية او نبطية اصبحت هذه البلاد بتوالي الاجيال عربية النزعة وتوسيت لغاتها الاصلية وهي تعد الآن من البلاد العربية . واذا نزلها التركي او الافرنجي او غيرها من اي امة كانت وتوالد فيها عدل نسله عربياً

وظل العرب في ايام بني امية على بداوتهم وجنائهم . وكان خلفاؤها يرسلون اولادهم الى البادية لاقتان اللغة واكتساب اساليب البدو وآدابهم ^(٣) وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة في ايامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الاشعار في الاندية العمومية فكان اشراف اهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون ويتذاكرون ايام الناس . وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المريد يجتمع اليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون ^(٤) كما كانوا يفعلون في عكاظ . وكان في المريد حلقات للعلماء او الشعراء يجتمع عليهم الطلبة او المريدين في جملتها حلقة كانت لراعي الابل والفرزدق وجلسائهما باعلى المريد ^(٥) وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة كأنهم رجعوا بعصيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في ايام هذه الدولة وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الارض

(١) الاغانى ١٢٥ ج ٤ (٢) المقرئ ٩٤ ج ١

(٣) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٤) الاغانى ١٥٣ ج ١٩

(٥) الاغانى ١٦٩ ج ٢٠

العصبة الوطنية في عصر الامويين

لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة وطنية يجتمعون بها او يدافعون عنها لانهم كانوا لا يستقرون في وطن لتقلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالغزو والرحلة . فلما اسلموا فتحوا البلاد ومصر والامصار وابتنوا المدن واقاموا فيها تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها وهي ما عبرنا عنه بالعصبة الوطنية

تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب الى الحضارة تدريجاً ولم يكن ذلك مقصوداً في بادئ الرأي وانما سيقوا اليه بطبيعة العمران لانهم كانوا في صدر الاسلام لا يزالون على بدوهم واذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون في ايام جاهليتهم واذا فتحوا بلداً انصبوا خيامهم في ضواحيه مما يلي المدينة (مركز الخلافة) وقد نهاهم عمر عن الزرع فكانه نهاهم عن التحضر رغبة منه في استبقائهم جنداً محارباً لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما يقيم جيوش الاحتلال في هذه الايام وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية او الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقاً تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جنداً وكانت عساكر الشام اربعة اجناد تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب في معسكرين صاروا بعدئذ مدينتين هما البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب حيث بنيت القسطنطينية بعد ذلك

وكان العرب (او المسلمون) يقيمون في تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم لا يختلطون بأهل القرى حتى اذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للعرعى في القرى يسوقها الاتباع من الخدم او العبيد ومعهم طوائف من السادات . فاذا فرغوا من رعاية الحيل عادوا الى خيامهم وهم الى ذلك الحين اهل بدو وغزو ومركز دولتهم في المدينة وفيها مقر الحليفة ومرجع المسلمين عند الحاجة

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات وافضت الخلافة الى بني أمية ورغبوا في الشام عن الحجاز هان على المسلمين اغفال امر المدينة وسائر الحجاز وطاب لهم المقام في الشام

وسائر الامصار واغفلوا وصية عمر فاقتنوا الارضين والضياع وغرسوا المغارس فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الاحيال الى مدن عامرة اشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقبروان من المدن التي بناها المسلمون غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع وابتنوا المنازل والقصور واشتغلوا بالزراع وتعلموا اشغال اهل المدن من تجارة وصناعة

تدرجوا الى ذلك في اعوام متطاولة لاستغنائهم عن الربيع لمعاشهم لانهم كانوا في صدر الاسلام شركاء في ما يرد على بيت المال من الفية او الغنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة ولكل مسلم حق من ذلك الفية . حينما كان مقامه . فاهل المدينة مثلاً يتمتعون بفيه العراق وكذلك اهل الشام . فلما بدأوا بالاستيطان في اواخر عصر الراشدين وأراد اهل كل مصر ان يستقلوا بمصرهم كان ذلك محجفاً بأهل المدينة لان معاشهم من فيه البلاد المفتوحة فشكوا ذلك الى الخليفة اذذاك عثمان بن عفان وطالبوه بفيهم من الارض بالعراق فاستبدله لهم من اهل العراق بارض كانت لهؤلاء في الحجاز او اليمن او غيرها من بلاد العرب ^(١)

تمصب المدن الاسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين رغبة في العصبة الوطنية انقسام الاحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن . واول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في ايام عثمان بن عفان ^(٢) ثم حدث الانقسام الوطني السيامي بعد مقتله وكان اساسه الميل الى احد طلاب الخلافة يومئذ هم علي ومعاوية وطلحة والزبير فكان اهل الشام مع معاوية لانه اميرهم ومعظمهم من قريش وكان اهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعتهم مصر وكان اهل الكوفة مع الزبير واهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز اهل العراق الى علي فضلاً عن اهل المدينة ومصر وظل اهل الشام مع معاوية . ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ وغلب عمرو بن العاص بكرة معاوية وترك مصر لعمرو بن العاص صارت مصر في حوزة معاوية . ولما قتل علي سنة ٤٠ هـ ومات الحسين ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد استعان الحسين باهل العراق وسافر اليهم فباع اهل الحجاز لابن الزبير . فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد الى الخلفاء باختلاف الاحوال فاصبح لكل بلد بتوالي الاعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه على انها كانت تمتاز بعضها عن بعض في ذلك من أيام معاوية فقد سأل معاوية ابن الكواء عن اهل الامصار فقال « اهل المدينة احرص الامة على الشر واعجزهم عنه واهل الكوفة يردون جميعاً و يصدرون شتى واهل مصر اوفى الناس بشرً واسرعهم الى ندامة واهل الشام اطوع الناس لمرشدكم واعصاهم لغوهم» وكان لاهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه بالعصبة الوطنية وهي غير عصبية النسب اذ قد يجتمع اهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجامعة واحدة كاهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط وهم اخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد في عصر بني امية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسباً وعصبية وفيهم قبائل اليمن ومضر وريعة وغيرها يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها فكانت البصرة مثلاً مؤلفة من خمسة اقسام تعرف بالاخماس كل خمس لقبيلة وهي الازد وقيم وبكر وعبد القيس واهل العالية . والمراد باهل العالية بطون قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة ^(١) وقس على ذلك سائر البلاد

فاذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من اهل البلد الواحد امام ما يقابلها من قبيلتها في البلد الآخر . ففي واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ونزلت قبائل مضر الى مضر وريعة الى ربيعة . وكذلك في واقعة صفين وهي بين اهل الشام وقائدهم معاوية واهل العراق وقائدهم علي . فلما اتهم القتال سأل علي عن اهل الشام فعرف مواقفهم فاخذ يستحث من معه من القبائل على اخوانهم في معسكر عدوه فقال للازد « اكفونا الازد » وقال خثعم « اكفونا خثعم » وامر كل قبيلة معه ان تكفيه اختها في عسكر الشام . الا ان تكون قبيلة ليس لها بالشام احد فيصرفها الى قبيلة اخرى في الشام ليس بالعراق منها احد ^(٢) — فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب وانما غلبت لان الاحوال اقتضتها فرأى الناس فيها ما يسد مطامعهم

على ان اهل البلد الواحد كانوا يختلفون عدداً ونسباً باختلاف عصبية الامير او الخليفة كما تقدم في كلامنا عن عصبية النسب . ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك الاحوال مما لاضابط له فتنتشب الحروب بين البلدين كما تنتشب بين القبيلتين . ومن اشهر حوادث الخلاف بين البلاد في صدر الاسلام خلاف اهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما

ففي ايام علي والخوراج كانت البصرة عثمانية والكوفة علوية والشام اموية والجزيرة خارجية والحجاز سنية^(١) وتقلب هذه الاحوال كثيراً واختلفت باختلاف الدول . فحدثت بتوالي الثقلبات السياسية تعدد الجامعات : اولها الجامعة العصبية او جامعة النسب بين مضر واليمن والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الاسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة وربما اجتمعت كل هذه الفرق في رجلين^(٢)

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية ان اهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين وبفاخرون المسلمين بهما لان الاسلام لا يستغني عنهما وفيها شيعة علي ولا سيما المدينة . فكان الامويون مع عداوتهم للعلويين لا يرون بدءاً من زيارة الحرمين ورعاية اهلها فيقف ذلك عثرة في سبيل سلطانهم وخصوصاً بعد ان احتق ابن الزبير بالكعبة واخرج بني امية واحزابهم من الحجاز فلم يستطع الامويون التغلب عليه الا بضرب الكعبة بالمنجنيق . ولهذا السبب خطر الامويين ان ينقلوا منبر النبي من المدينة الى الشام ليجمعوا عندهم الدين والسياسة . ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء في واسط لمثل هذه الغاية كما بناها المنصور في بغداد بعد ذلك تصغيراً للكعبة^(٣) والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير امر العلويين فلم يجدد ذلك نفعاً

اصطناع الاحزاب في عصر الامويين

سياسة معاوية

ومما احتاج اليه بنو امية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الاحزاب كما فعل معاوية بن ابي سفيان في اكتساب نصرة عمرو بن العاص وزيد بن ابيه والمغيرة بن شعبة — اكتسبها بالدهاء والعطاء — ثم صار ذلك بعده قاعدة سار عليها بنو امية في تثبيت دعائم ملكهم والعلويون ابنا بنت النبي واحفادها ينازعونهم عليه . على انه لم يرق في بني امية رجل مثل معاوية بالدهاء والتعقل مما يعبر عنه اهل هذا الزمان بالسياسة . واذا فسنا اعمال هذا الرجل باعمال اعظم رجال السياسة من اهل هذا التمدن وغيره

(١) العقد الفريد ٢٧٧ ج ٣ (٢) ابن خلكان ١٠٠ ج ٢

(٣) المسعودي ١٦٦ ج ٢

لأنياء يفوق أكثرهم تعقلاً وحكمة ودهاءً وخصوصاً اذا اعتبرنا موقفه بازاء طلاب الخلافة من اعمام النبي وابناء عمه وابناء بنته والمسلمون يعنفدون حقهم فيها وان معاوية طليق لا تحل له الخلافة^(١) وانه لم يعتنق الاسلام الاً مكرهاً — ومع هذا فقد غلب عليهم جميعاً فقبض على ازمة الملك وجعله ارثاً في نسله ولم يسفك في سبيل ذلك دمًا كثيراً — وانما كانت عمده سعة الصدر والدهاء وبذل الاموال

اما سعة الصدر فانه كان يغضي عن مطاعن اهل البيت عليه ولو فعلوا ذلك بين يديه وبدلاً من ان ينقم منهم يبذل لهم الاموال ويقربهم . وربما دخل عليه الرجل منهم وهو في مجلسه وبين امرائه فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك و يفضل علياً عليه فيلين له الجواب وبهية الاموال فينقلب معه ولو كان من اقرباء علي — ذكروا ان عقيلاً اخا علي بن ابي طالب وفد على معاوية وعي لا يزال حياً فرحب به معاوية وسرّ بوروده لاختياره اياه على اخيه وأوسعهم حلاً واحتمالاً فقال له معاوية « كيف تركت علياً » فقال « تركته علي ما يحب الله ورسوله والفيتك على ما يكره الله ورسوله » فقال معاوية « لولا انك زائر متنجس جنبابنا لردت عليك جواباً تألم منه » ثم احب معاوية ان يقطع الحديث مخافة ان يأتي بشيء يسوءه فوثب من مجلسه وامر له ان ينزل وأوصل اليه مالا عظيماً . فلما كان من غد جلس معاوية وبعث الى عقيل وقال له « كيف تركت علياً احاك » قال « تركته خير لنفسه منك وانت خير لي منه »^(٢)

واخبار معاوية مع صعصة بن صوحان العبدي وغيره من رجال علي ومريديه كثيرة تدل على سعة صدر وحلم . فان لم يكفه الحلم عمد الى المخادعة او البذل فلا يلتقي به واحد ممن يخاف بطشهم الاً رجع راضياً . وقد بآتية الرجل مستجدياً وهو يتعمد خداعه فينخدع له ويطاوعه ويجيزه — ذكروا ان ابن الزبير قبل قيامه بالدعوة لنفسه هرب من عبد الرحمن ابن ام الحكم الى معاوية وقد احرق عبد الرحمن داره بالكوفة فجاء معاوية منتظماً وقال له « ان عبد الرحمن احرق داري » فقال معاوية « وكم تساوي دارك » قال ١٠٠,٠٠٠ درهم فطلب منه شاهداً فأتاه شاهداً من اصدقائه فامر له معاوية بالمال . فلما انصرف الرجلان قال معاوية للجسائه « اي الشخين عندكم اكذب والله اني لأعرف داره وما هي الاً خصائص قصب ولكنهم يقولون فنسبع ونخادعوننا فنخدع »^(٣) وكان ذلك وامثاله

(١) المسعودي ١٢ ج ٢ (٢) المسعودي ٥٤ ج ٢

(٣) الاغانى ٤٨ ج ١٣

مما اسكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطالب الخلافة في ايامه
فأين هذا من تدقيق علي في محاسبة عماله حتى اغضب اكثرهم وخسر نصرتهم وفي
جملتهم ابن عمه عبد الله بن عباس بعد ان كان اكبر نصير له فأغضبه من اجل وشاية
لاطائل تحتها كما تقدم . على حين ان معاوية كان يهب لعماله الولايات طعمة لهم واذا
وقد احدهم عليه بالغ في اكرامه والترحيب به فكان معاوية بن حديج اذا قدم على معاوية
في الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيماً لشأنه ^(١)

وكان معاوية يحنل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل واهل البيوتات
وزعاء الاحزاب ولو اطلقوا أسننتهم عليه . فالاحنف بن قيس التميمي احد السادة
التابعين واهل النفوذ كان على رأي علي وقد نصره في واقعة صفين . فاتفق انه وفد على
معاوية بعد ان استقر له الامر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية « والله يا احنف
ما ذكر يوم صفين الا كانت حرازة في قلبي الى يوم القيامة » فقال له الاحنف « والله
يا معاوية ان القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا وان السيوف التي قاتلناك بها لفي
اغادها وان تدن من الحرب فترأ ندن منها شبراً وان تمش اليها نهزول اليها » ثم قام
وخرج ولم يكلمه معاوية وكانت اخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه . فقالت
« يا امير المؤمنين من هذا الذي يتهدد ويتوعد » قال « هذا الذي اذا غضب غضب
لغضبه مئة الف من تميم لا يدرون فيم غضب » ^(٢)

على ان معاوية كان اذا خاف عدواً لا بقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه
بالمال احتال على قتله غيلة بالسهم كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان قد عظم
شأنه عند اهل الشام ومالوا اليه بما عندهم من آثاريه ولعنائه في بلاد الروم وشدة بأسه
نخافة معاوية فامر ابن الاثال الطبيب ان يحتال في قتله وضمن له ان يضع عنه خواجه
ما عاش وان يوليه خراج حمص . فدس ابن الاثال اليه شربة عسل مسمومة مع بعض
مما ليكه فشربها ومات ^(٣) ونجا معاوية منه . وفعل نحو ذلك بالاشتر النخعي مالك بن الحارث
وكان من اشد رجال علي بطشاً او هو اشدهم جميعاً وقد ابلى معه في صفين بلاء حسناً . فلما
اضطربت احوال مصر بدسائس معاوية وكانت لا تزال في حوزة علي بعث الاشتر والياً
عليها فلم معاوية انه ان وليها امتنعت عليه فبعث الى المقدم على اهل الخراج في القلزم — وهي

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٣ (٢) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١

(٣) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٣

في طريق الاشترا لا بد من مروره بها عند قدومه الى مصر وقال له « ان الاشترا قد ولي مصر فان كفيته لم آخذ منك خراجاً ما بقيت و بقيت » فخرج حتى اتى القلزم واقام به فلما جاء الاشترا استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام فلما اكل اتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه اياها فلما شربها مات . واخذ معاوية بقول لاهل الشام « ان علياً قد وجه الاشترا الى مصر فادعوا الله عليه » فكانوا يدعون عليه كل يوم واقبل الذي سقاه الى معاوية فاخبره بمهلك الاشترا فقام معاوية خطيباً وقال « اما بعد فانه كان لعلي يمينان فقطعت احدهما بصفين (يعني عار بن ياسر) وقطعت الاخرى اليوم (يعني الاشترا)^(١) فلما بلغ خبر الاشترا الى عمرو بن العاص قال « ان الله جنوداً من العسل »^(٢)

عمرو بن العاص

فكان معاوية واصحابه لا يضيعون فرصة ولا يبالون في انفاذ اغراضهم ما يربكون من القتل او نحوه . اما علي واصحابه فكانوا لا يجيدون عن مناهج الدين ومقتضى الارحية وكانت اريحتهم هذه مساعداً كبيراً لفوز معاوية عليهم — ففي واقعة صفين كانت كفة النصر راجحة لعلي ولو تم له ذلك لقضي على معاوية واغراضه وذهبت مساعيها ادراج الرياح وذهب امر بني أمية بذهابه واستتب الامر لعلي واهل بيته . وانما منع من فوز علي هناك دهاء عمرو بن العاص لان معاوية لما احتدمت المعركة ورأى الضعف في عسكره وايقن بالخذلان لجأ الى عمرو بن العاص وكان محارباً معه وقال له « هلم محباً تكت يا ابن العاص فقد هلكنا وتذكر ولاية مصر » فاشار عمرو عليه يومئذ برفع المصاحف وان ينادوا « كتاب الله يئتنا وينتكم من لتغور الشام بمد اهل الشام ومن لتغور العراق بمد اهل العراق ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار » فخذع رجال علي بهذه الحيلة وأوقفوا القتال ثم اتفقوا على التحكيم وبه اتم ابن العاص حيلته فخلع علياً وبايع معاوية — فلولا عمرو ابن العاص لفشل معاوية وذهب امره ولولا اريحية ابداه علي في تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة — وذلك ان عمرأ كان قد برز للنزال فبرز له علي فلما التقيا عرفه علي فشال السيف ليضربه به ويتخلص منه فلما ايقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال « مكره اخوك لا بطل » فثارت الارحية في نفس علي فحوّل وجهه عنه وقال « قبحت » ونجا عمرو بتلك الحيلة^(٣) وذهب عمل عمرو هذا مثلاً وفيه يقول الشاعر :

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ٢ (٢) المقرئ ٣٠٠ ج ١

(٣) المسعودي ١٩ ج ٢

ولا خير في صون الحياة بذلة كما صانها يوماً بذلته عمرو وكذلك كان اصحاب علي من حيث الاربحية والتقوى وصدق الالهجة - تلك كانت طبيعة الاسلام والمسلمين في ذلك العصر الذهبي الا من طمع بالدنيا وانحاز الى معاوية . وكانت هذه المناقب في علي على اقوى احوالها ولو تساهل فيها او اغضى عن شيء منها لنجاة من شرور كثيرة ولذلك قالت قريش « ان ابن ابي طالب رجل شجاع ولكنه لا رأي له في الحرب » (١)

فالبدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ثم صارت في بني مروان من أمية ولكنه لم يستطع قطع شافة المقاومين من طلاب الخلافة وهم كثيرون اهمهم اولاد علي . على انه كان يسكتهم بالمسألة والبذل وكانوا يهابونه ويسكنون الى سياسته ويتوقعون من الجهة الاخرى رجوع الخلافة اليهم بعدموته . فلما رأوه نقلها الى ابنه يزيد ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرها وكل منهم يزعم انه صاحب الحق بها . فاجتمع سنة ٦٨ هـ اربعة الوية في عراقات كل منها لزعم يطلب الخلافة لنفسه احدها لبني أمية والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية والثالث لعبد الله بن الزبير والرابع لنجدة الحروري من الخوارج ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك الا بنو أمية للعصبية العربية واصطناع الاحزاب واليك الاسباب التي ساعدتهم على اصطناع الاحزاب غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأي علي

بذل المال في عصر الامويين

العطاء من بيت المال

العطاء من اكبر العوامل التي ساعدت بني أمية في اصطناع الرجال وكسر شوكة اندائهم . لان العطاء رواتب الجند ورواتب المسلمين وكانوا في صدر الاسلام كلهم جنداً ولكل منهم راتب يختلف باختلاف نسبه من النبي او سابقته في الاسلام او غير ذلك مما تراه مفصلاً في كلامنا عن الديوان في ايام عمر (٢) وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى النساء والاولاد . وأصل هذا العطاء من أموال الفيء وهناك طبقة أخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب فهم من الفقراء يأخذون أعطيتهم

من اموال الصدقة وهي الزكاة ولكل من الصدقة والفيء ديوان خاص وحساب خاص فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين فيجدر بهم ان يتقربوا منه ويترلفوا اليه . فاذا قبض عليه رجلٌ حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطي ولمن يعطي اغناه ذلك على سائر الاسباب . فكان معاوية يزيد العطاء او ينقصه او يقطعه على حسب الاقتضاء والغالب ان يبذل الاموال وبضاعف الاعطية حيث يتوسم نفعاً . وأخوف ما كان يخافه في خلافته قيام العلويين او غيرهم من اهل بيت النبي ينازعونه الخلافة فبذل لهم العطاء بسخاء . فبعد ان كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان عمر ٥,٠٠٠ درهم في السنة جعلها معاوية ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم اي انه ضاعفها ٢٠٠ مرة واعطى مثل هذا المبلغ ايضاً الى عبد الله بن عباس لانه ابن عم النبي ويحشى منه . وكذلك عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وغيرهم من كبار ابناء الصحابة اهل النفوذ في الاسلام ممن يقيمون في المدينة . فكان من جهة يتألفهم بالاموال ويشغلهم بالرخاء عن الهوض للمطالبة ومن جهة أخرى يتألف بهم اهل المدينة لانهم كانوا ينفقون تلك الاموال في اهلها للتمتع بملاذ الحياة ومنهم من كان ينفق عطاء على المغنين والشعراء . واكثرهم سخاءً وبذلاً من هذا القبيل عبد الله بن جعفر وهو ابن عم الحسن والحسين فانه كان يقد على معاوية في الشام فيدفع اليه عطاء فيعود الى المدينة فيفرقه في اهلها . وكان معاوية يعرف ذلك فيقره ويحسن اليه ليستألف اهل المدينة به

ويقال انه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة فقال له يزيد « كم كان عطاؤك » فقال « الف درهم » قال « قد اضعفناها لك » قال « فذاك ابي وأمي وما قلنا لاحد قبلك » قال « قد اضعفناها لك ثانية » فليل يزيد اتعطي رجلاً واحداً ٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم » فقال « ويحكم اني اعطيها اهل المدينة اجمعين فما يده فيها الا عارية » (١) وقس على ذلك بذل معاوية في تألف القبائل فقد كان يفرض للقبائل التي تحارب معه ولو بعدت عن نسبه كالبنين مثلاً فانه كان يتألفها بالاموال خوفاً من بطشها . وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهي اقرب اليه لانه لم يكن يخاف بأسها حتى ان احدها كان يأتي معاوية يطلب منه ان يفرض له فيأتي كما فعل بمسكين الدارمي فانه طلب من معاوية ان يفرض له فأبى فقال شعراً يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من التسب ومن ذلك قوله :

اخاك اخاك ان من لا اخأله كساع الى الهيجا بغير سلاح

وان ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل يقنص البازي بغير جناح
وما طالب الحاجات الا مغرر وما نال شيئاً طالب كجناح

فلم يعبأ معاوية به لانه انما كان ينظر الى مصلحة نفسه • فاعتزت البين واشتد بأسها واستطالت على الدولة وتضعضت قيس وسائر عدنان • فبلغ معاوية ان رجلاً من البين قال يوماً « لهممت ان لا ادع بالشام احداً من مضر بل هممت ان لا اهل حبوني حتى اخرج كل نزارى بالشام » تخاف معاوية بأس اليمنية ورأى ان يضرهم بالمضربة ففرض من وقته لاربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان وبعث الى مسكين يقول له « لقد فرضنا لك وانت في بلدك فاذا شئت ان تقيم بها او عندنا فافعل فان عطاءك سيأتيك » وصار معاوية يغزي اليمن في البحر وقيساً في البر^(١) • ولولا دهاؤه وحسن اسلوبه لم يستطع التوفيق بينهما

ويقال نحو ذلك في زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الامويين كواقعة صفين فان معاوية زاد عطاء اصحابها^(٢) كما فعل عمر في من شهد القادسية • وسار خلفاء بني أمية على خطوات معاوية فاعطوا احزابهم حتى فرضوا الاعطية للشعراء التماساً لقطع السنهم او ليتقربوا بهم الى قلوب الناس • وكان اهل التقوى يرون ذلك محجفاً بحقوق بيت المال ان يعطوا الناس من مال الفيء فانه مال الله او مال المسلمين • وكان ذلك من جملة ما غير اصحاب علي على معاوية يوم صفين^(٣) فلما تولى عمر بن عبد العزيز وتحدى الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء • فلما مات عادوا الى ما كانوا عليه

وكانوا يفرضون لاي من جاءهم ولو كان اعراياً حتى كان اهل البادية كثيراً ما يبيعون ابلهم ويأوون الى المدن يطلبون الفرض لهم • ومع ذلك فاهل الانفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس لفرض يعتقدون انه ضد الحق وهو تأييد دعوة القائمين على اهل البيت فتعافه نفوسهم — يحكى ان امرأة صها الاشجعي من اهل البادية حرضت زوجها على الذهاب الى المدينة لبيع ابله ويفترض في العطاء فاطاعها وساق ابله حتى اذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسيقيها فخنث ناقة منها ثم نزع وتبعها الابل وطلبها فقاتته فقال لزوجته « هذه الابل لا تعقل وتحن الى اوطانها » ثم قال شعراً قالت انيسة دع بلادك والتس داراً بطية ربة الاطام

(١) الاغاني ٦٩ ج ١٨ (٢) المسعودي ١٥٧ ج ٢

(٣) ابن الاثير ١٥٠ ج ٣

تكتب عيالك في العطاء وتفترض وكذلك يفعل حازم الاقوام
 فهمت ثم ذكرت ليل لقاحنا بذوي غنيرة او بقف بشام
 اذهن عن حسي مداود كلما نزل الظلام بعصبة اغتنام
 ان المدينة لا مدينة فالزيمي حقف السناد وقبة الارحام
 يجلب لك الابن القريض وينزع بالعميس عن عين اليك وشام
 ونجاوري النفر الذين بنبلهم ارمي العدو واذا نهضت مرام
 الباذلين اذا طلبت بلادهم والماني ظهري من الغرام^(١)
 ومن اقوال عبد الملك بن مروان « انعم الناس عيشاً من له ما يكفيه وزوجة ترضيه
 ولا يعرف ابوابنا الحينة فنؤذبه »^(٢)
 وكان هم بني أمية أهل المدينة لانهم شيعة علي وفيهم الانصار ونجبة القرشيين
 فكان عامل بني أمية فيها اذا اجتمع اليه مال الصدقة من الاطراف ادان من أراد من
 قريش منه وكتب بذلك صكاً عليه فيستعبدهم به ويحتلفون اليه ويدارونه . فاذا غضب
 على احد منهم استخرج المال منه وما زال هذا شأنهم الى ايام الرشيد فكلهم عبد الله بن
 مصعب في صكوك بقيت من ذلك فخرفت^(٣)
 وكانوا اذا عصاهم احد من المسلمين قطعوا عطاءه ولو كان العاصون بلداً برمتها كما
 فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن علي فقطع عطاء اهل الحرمين جميعاً^(٤) وحرّم الوليد آل
 حزم من العطاء لان قتلة عثمان دخلوا اليه من دارهم في المدينة وقبض اموالهم وضياعهم
 وظلوا كذلك الى ايام المنصور فافرج عنهم^(٥) وكثيراً ما كان الانصار يمكنون بلا عطاء^(٦)
 ولا ذنب لهم الا أنهم ينصرون أهل البيت . وقطع عبد الملك بن مروان اعطية آل
 ابي سفيان مع انهم امويون مثله — وانما فعل ذلك لموجدة وجدها على خالد بن يزيد
 ابن معاوية^(٧)

فلا غرو اذا اضطر الناس الى سائرهم والاذعان لهم وهم يعلمون انهم يخالفون
 الحق باذعانهم وقد يصرحون بذلك فيما بينهم . كما حدث لما نصب معاوية ابناً يزيد لولاية

(١) الاغاني ١٤٧ ج ١٦ (٢) ابن الاثير ١٨٣ ج ١٠

(٣) الاغاني ١٠٥ ج ١٣ (٤) الاغاني ١١١ ج ٦

(٥) العقد الفريد ٤١ ج ٣ (٦) الاغاني ٦٢ ج ١٠

(٧) العقد الفريد ١٣٢ ج ١

العهد فاقعده في قبة حراء واقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ثم على ابنه يزيد بولاية العهد حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين ثم رجع الى معاوية فقال « يا امير المؤمنين اعلم انك لو لم تول هذا امور المسلمين لاضعتها » وكان الاخنف بن قيس التميمي حاضراً فقال له معاوية « ما بالك لا تقول يا ابا بجر » فقال « أخاف الله اذا كذبتُ وَاخافكم اذا صدقتُ » فقال معاوية « جزاك الله على الطاعة خيراً » وأمر له بمال . فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له « يا ابا بجر اني لاعلم ان شر من خلق الله هذا وابنه ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال فليس يطمع في استخراجها الا بما سمعت »^(١)

تدقيق علي وبخل ابن الزبير

ومما ساعد الامويين على اصطناع الرجال بالاموال ان مناظرهم اهل البيت وعبد الله ابن الزبير كانوا قليلي العطاء اما عن امساك او عن ورع حتى قالوا « وما رؤي في الناس ابخل من اهل البيت ولا من عبد الله بن الزبير »^(٢) وكثيراً ما كان امساكهم سبباً في فشلهم وانحياز الناس الى بني أمية — فن أمثلة ذلك ان مصقلة بن هيرة الشيباني كان عاملاً لعلي على ازدشير خره فرأى اسرى كان بعض رجال لعلي قد اسرهم فاشتراهم منه شفقة عليهم وهم ٥٠٠ انسان بمئة الف واطلق سراحهم . فطالبه علي بالمال فادى نحو النصف وطمع بالباقي فالح عليه اصحاب علي فقال مصقلة « اما والله لو كان ابن هند (يعني معاوية) ما طالبني بها ولو كان ابن عفان لوهبها لي ، فقالوا « ان علينا لا يترك شيئاً » فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية^(٣)

ومن امثلة بخل ابن الزبير الذي افسد عليه امره ان اخاه مصعباً لما قتل المختار بن ابى عبيد في العراق واخضع العراق لآخيه وقد ساعده على ذلك وجوه اهل العراق فجاء بهم حتى اتى اخاه في مكة وكان لائذاً بالكعبة وقال له « يا امير المؤمنين جئت بك بوجوه اهل العراق لم ادع لهم بها نظيراً لتعطيهم من هذا المال » فقال عبدالله « جئتني بعبيد اهل العراق لا اعطيهم مال الله ؟ والله لا فعلت » فلما علموا ذلك وسمعوامنه جفاء انصرفوا من عنده وكتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب^(٤) وكان ذلك سبباً في ذهاب دولة ابن الزبير وقس على ذلك بخل العلويين في فرض العطاء الا لاهل التقوى او من في معناهم . على

(١) ابن خلدون ٢٣٠ ج ١ (٢) الاغانى ١٠٥ ج ١٣

(٣) ابن الاثير ١٨٨ ج ٣ (٤) العقد الفريد ١١٩ ج ١

حين ان بني امية كانوا يفرضون للرجل ولاهله واولاده فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبي (وما هو من رجال الحرب) الفين في العطاء وجعل عشرين من ولده واهل بيته في الفين الفين من اجل حديث حدثه اياه^(١) وكانوا يفرضون للشعراء اعطية معينة يقبضونها في اوقاتها غير الجوائز فمنهم من عطاؤه الفان او اكثر او اقل . واذا مدحهم زادوا اعطيتهم ترغيباً لهم في مدحهم وكذلك كان يفعل عالمهم في سائر انحاء المملكة الاموية . واهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقاً في بيت المال^(٢) فعمرو بن عبد العزيز كان اذا اخرج شاعراً ولم ير مناصاً منه اعطاه من ماله الخاص^(٣)

على ان غير الانقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشعراء اذا حاد عما يريدونه كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه وكان قد مدح مصعب بن الزبير باعظم من مدحه فقال له عبد الملك « والله لا تأخذ مع المسلمين عطاءً »^(٤) وكان عمرو بن الخطاب يحرّض القراء على التماس الرزق من عند انفسهم وان لا يكونوا عالة على الناس^(٥) فكيف الشعراء

الاستكثار من الاموال في عصر الامويين

وبذل الاموال لاصطناع الاحزاب جرّ بني امية الى خرق كثير من القواعد التي وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الاموال وانفاقها . فقد كانت الاموال التي ترد على بيت المال تعدّ ملكاً للمسلمين وليس الخليفة او عامله الا حافظاً لها لينفقها في مصالحهم وتدير شؤونهم وله منها راتب معين يتناولوه مثل سائر المسلمين وقد رأت ان ابا بكر توفي وليس في بيت ماله غير دينار وان عمر كان اذا احتاج الى المال فوق راتبه استقرضه من بيت المال حتى يؤديه من عطائه . وكان عمر يرى انه لا ينبغي ان يبقى في بيت المال شيء ونهى عن اخزان المال وقد اشرنا الى غرابة هذا الرأي في الجزء الثاني من هذا الكتاب . ونهى عمر ايضاً عن الزرع وحرّم على المسلمين اقتناء الضياع لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع من بيت المال — اراد بذلك ان يقبضوا جنداً على اهبه الرحيل وان تبقى البلاد التي فتحوها فيئاً يؤخذ من

(١) الاغانى ١٧١ ج ٩ (٢) الاغانى ٩٩ ج ١٠

(٣) الاغانى ١١٨ ج ١٧ (٤) الفرج بعد الشدة ١٢٣ ج ٢ والاغانى ١٥٩ ج ٤

(٥) العقد الفريد ٢٣٦ ج ١

خراجها وجزية اهلها للاتفاق على المسلمين . ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة احكاماً
لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع^(١)

عمال بني امية

فلما اضطر بنو امية الى اصطناع الرجال وجمع الاحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن
اغضوا عن كثير من تلك الاحكام وتوقفوا الى عمال اشداء لا يبالون بالدين ولا احكامه
في سبيل اغراضهم مثل زياد بن ابيه عامل معاوية وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد
والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان وخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك
وغيرهم . فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم بجمع الاموال وحشدها والعمال لا يبالون كيف
يجمعونها فقد كتب معاوية الى زياد يقول « اصطف لي الصفراء والبيضاء » فكتب زياد
الى عماله بذلك واوصاهم ان يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة^(٢) وكان
العمال من الجهة الاخرى يختصون انفسهم بجانب من تلك الاموال وليس ثمة من يحاسبهم
وقد اطلق الخلفاء ايديهم في الاعمال ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم . فكان العمال يختزنون
لانفسهم الاموال الطائلة حتى بلغت غلة احدثهم ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة وزادت ثروته
على ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٣) وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة
حتى كتب امية بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان يقول « ان خراج خراسان لا يفي
بمطعني »^(٤) فلما رأى الخلفاء استكثار العمال بالاموال عمدوا الى مصادرتهم فكانوا اذا علموا
بمال عند احدثهم انفذوا اليه من يقبض امواله ويتولَّى العمل مكانه والكل طامعون
بالكسب لانفسهم

وكان العمال لا يرون حرجاً في ابتزاز الاموال من اهل البلاد التي فتحوها عنوة لاعتقادهم
انها فيهم لم كما تقدم . وكقول عامل بني امية في العراق « السواد بستان قريش ما شئنا
اخذنا منه وما شئنا تركناه » . وقد سأل صاحب اخنا بصمر عمرو بن العاص ان يخبره
بما عليه من الجزية فاجابه « لو اعطيني من الارض الى السقف ما اخبرتك ما عليك انما انتم
خزاة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم »^(٥) ومن قال ذلك يعد
مصرف تحت عنوة . وقال غيره « الصغد بستان امير المؤمنين »

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب ١٦٣ (٢) العقد الفريد ١٨ ج ١

وابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ (٣) الاغانى ٦٢ ج ١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج ٢

(٤) الاغانى ٥٦ ج ١٣ (٥) المقرئ ٧٧ ج ١

الاسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الاموال باية وسيلة كانت ومصادرها الجزية والخراج والزكاة او الصدقة والعشور . واهمها في اول الاسلام الجزية لكثرة اهل الذمة فكان عمال بني امية يشددون في تحصيلها فاخذ اهل الذمة بدخولون في الاسلام فلم يكن ذلك لينجيهم منها لان العمال عدوا اسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة في الاسلام فطالبوهم بالجزية بعد اسلامهم . واول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف ^(١) واقتدى به غيره من عمال بني امية في افرقية وخراسان ووراء النهر فارتد الناس عن الاسلام وهم يودون البقاء فيه وخصوصاً اهل خراسان وما وراء النهر فانهم ظلوا الى اواخر ايام بني امية لا يمنهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد اسلامهم . فلما تولى اشرس سنة ١١٠ هـ على خراسان كان اهل سمرقند قد ارتدوا عن اسلامهم فبعث اليهم رجلاً اسمه ابو الصيда فقال الرجل « اخرج اليهم على شريطة ان من اسلم لا تؤخذ منه الجزية » فقال اشرس « نعم » فتخص الى سمرقند ودعا اهلها الى الاسلام على ان توضع الجزية عنهم . فسارع الناس الى الاسلام وقل الخراج فكتب عاملها الى اشرس « ان الخراج قد انكسر » فاجابه « ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني ان اهل الصغد واشباههم لم يسلموا رغبة في الاسلام وانما اسلموا تعوذاً من الجزية فانظر من اخثن واقام الفرائض وقرا سورة من القرآن فارفع خراجه » ففعل الناس ذلك وبنوا المساجد وكتب العمال بذلك الى الشرس فاجابهم « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » فاعادوا الجزية على من اسلم فامتنعوا واعتزلوا في سبعة الاف على عدة فرائخ من سمرقند وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الاسلام بسببها اهل الصغد وبخارا واستجاش الترك . وما زالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ فأعلن سنة ١٢١ هـ انه وضع الجزية عمن اسلم وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين فلم يمض اسبوع حتى اتاه ٣٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية ^(٢)

ناهيك بما كان يرتكبه بنو امية من زيادة الخراج وضرب الضرائب ^(٣) والاستكثار بالقي . ولم يبق من خلفائهم من نهى عن ذلك الا عمر بن عبدالعزيز فانه لم ينفق من بيت المال درهماً على نفسه ولا اخذ منه شيئاً ^(٤) وامر اهله بذلك فلم يلق سامعاً . وهو الذي كتب الى

(١) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ٢١ (٢) ابن الاثير ٢١٦ ج ٤

و ٦٨ و ١١١ ج ٥ (٣) الجزء الثاني من هذا الكتاب

(٤) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢

عماله لما ولي الخلافة «سعدوا الجزية عمن اسلم ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جايئاً» ولم تطل مدة حكمه^(١). واراد يزيد بن الوليد ان يتشبه به فتبعه . وكان في جملة ضرائهم ان يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد فابطلها عمر بن عبد العزيز^(٢)

الصدقة والرشوة

واضطر الامويون للاستكثار من الاموال ان يمدوا ايديهم الي اموال الصدقة وهي الزكاة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتنفق في فقرائهم خلافاً لسائر اموال الدولة كالنفي والغنيمة والجزية فانها تفرق في القاتلة والخذ . فكان بنو امية كثيراً ما يعطون جوائز الشعراء ونحوهم من اموال الصدقة^(٣) وحققا ان تعطى من مال الخليفة الخاص او من مال النفي ونحوه باعتبار ان تلك الجائزة مما ينفع المسلمين في تأييد دولتهم . اول لعل الخليفة اعتبر الشعراء من فقراء المسلمين فاعطاهم من الصدقة وهو خلاف المألوف لانه انما اجازهم لانهم مدحوه فعليه ان يجيزهم من ماله الخاص . وكانوا ايضاً كثيراً ما يعطون ارزاق المسلمين من مال الصدقة والمحاربون يستنكبون من ذلك ويعتونه حطة في مقامهم كما اتفق لاهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجاً وامر للناس بالعطاء فخرجت البدر مكتوب عليها «الصدقة» نأى اهل المدينة قبولها وعدوا ذلك اهانة لم تعدها عبد الملك لان اهل المدينة من انصار اهل البيت وقالوا «انما عطاؤنا من النفي» فضرب عبد الملك مثلاً كشف لهم به عما بينهما من التضامن من عهد مقتل عثمان وبوم الحرة

وكانوا كثيراً ما يعمدون اذا اعوزهم المال الى بيع الولايات بالرشوة وخصوصاً في ايام ضعفهم وفساد دولتهم . فان الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد اعطيات الناس ترغيباً لهم في طاعته فلم يجد مالا يكفيه ولم يكن عنده من العمال الاشداء من يوافيه بالاموال حالاً فكان من جملة ما استعان به على جمع الاموال انه باع ولاية خراسان واعمالها ايوسف بن عمرو وصارت الولايات في ايامه بالرشى للخليفة واصحابه^(٤) وكانت الولايات تعطى في ايام اسلافه جزاء على خدمة كما اعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأة لنصرته على علي فانتهى به خلفاؤه . فكانوا اذا اتس احداهم الاحزاب اطمع رؤساءها بالولايات وصار ذلك مشهوراً حتى اعجب الامير اذا دعي لنصرة احد الخلفاء اشترط مالا او ولاية معينة . وما يحكى ان عبد الملك بن مروان في اثناء محاربتة مصعب بن الزبير في العراق بعث الى

(١) المقر يزي ٢٨ ج ١ (٢) الاغاني ١٣ ج ١٥

(٣) الاغاني ١٥٦ ج ١١ (٤) ابن الاثير ١٢٥ و ٢٦ و ١٣٢ ج ٥

اهل الكوفة والبصرة يدعومهم الى نفسه ويمنيهم فأجابوه وشرطوا عليه شروطاً وسأله الولايات . ومن غريب الاتفاق ان اربعين رجلاً منهم سأله ولاية اصبهان . فقال عبد الملك لمن حضره « ويحكم ما اصبهان هذه » تعجباً من يطلبها^(١)

الاستخفاف بالدين واهله

لما طلب الامويون الخلافة لانفسهم وهم يعلمون ان اهل البيت احق بها منهم وان حجة اهل البيت في طلبها مبنية على اساس صحيح كان اكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ولكن العصبية كانت مع الامويين والقوة غالبية . اما الفقهاء وسائر اهل النقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل اهل البيت وتذكير الامويين بما يرتكبونه في سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدي ويعظونهم ويذكرونهم بنقوى الله . وكان معاوية لحلمه ودعائه يفضي عن اقوالهم ويقطع ألسنتهم بالعطاء والمحاسنة والحلم . فتعوتدوا ذلك وبالفوافيه حتى اذا افضت الخلافة الى عبد الملك ابن مروان عمد الى الشدة والعنف فخرج سنة ٧٥ هـ بعد مقتل ابن الزبير ولما جاء المدينة وفيها انصار اهل البيت خطب فيهم خطاباً قال فيه :

« اما بعد فاني است بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعني يزيد) الا واني لا ادوي هذه الامة الا بالسيف حتى تسقيم بي قناتكم وانكم تحفظون اعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل اعمالهم . وانكم تأمروننا بنقوى الله وتنسون ذلك من انفسكم . والله لا يأمرني احد بنقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه » فهو اول من نهى عن المعروف^(٢) فعظم ذلك على اعداء بني امية حتى نحسروا على ايام معاوية وقالوا قول ابن الزبير فيه لما جاءه نعيه « رحم الله معاوية انا كنا نلجده فيخادع لنا »

الاستهانة بالقرآن والحرمين

اما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ولو خالف احكام الدين . وقد يتبادر الى الذهن انه فعل ذلك اقتداء بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ولا نظنه مقتدياً بذلك لانه صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافة

وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولأها استهوته الدنيا — ذكروا انه لما جاؤوه بمخبر الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره فأطبقه وقال « هذا آخر العهد بك او هذا فراق بيني وبينك » ^(١) فلا غرو بعد ذلك اذا اباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة ^(٢) والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها فأحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثاً وهدموا الكعبة وهي بيت الله عندهم واوقدوا النيران بين احجارها واستارها ^(٣) مما لم يحدث مثله في الاسلام . ودخلوا المدينة وهي احد الحرمين وقاتلوا اهلها وسفكوا دماءهم لم يغلق لما باب الا احرق ما فيه حتي ان الاقباط والانباط كانوا يدخلون على نساء قریش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاهن من أرجلهن يسوفهم على عوانقهم والقرآن تحت أرجلهم ^(٤)

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين واهل النقوى صبراً وانما ارادوا بذلك تحقير امر علي وشيعته تأييداً لسلطانهم . ولهذا السبب ايضاً لعنوه على المنابر وامروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه . واول من قتل صبراً في هذا السبيل حجر بن عدي الكندي في ايام معاوية ^(٥) وظلوا يلعنون علياً على المنابر الى ايام عمر بن عبد العزيز فابطل ذلك

الخلافة والنبوة

وتوفى بنو امية الى عمال اشداء زادهم استبداداً وشدة بما توخوه من تمليقهم بالتعظيم والتغريم مما يخالف احكام الدين . واول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك فانه سمي الخليفة « خليفة الله » وعظم امر الخلافة حتي فضلها على النبوة فكان يقول « ما قامت السموات والارض الا بالخلافة وان الخليفة عند الله افضل من الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين لان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ثم ابطله الى الارض وجعله خليفة وجعل الملائكة رسلاً » واذا حابه احد في ذلك قال « خليفة احدكم في اهله اكرم عليه ام رسوله في حاجته » وكان عبد الملك اذا سمع ذلك اعجب به ^(٦) واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الاشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج وخطب الناس في مكة مرة فقال « ايها الناس ايها اعظم

(١) ابو الفداء ٢٠٥ ج ١ وسراج الملوك ٩٦ (٢) العقد الفريد ٢٥٦ ج ٢

(٣) ابن الاثير ٣٦ ج ٥ (٤) ابن خلكان ٢٧٤ ج ٢

(٥) المسعودي ٣٩ ج ٢ (٦) العقد الفريد ١٨ ج ٣ والمسعودي ١٠٤ ج ٢

خليفة الرجل على اهله او رسوله اليهم» يعرض ان هشاماً خير من النبي^(١) واقتدى بالعمال سائر المملقين من وجوه الدولة وفيهم جماعة كبيرة انما اسلموا رغبة في الدنيا فزادوا الامور فساداً . وكانوا يملقون العمال من هذا القبيل ويجرئونهم على خرق حرمة الدين - ذكروا ان خالداً القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن فاذا تلا آية اخطأ فيها والحن في نطقها فوقف مرة للخطابة فقال واخطأ ثم ارجع عليه وفشل فنهض صديق له من تغلب فقال « خفف عليك ايها الامير ولا يهولك فما رأيت قط عاقلاً حفظ القرآن وانما يحفظه الحمقى من الرجال » فقال خالد « صدقت يرحمك الله »^(٢)

فلا غرو بعد ذلك اذا قيل لنا ان الوليد بن يزيد سكير بني مروان رمى القرآن بالنشاب وهو في نجونه وسكره فقد ذكروا انه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » فأمر بالمصحف فعلقوه واخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

اتوعد كل جبار عنيد فيها انا ذاك جبار عنيد

اذا لافيت ربك يوم حشر فقل لله مزقني الوليد^(٣)

فلم يكن بهم بني أمية نشر الاسلام وانما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الاموال فتوقف نشر الاسلام على عهدهم في الاطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة اهلها فيه وانما نفرهم منه شدة بني أمية وجشعهم فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعاً لما يرونه من المعاملة الحسنة او السيئة . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقي الورع وسار على خطوات سمية ابن الخطاب كتب الى ملوك السند وغيرهم يدعوهم الى الاسلام على ان يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكانت سيرته قد بلغتهم فاسلموا وتسموا باسماء العرب . فلما قتل عمر المذكور سنة ١٠١ هـ وعاد بنو أمية الى سابق سيرتهم ارتد أولئك عن الاسلام^(٤)

وقس على ذلك ما ارتكبه الامويون من قتل ابناء علي وصلبهم والمثلة بهم غير من قتلوه من التابعين واهل الصلاح صبراً واكثرهم اقدماً على ذلك عاملهم الحجاج بن يوسف

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٤ و ١٣٠ ج ٥ والاغاني ٦٠ ج ١٩

(٢) الاغاني ٦٣ ج ١٩ (٣) الاغاني ١٢٥ ج ٦ والمسمودي ١٣٤ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٢٧٣ ج ٤ و ٢٦٦ ج ٥

الفتن والبطش في عصر الامويين

كان المسلمون في ايام الراشدين يرون الطاعة للامام واجبة لا يحتاجون في سياسة شؤونهم الى حيلة او عنف ولا يحدون عن الحق في اعمالهم او اقوالهم . اذا اذنب احدهم اعترف بذنبه واذعن لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه فلم تكن الاحكام تحتاج الى بحث او نقض او حيلة ولا تنفيذها يفتقر الى شدة او عنف . وربما اقتصر القصاص على التوبيخ او اللوم واذا اخطأ الخليفة حكم على نفسه كما يحكم على رعيته . ولم يكن عندهم سجن يحبس فيه الناس واول من وضع السجن معاوية وهو أيضاً وضع الحرس^(١) لقلة الحاجة الى ذلك في عصر الراشدين . فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة ان يأتيه فيأتي صاغراً مع علمه انه لو امتنع عن الحجى لعجز الخليفة عن استقدامه . وقد يأمر بجلد الرجل منهم فيذعن مطيعاً . وكان عمر لا يتغاضى عن الذنب الصغير خوفاً من الذنب الكبير ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة

فلما تولى الخلافة معاوية وسلم الاعمال الى دهاته في العراق وفارس ومصر وغيرها والمسلمون لا يزالون في اريحيتهم وانفتهم وقد اطلق معاوية السنتهم بحلمه وسعة صدره خاف العمال ان يجر ذلك الى استفحال الامر فعمدوا الى الشدة . واول من توخى الشدة والعنف زياد بن ابيه عامل معاوية على العراق — زعم انه يفعل ذلك اقتداءً بعمر بن الخطاب في اقامة السياسات بالصرامة والحزم ولكنه اسرف وتجاوز الحد . وهو اول من شدد امر السلطة واكد الملك لمعاوية فجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة^(٢) وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية وفي ايامه قام الحسين بن علي يطالب بالخلافة وقد نقض يعة يزيد وحمل على العراق فكتب يزيد الى ابن زياد « اجبس على الهمة وخذ بالظنة غير ان لا تقتل الا من قاتلك »^(٣)

ولما افضت ولاية العراق الى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) وقد كثرت المطالبون بالخلافة اراد الحجاج ان يتشبه بزياد وابنه بالشدّة والعنف فبالغ في ذلك حتى اهلك ودمر^(٤) ولم يكن الحجاج أشدّ وطأة من زياد او ابنه

(١) المقرئزي ١٨٧ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٣

(٣) ابن الاثير ١٨ ج ٤

ولكن زياداً كان يزجره حلم معاوية وابن زياد يزجره امر يزيد ان لا يقاتل الا من قاتله . وأما الحجاج فقد اعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة فأكبر المسلمون ذلك ونقموا على تلك الدولة وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين . ومن اقوال الخوارج فيهم « ان بني أمية فرقة بطشهم جبارين يأخذون بالظنة ويقضون بالهوى ويقتلون على الغضب »^(١)

بسر بن اوطاة وقتل الاطفال

على ان سياسة بني أمية كانت من اول امرها مبنية على الشدة والحزم على ما تقتضيه سياسة الممالك في ذلك العصر ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل في سبيل تأييد دعوتهم والتغلب على اعدائهم . فكانوا يطلقون ايدي عمالهم في الاحكام يقتلون ويصلبون على ما يترأى لهم بدون مشورة الخليفة مع ان ذلك لم يكن جائزاً في ايام الراشدين لان الخليفة منهم كان وهو مقيم في المدينة يدير شؤون الرعايا في اطراف المملكة وهذا الذي أراد عمر بن عبد العزيز ان يرجع اليه في ايام خلافته فلم يفسح له الاجل^(٢) فلما مات كتب خليفته يزيد بن عبد الملك الى عماله ان يعودوا الى ما كانوا عليه قبلاً من الشدة والبطش^(٣)

فكان الخلفاء من بني أمية يرون في اطلاق ايدي عالم او فوادم تشجيعاً لهم وتنفيذاً لاغراضهم . وربما حرضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة حتى في ايام معاوية فانه ارسل بسر بن اوطاة بعد تحكيم الحكيم وعلي بن أبي طالب يومئذ حي وارسل معه جيشاً . ويقال انه اوصاهم ان يسيروا في الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي ولا يكفوا ايديهم عن النساء والصبيان . فسار بسر على وجهه حتى انتهى الى المدينة فقتل فيها اناساً من اصحاب علي وهدم دورهم ومضى الى مكة وغيرها يقتل ويهدم حتى اتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل علي وابن عمه كان غائباً فراراً من القتل فوجد بسر ابنين له صبيين اسمهما عبد الرحمن وقثم فاخذهما وذبحهما بيده بمدة كانت معه^(٤) . وذكروا ان الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية فلما اراد بسر قتلها قال الكناني « نقتل هذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلها فاقتلني معها » فقتله وقتلها معه فصاحت امرأة من كنانة « يا هذا قتلت الرجال فعلام نقتل هذين والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية

(١) البيان ١٩٥ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٩ ج ٥

(٣) القعد الفريد ٢٦٥ ج ٢ (٤) الاغانى ٤٤ ج ١٥

ولا الاسلام والله يا ابن اوطاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء» وقالت ام الصبيين شعراً في رثائهما كانت تنشده في المواسم مطلعه :

يا من احسَّ بابنيَّ اللذين هما كالدريتين تشظى عنهما الصدف

على اننا لا نظن معاوية كان راضياً من ذلك العمل الفظيع لانه يخالف دهاءه وحلمه ونظنه اطلق يد بسر ولم يعين له حدوداً وكان بسر سفاكاً للدماء فلم يستثن طفلاً ولا شيخاً . ويؤيد ذلك ما اراد فعله باولاد زياد بن ابيه بعد موت علي اذ خاف معاوية زياداً وكان عامله على فارس فامر بسر ان يستقدمه اليه فامسك بسر اولاد زياد وكتب اليه « اما تأتني حالاً او اقتل اولادك » فلما بلغ معاوية ذلك منع بسرّاً من قتلهم ^(١)

فاذا كان هذا حال العمال في ايام معاوية مع حلمه وطول اناته فكيف في ايام عبد الملك مع شدته وفتكه . فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبراً ولو كانوا ١٢٠,٠٠٠ وهل يُستبعد ان يكون في حبسه عند موته ٥٠,٠٠٠ رجل و ٣٠,٠٠٠ امرأة ^(٢) وكان عبد الملك اشد وطأة منه واجراً على الغدر والفتك بل هو اول من غدر في الاسلام بعد ان اعطى الامان — وذلك ان عمرو بن سعيد الاشدق احد امراء عبد الملك طمع بالملك لنفسه فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩ هـ لحرب مصعب بن الزبير في العراق وجاء الى الشام ووضع يده عليها . فبلغ عبد الملك ذلك وهو في الطريق فرجع حالاً الى دمشق وقاتل عمرّاً اباماً فلم يقدر عليه فخاف على سلطانه فاحتال في عقد الصلح فرضي عمرو وكتبا بينهما كتاباً فيه امان عبد الملك له . فاطمان خاطر عمرو المذكور وخرج الى الخليفة حتى اوطأ فرسه اطناب عبد الملك ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق

وبعد دخوله باربعة ايام ارسل الى عمرو فاجابه انه آت العشية واتاه في مئة من مواليه ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بني مروان وقد بقي مواليه خارجاً . فاستقبله عبد الملك حتى اجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ثم امر احد العلمان ان يأخذوا سيفه وقال له « انقطع ان تجلس معي متقلداً سيفك » فاعطاه السيف . ثم قال عبد الملك « يا ابا امية (عمرو) انك حينما خلعتني آليتُ يميني ان انا ملأت عيني منك وانا مالك لك ان اجعلك في جامعة » فقال له الحضور من بني مروان « ثم تطلقه يا امير المؤمنين » قال « نعم وما

(١) ابن الاثير ٢١١ و ٩٥ ج ٣ (٢) المسعودي ١١٣ ج ٢ والكشكول ٣٢

عسيت ان اصنع بابي امية » فقال بنو مروان لعمرو « ابر قسم امير المؤمنين » فقال « قد ابر الله قسمك يا امير المؤمنين » فاخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال « يا غلام قم فاجعه فيها » فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو « اذكرك الله يا امير المؤمنين ان تخرجني فيها على رؤوس الناس » فقال « امكروا يا ابا امية عند الموت لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس » ثم جذبه جذبة فوقع واصاب فيه السرير فكسر ثنتيه فقال عمرو « اذكر الله يا امير المؤمنين كسر عظم مني فلا تركب ما هو اعظم من ذلك » فقال عبد الملك « والله لو اعلم انك تبقي عليّ لو ابقيت عليك وتصلح قریش لا اطلقتك ولكن ما اجمع رجلا في بلدة قط على ما نحن عليه الا اخرج احدها صاحبه » فلما رأى انه يريد قتله قال « اغدر يا ابن الزرقاء » ثم قتله عبد الملك ^(١)

وترى مما دار بينهما ان الذي جرّ عبد الملك الى هذا الغدر كثرة الطامعين بالسلطة ولا رادع لهم من عند انفسهم كما كانوا في عصر الدين والنقوى فأصبح القوي يأكل الضعيف ومن سبق الى قتل صاحبه ملك - وهي سياسة الفتك - وقد نفعتهم هذه السياسة في تأييد سلطانهم ثم صارت سنة في من ملك بعدهم من بني العباس وغيرهم - وآخر حادثة جرت من هذا القبيل فتك محمد علي باشا بالماليك - وقد عمد بنو امية الى ذلك استعجالاً للنصر وتخلصاً من اسباب النزاع فاذا خرج عليهم خارج جعلوا همهم قتله لعلمهم انه اذا قتل تفرق اصحابه واذا لم يتفرقوا استرضوهم بالاموال او نحوها

خزانة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم ارباباً لاجزائهم فيقطعون رأس الرجل ويطوفون به من بلد الى بلد او يصلبون الجثة حيث تزدحم الاقدام - كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الاحزاب ولا سيما العلويين فكان العامل الاموي يقتل الخارج على الدولة وبعث برأسه الى الخليفة في الشام ليطاف به في الاسواق - واول رأس حمل من بلد الى بلد رأس عمر بن الحق الخزاعي ^(٢) احد قتلة عثمان واول رأس طيف به في الاسواق رأس محمد بن ابي بكر ^(٣) واول رأس حمل الى الخلفاء راسا هانيء وابن عقيل من اشباع الحسين في الكوفة ثم رأس الحسين بن علي ارسله ابن زياد من الكوفة الى يزيد بن معاوية في الشام وكذلك فعل المختار رؤوس قتلة الحسين فانه ارسلها الى محمد بن الحنفية ^(٤) وهكذا فعل

(١) ابن الاثير ١٤٦ ج ٤ (٢) المعارف ١٨٧

(٣) العقد الفريد ٣٩ ج ١ (٤) ابن الاثير ١١٩ ج ٤

الحجاج برأس عبدالله بن الزبير ورؤوس اصحابه فانه ارسلها من مكة الى عبد الملك بن مروان في الشام . وكذلك فعل عبد الملك برأس مصعب بن الزبير فانه سيره من الكوفة الى الشام فنصب فيها ^(١)

ومن غريب ما يحكي انهم لما جاؤا الى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير وهو جالس في طاق بالكوفة كان ابن عمير اللخمي حاضراً عنده فلما رأى الرأس بين يدي عبد الملك ارتعد . فقال له عبد الملك « مالك » قال « اعين بالله يا امير المؤمنين كنت في هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيدالله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي بين يديه في هذا المكان ثم كنت مع المختار بن ابي عبيد الثقفي فرأيت رأس عبيدالله بن زياد بين يديه ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ثم هذا رأس مصعب ابن الزبير بين يديك » فتشاءم عبد الملك من ذلك وقام فامر بهدم ذلك الطاق ^(٢)

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة في عصر بني امية ومن جاء بعدهم من بني العباس وصار للرؤوس في دار الخلافة خزانة يحفظونها فيها كل رأس في سنط خاص ^(٣) وجرت العادة ايضاً بصلب الجثث او الرؤوس . لكنهم لم يكونوا ينصبون الا رؤوس الخوارج ^(٤) ويطوفون بها على رنح وكان بنو امية يعدون العلويين خوارج فكانوا اذا قتلوا احدهم صلبوه

ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل ولعل ذلك من تغرعات الحجاج لارهاب اعدائه واخضاعهم بالعنف . فن ضررب المذنب انه كن يأتي بالتعب الناري فيشقه ويشده على الرجل وهو عار ثم يسله قصبة قصبة حتى يقطع جسده ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت ^(٥) فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الاشعث ارباباً لسوهم . وكان الخوارج ايضاً يفعلون نحو ذلك بمن ظفروا به من اعدائهم حتى لقد يضعون الاطفال في القدور وهي تفور ^(٦) اما اشتفاء او انتقاماً او ارباباً



(١) ابن الاثير ١٦٢ ج ٤ (٢) ابن خلكان ٢٨٦ ج ١

(٣) الفجري ٢٤٨ ج ٢ (٤) العقد الفريد ٢٧٢ ج ٢

(٥) المعارف ١١٥ (٦) المسعودي ١٢٣ ج ٢

وغيرهم يشتغلون بما يحتاج اليه العرب من المهن والصنائع والآداب
ناهيك بالموالي المحاربين فقد كان في كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم ربما زاد
على عددها فاذا خرجت للحرب خرجوا معها وحاربوا في سبيل نصرتها • واختلف عدد
الموالي بالنسبة الى مواليهم باختلاف الاعصر ففي ايام علي كانت نسبة الموالي الى الاحرار
من يخرجون الى الحرب كنسبة واحد الى خمسة ^(١) ثم تكاثر الموالي في عصر الامويين
حتى زاد عددهم على عدد الاحرار • وبنو أمية مع ذلك يحقرونهم ويضطهدونهم وهم
يصبرون على ذلك اذ يفرون من سلطانهم الى اطراف المملكة • ومن فر من جور بني
أمية ميمون جد ابراهيم الموصلي المغني المشهور ^(٢)

نقمة الموالي على العرب

فلما تكاثر الموالي ورأوا ما كان فيه الامويون من التعصب للعرب على سواهم ولا
سيما الموالي حتى كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء ولا شيئاً من
الغنائم او النني عظم ذلك عليهم ورأوا في نفوسهم قوة ففرت قلوبهم من بني أمية واصبحوا
عوناً لكل من خلع الطاعة او طلب الخلافة من العلويين او الخوارج • فكل من قام لمحاربة
الامويين استعان عليهم بالموالي والعبيد وهم الفئة المظلومة • واشهر من حاربهم بالموالي
والعبيد المختار بن ابي عبيد الذي قام في العراق للمظالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هـ ثم طلب
الخلافة لمحمد بن الحنفية — فاختار المذكور اطمع موالي العراق بالغنيمة واركهم على
الدواب وكانوا ناهقين على اسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم فجاءوه متطوعين وجاءه
عدد كبير من اباقي العبيد وفيهم من ترك الاسلام غيظاً من بني أمية • فكان عدد الموالي
في جند المختار اضعاف عدد الاحرار ^(٣) وقد ابلوا في الحرب معه اكثر من ابلاء الاحرار
لقيمهم على اسيادهم • ولذلك كان اكثر القتلى في تلك الحرب من الموالي فقد بلغ عدد
قتلاهم في معركة سنة ٦٧ هـ ٦,٠٠٠ ليس فيهم من العرب الاحرار الا ٧٠٠ وسائرهم
من الموالي ^(٤) وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزاً حسناً وقتل قتلته • ولما رأى وجهاء
الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا اليه يقولون « انك آذيتنا بموالينا فحملتهم
على الدواب واعطيتهم فيتنا » فاجابهم « ان انا تركت مواليكم وجمات فينكم لكم تقاتلون
معي بني أمية وابن الزبر وتطونني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ »

(١) ابن الاثير ١٧٣ ج ٣ (٢) الاغاوي ٢ ج ٥

(٣) ابن الاثير ١٢١ ج ٤ (٤) ابن الاثير ١٣٦ ج ٤

فلم يرضوا . والمختار اول من جند الموالي . وفاز بهم نجراً ثم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا اعداءها واصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه . واول من فرض لهم العطاء من بني امية معاوية فانه جعل لكل واحد ١٥ درهماً فبعد الملك جعلها ٢٠ ثم بلغها سليمان الى ٢٥ وجعلها هشام ٣٠^(١) على ان ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم لان العمال كانوا يستخدمونهم غالباً بلا عطاء ولا رزق^(٢)

والمولى اذا آتس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك في نفيرته وكان لسيدته ثقة فيه حتى خلفاء بني امية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليهم يعهدون اليهم بهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في امورهم والموالي يخلصون لهم ويستمتتون في الدفاع عنهم كما كان موالي بني هاشم يستمتتون في نصره مواليهم وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين واشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها

وقد يكون المولى من اصل رفيع او يرتقي الى اعلى المراتب حتى في ايام بني امية رغم اضطهادهم وتعصيبهم عليهم واعظم موالي العراق واشهرهم فيروز مولى اهل الخشخاش فانه ولي الولايات وخرج مع ابن الاشعث على الحجاج فقال الحجاج « من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » فقال فيروز « من جاءني برأس الحجاج فله ١٠٠,٠٠٠ درهم » فلما غلب ابن الاشعث هرب فيروز الى خراسان فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد ان عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه^(٣)

زواج الموالي بالعربيات

على ان الموالي في ايام بني امية كانوا على الاجمال اعداء الدولة يقومون عليها مع القائلين انتقاماً لما كانوا يقاسونه من الاحقار والجور من عصبية العرب على العجم فازداد الامويون تحقيراً لهم . فبعد ان قال النبي « مولى القوم منهم » منعوا زواجهم بالعربيات كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام^(٤) فاذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ امره الى الوالي طلقها منه كما حدث لاعراب بني سليم في الروحاء فانهم جاؤا الروحاء فخطب اليهم بعض مواليها احدي بناتهم فزوجوه فوشى بعضهم الى والي المدينة بذلك ففرق الوالي بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه فقال محمد بن بشير الخارجي في ذلك بعد مدح عمل الموالي واسمه ابو الوليد:

(١) العقد الفريد ٢٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٥

(٣) المعارف ١١٥ (٤) المسعودي ١٩٦ ج ١

حمى حذبا لحوم بنات قومٍ وهم تحت التراب ابو الوليد
وفي المثنى للمولى نكالٌ وفي سلب الحواجب والحدود
اذا كفأتهم بنات كسرى فهل يجد الموالي من مزيد
فاي الحق انصف للموالي من اصهار العبيد الى العبيد^(١)

وكثيراً ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالي ولو كانوا من اهل المنزلة الرفيعة أو اهل العلم
والتقوى فان عبدالله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى فتزوج عريية فضربه
بلال بن ابي بردة بالسياط^(٢)

على ان ذلك المنع كان شائعاً قبل الاسلام وظل العرب يستنكفون منه رغم ما كان من
نص الحديث المذكور وغيره فسلمان الفارسي نصر المسلمين في حروبه من ابام النبي . وله
فضل كبير في الاسلام فخطب الى عمر بن الخطاب ابنته فوعده بها لانه لم يري في زواجه بها
بأساً اما ابنه عبدالله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه الى عمرو بن العاص فقال له عمرو « انا
ا كفيك » فخرج عمرو حتى لقي سلمان وكان يعرف افنته فقال له « هنيئاً لك يا ابا عبدالله
ان امير المؤمنين بتواضع لله عز وجل في تزويجك بابنته » فغضب سلمان وقال « لا والله
لا تزوجت اليه ابداً »^(٣)

فتزويج المولى بالعريية بالغ الامويون في تقييده تعصباً للعرب على سواهم وهو عندهم
اقبح من زواج العربي بغير العريية . ولكن ذلك لم يكن محرماً في الدين ولا اعتبره اهل
التقوى . فعلي بن الحسين بن علي المعروف بزين العابدين وهو احد الائمة الاثني عشر
ومن سادات التابعين كانت امه سلامة بنت يزجرد آخر ملوك الفرس فلما توفي ابوه زوجها
بثريد مولى ابيه واعتق جارية له وتزوجها فكتب اليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك .
فكتب اليه زين العابدين « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة وقد اعتق رسول الله
صفية بنت حيي بن اخطب وتزوجها واعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب
بنت جحش »

فالاسلام يرفع منزلة المولى واما الامويون فراوا تحقيره باعتبار انه غير عربي وشاع
ذلك في ايامهم واصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالي . ومن اشعارهم في رجل من بني
عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من احد الموالي قول ابي مجير يؤنب آل عبد القيس

(١) الاغانى ١٥٠ ج ١٤ (٢) المعارف ١٦٧

(٣) العقد الفريد ١٣٢ ج ٣

لتزويجهم الموالى ومنهم الزارع والتاجر قال :

أمن قلة صرتم الى ان قبلتم
واصب رومي واسود فاحم
شكولم شتى وكل نسبيكم
متى قال انى منكم فصدق
اكلهم وافى النساء جدوده
وكلهم قد كان فى اولية
على علمكم ان سوف ينكح فيكم
فهلاً انيتم عفة وتكرماً
تعيون امراً ظاهراً فى بناتكم
متى شاء منكم مغرم كان جده
وحسن ابن بدر اوزاررة دارم
فقد صرت لا ادري وان كنت ناسياً
وعلى رجال الترك من آل مذحج
وعلى رجال العجم من آل عالج
زعمتم بان الهند اولاد خندف
ودلم من نسل ابن ضبة باسل
بنو الاصفر الاملاك اكريم منكم
أأطمع فى صهري دعياً مجاهراً
ويشتم لوماً عرضه وعشيره
دعارة زراع وآخر تاجر
وابيض جعد من سراة الاحامر
لقد جئتم فى الناس احدى المناكر
وان كان زنجياً غليظ المشافر
وكلهم اوفى بصدق العاذر
له نسبة معروفة فى العشائر
فجدعاً ورغماً للانوف الصواغر
وهلاً وجلتم من مقالة شاعر
ونفركم قد جاز كل مفاجر
عارة عبس خير تلك العماثر
وزبان زبان الرئيس ابن جابر
لعل تجاراً من هلال بن عامر
وعلى تميم عصابة من يحامر
وعلى البوادي بدلت بالخواضر
ويينكم قري وبين البرابر
وبرجان من اولاد عمرو بن عامر
وأولى بقربان ملوك الاكاسر
ولم تر شرّاً من دغى مجاهر
ويمدح جهلاً طاهرّاً وابن طاهر^(١)

وغرس هذا الاعتقاد فى اذهان الناس حتى ان الموالى انفسهم كانوا يستنكفون من تزويج المولى بالعرية -- ذكروا ان ابناً لنصيب المثنى الشهير وهو مولى أحب بنت مولاة وكان مولاة قد ماتت فخطبها من أخيه فاجابه الى طلبه فعرف نصيب بذلك فجمع وجوه الحى فلما حضروا اقبل نصيب الى أخى مولاة وقال له « أزوجت ابني هذا من ابنة اخيك » قال « نعم » فقال نصيب لعبيد له سود « خذوا برجل انى هذا فخره فاضربوه ضرباً مبرحاً » ففعلوا ثم قال لآخى مولاة « لولا انى اكره اذاك لالحقتك به » ثم نظر

الى شاب من اشرف الحبي فازوجه الفتاة وانفق على العقد من حبيه^(١)
ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجل مالم يستثمر
مولاه فاذا أحب رجل ان يخطب فتاة من بنات الموالي لا يذهب الى ابها ولا الى أخيها
وانما يخطبها من مواليها فان رضي مولاهها زوجت والا فلا • وان زوجها الاب او الاخ بغير
رأي مواليه ففسخ النكاح وان كان قد دخل بها عدت ذلك سفاحاً^(٢)
وجملة القول ان تعصب بني أمية للعرب جرهم الى تحقير غير العرب وخضوعاً للموالي
فقم هؤلاء عليهم وكانوا اكبر المساعدين في اخراج الدولة من ايديهم

اهل الذمة وامطارهم في عصر الامويين

عهد اهل الذمة في اول الاسلام

الذمة في اللغة العهد والامان والضمان واهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الاسلام
من غير المسلمين • قيل لهم ذلك لانهم دفعوا الجزية فامنوا على ارواحهم واعراضهم وأموالهم
واكثرهم من النصارى واليهود وقد دعاهم القرآن « اهل الكتاب » نسبة الى الكتاب
المقدس التوراة والانجيل وقد اثنى عليهم وأوصى بهم خيراً • وفي الحديث النبوي اقوال
كثيرة بمحاسبة اهل الذمة وخصوصاً قبط مصر فقد رووا عن النبي انه قال « اذا افتتحت
مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً » اشارة الى ان ام اسماعيل ابي العرب
منهم وقال « الله الله في اهل الذمة المدرة السوداء السحيم الجعاد فان لهم نسباً وصهراً »
وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشاً للفتح اوصوا قوادهم باهل الذمة خيراً ولا
سبوا النصارى ورهباهم • واذا جاءهم اهل المدن بالصلاح صالحوهم وعاهدوهم على
الحماية في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم • ويختلف مقدار الجزية ونوعها
 باختلاف الاحوال وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين واهل الكتاب ولكل صالح شروط
تختلف باختلاف البلاد ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحماية اهل الذمة والدفاع
عنهم • فاذا امتنعوا عن اداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم واذا عرض للمسلمين ما
يمنع حمايتهم جاز لاهل الذمة الامساك عن الدفع^(٣)

(١) الاغانى ١٣٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢

(٣) الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ١٧١ و ١٥٧

فلم يرضوا . والمختار اول من جند الموالي وفاز بهم نجراً ثم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا اعداءها واصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه . واول من فرض لهم العطاء من بني امية معاوية فانه جعل لكل واحد ١٥ درهماً فبعد الملك جعلها ٢٠ ثم ابغها سليمان الى ٢٥ وجعلها هشام ٣٠^(١) على ان ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم لان العمال كانوا يستخذمونهم غالباً بلا عطاء ولا رزق^(٢)

والمولى اذا انس من مولاة رضاء ومحاسنة استهلك في نعمته وكان لسيدته ثقة فيه حتى خلفاء بني امية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليتهم يعهدون اليهم بمهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في امورهم والموالي يخلصون لهم ويستيتون في الدفاع عنهم كما كان موالي بني هاشم يستيتون في نصرة مواليتهم وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين واشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها

وقد يكون المولى من اصل رفيع او يرتقي الى اعلى المراتب حتى في ايام بني امية رغم اضطهادهم وتعصبهم عليهم واعظم موالي العراق واشهرهم فيروز مولى اهل الخشخاش فانه ولي الولايات وخرج مع ابن الاشعث على الحجاج فقال الحجاج « من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » فقال فيروز « من جاءني برأس الحجاج فله ١٠٠,٠٠٠ درهم » فلما غلب ابن الاشعث هرب فيروز الى خراسان فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد ان عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه^(٣)

زواج الموالي بالعربيات

على ان الموالي في ايام بني امية كانوا على الاجمال اعداء الدولة يقومون عليها مع القائمين انتقاماً لما كانوا يقاسونه من الاحقار والجور من عصبية العرب على العجم فازداد الامويون تحقيراً لهم . فبعد ان قال النبي « مولى القوم منهم » منعوا زواجهم بالعربيات كما كان الفرس يمتعون بزواج العرب بناتهن قبل الاسلام^(٤) فاذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ امره الى الوالي طلقها منه كما حدث لاعراب بني سليم في الروحاء فانهم جاؤا الروحاء فخطب اليهم بعض مواليتهم بناتهن فزوجه فوشى بعضهم الى والي المدينة بذلك ففرق الوالي بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه فقال محمد بن بشير الخارجي في ذلك بعد مدح عمل الموالي واسمه ابو الوليد:

(١) العقد الفرید ٢٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٥

(٣) المعارف ١١٥ (٤) المسعودي ١٩٦ ج ١

لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين لا يمرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية ^(١)»

واليك صورة عهد ابي عبيدة الى اهل بعلبك :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم واهل المدينة وخارجها وعلى ارحامهم وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ولا ينزلوا قرية عامرة فان مضى شهر ربيع وجادى الاولى ساروا الى حيث شاؤا ومن اسلم منه فله مالتا وعليه ما علينا ولتجارهم ان يسافروا الى حيث ارادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى من اقام منهم الجزية والخراج شهد الله وكفى بالله شهيداً » ^(٢)

وقس عليه عهود سائر الفاتحين مثل عمرو بن العاص وسعد بن ابي وقاص وغيرهم في مصر والعراق وفلسطين وفارس وافريقية والاندلس وغيرها على انهم كانوا يشترطون في الجزية ان يؤديها اهل الذمة عن يد وهم صاغرون

اما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقاً باختلاف البلاد والاحوال التي فتحت بها فصلح مصر يختلف عن صلح الشام وصلح الشام غير صلح العراق

العهد النبوية

وبين أيدي الناس نسخ من عهد يقولون ان النبي كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه العهد النبوية والنسخ المذكورة تختلف نصاً وتنفق مغزى . ويقولون ان العهد المذكور كتب بخط علي بن ابي طالب ووضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة وحملت منه نسخ الى الاديار ومن ذلك نسخة كانت محفوظة في دير طور سيناء فنقلها السلطان سليم الفاتح العثماني الى الاستانة في اوائل القرن السادس عشر لئلا يد بعد ان عرضها على مجلس شرعي فنقلوها الى اللغة التركية وابقوا النسخة التركية في الدير وصورة الاصل العربي مع عهود برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد وحملوا النسخة العربية الاصلية الى الاستانة ^(٣) - واليك نص العهد النبوية نقلاً عن كتاب منشآت سلاطين لافريدون بك بعد البسملة : ^(٤)

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس اجمعين رسوله مبشراً ونذيراً

(١) البلاذري ١٢١ (٢) البلاذري ١٣٠

(٣) الهلالان ١٥ و ١٦ من السنة السابعة

(٤) فاموس الادارة والقضاء - (مادة بطركخانة)

ومؤتمناً على وديعة الله في خلقه لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً
كتبه لاهل ملّة النصارى ولبن نحل دين النصرانية من مشارق الارض ومغاربها قريبا
وبعيدها فصيحها وعجمها معروفةا وتجهوها جعل لهم عهداً فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه
الى غيره وتعدى ما امره كان لعهد الله ناكثاً وليثاقه ناقضاً وبدينه مستهزئاً وللعنته
مستوجباً سلطاناً كان ام غيره من المسلمين — وان احتج رهاب او سائح في جبل او واد او
مغارة او عمران او سهل او رمل او بيرة فانا اكون من ورائهم اذب عنهم من كل غيرة لهم
بنفسى واعوانى واهلى وماتى واتباعى لانهم رعتى واهل ذمتى وانا اعزل عنهم الاذى في المون
التي يحمل اهل العهد من القيام بالخروج الا ما طابت له نفوسهم وليس عليهم جبر ولا اكراه
على شيء من ذلك ولا يغير اسقف من اسقفته ولا راهب من رهبانته ولا حابس من
صومعته ولا سائح من سياحته ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم ويبيعهم ولا يدخل شيء
من مال كنائسهم في بناء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم فمن فعل شيئاً من ذلك فقد
نكث عهد الله وعهد ورسوله ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من تبعه جزية ولا
غرامة وانا احفظ ذمتهم اينما كانوا من براو بحر في المشرق او المغرب والجنوب والشمال وهم
في ذمتى وميثاقى وامانى من كل مكروه وكذلك من يتفرد بالعبادة في الجبال والمواقع
المباركة لا يلزمهم مما يزرعونه لاخراج ولا عشر ولا يشاطرون لكونه برسم افواههم ولا
يعاونون عند ادراك الغلة ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بحيرية ولا من اصحاب الخراج
وذوى الاموال والعقارات والتجارات مما هو اكثر من اثني عشر درهماً بالحملة في كل عام
ولا يكلف احد منهم شططاً ولا يجادلون الا بالتي هى احسن ويحفظونهم تحت جناح
الرحمة بكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا — وان صارت النصرانية عند المسلمين
فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة في بيعها ولا يحال بينها وبين هوى دينها ومن خان عهد
الله واعتمد بالصد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ويعاونون على مرمة بيعهم ومواضعهم
وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ولا يلزم احد منهم بنقل سلاح بل المسلمون
يذبون عنهم ولا يخالف هذا العهد ابداً الى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا » اه

والغالب في اعتقادنا ان النبي اذا كان قد اعطى عهداً للنصارى والرهبان عموماً فهو
غير هذا العهد او اعله كان مختصراً وطولوه او تنومى وضاع اصله فكاتبه من
عندهم او ان النصارى وضعوا هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياستى اذ لم يذكر
خبر هذا العهد احد من مؤرخى التتوح او غيرهم من كتاب المسلمين في الازمنة الاولى

فضلاً عما في عبارته وبعض نصوصه مما لم يكن في معروفاً في صدر الاسلام وخصوصاً في السنة الثانية للهجرة

عهد عمر

ويذكرون ايضاً عهداً يعرف بعهد عمر بن الخطاب لاهل الشام اشار اليه غير واحد من مؤرخي المسلمين وقد اورد بعضهم بنصه منهم ابو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ اورد في كتاب «سراج الملوك» نقلاً عن عبد الرحمن بن غنم الاشعري المتوفى سنة ٧٨ واليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال : «كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى اهل الشام (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب لعبد الله عمر امير المؤمنين من نصارى مدينة كذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لا نفلسنا وذرارينا واموالنا واهل ملتنا وشرطنا لكم على انفسنا ان لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نحدث ما خرب منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار . وان توسع ابوابها للمارة وابن السبيل وان نزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ايام نطعمهم . ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم اولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه احداً ولا نمنع احداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراده وان نوفر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا تتكلم بكلامهم ولا نكتفي بكنائهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحملة معنا ولا نقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر ولا نخرج مقادير رؤوسنا ونلزم زيننا حينما كنا وان نشد الزنا نير على اوساطنا ولا نظهر صلباتنا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضرباً خفيفاً ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعائبتنا ولا باعوتنا ولا نرفع اصواتنا مع موتانا ولا نظهر الثيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ماجرى عليه سهم المسلمين ولا نتطلع الى منازلهم (فلما اتيت عمر رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه) ولا نضرب احداً من المسلمين شرطنا ذلك على انفسنا واهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضعنا على انفسنا فلا ذمة لنا وقد حلّ منا ما يحلّ من اهل المعادة والشقاق) فكتب اليه عمر (ان امض

ماسألوه وألحق فيه حرفين اشترطتهما عليهم مع ما شرطوه على انفسهم ان لا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده « اهـ ^(١) »
 ولتلق بالعهد المذكور احكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر ايضاً وذلك انه امر بهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ومنع من ان تحدث كنيسة بعد الاسلام وامر ان لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه ^(٢)
 وترى في نص هذا العهد ضغطاً على النصارى وتصغيراً لهم خلافاً لما جاء في سائر عهود الامان او كتب الصلح في صدر الاسلام وخلافاً لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه باهل الذمة كما يستدل من سيرة حياته فانها تدل على صدق لهجته في النكر والقول والفعل فكان اذا اساء مسلم الى مسيحي اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة كما اقتص لذك القبطي من عمرو بن العاص وابنه وقال العمرو « يا عمرو مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » ^(٣)

فترى لاول وهلة تناقضاً بين هذه المناقب ونص هذا العهد فيتبادر الى الذهن انه موضوع بعد عصر عمر بازمان كما قلنا عن نص العهدة النبوية ولكن حاله يختلف عن حالها بما يرجح صحته فلننظر أولاً في صحة نسبته الى عمر ثم في سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه نسبة هذا العهد الى عمر

الارجح في اعتقادنا ان عمر كتب عهداً لنصارى الشام ان لم يكن هذا هو بنصه فهو بمعناه على الاقل وسبب هذا الترجيح : —

(١) ان العهد المذكور وارد في كتب المسلمين بنصه الاصلي بطريق الاسناد فالطرطوشي وان كان من اهل القرن السادس للهجرة فانه اورد نص العهد بطريق الاسناد الى الراوي الاصلي على عادة المؤرخين المحققين في اوائل الاسلام مما يدل على انه نقله من كتاب قديم

(٢) ان « سراج الملوك » الذي اورد نص هذا العهد هو من كتب الادب والسياسة المهمة وليس من كتب الفكاكة ومؤلفه من اكبر علماء الاندلس صحب ابا الوليد الباجي وأخذ عنه مسائل الخلاف واجاز له وقرأ الفرائض والحساب والادب وجاء بغداد ومصر وتفقّه على ابي بكر الشاشي وعلى ابي احمد الجرجاني وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان

(١) سراج الملوك ٢٨٣ (٢) سراج الملوك ٢٨٦

(٣) الجزء الاول من هذا الكتاب ٥٦

اماماً فقيهاً عالماً عاملاً زاهداً ورعاً • وكان مع ذلك متعصباً على النصارى يرى تحقيرهم واتفق انه دخل على الافضل شاهنشاه ابن امير الحيوش بمصر وبجانب الافضل رجل نصراني فوعظ الافضل حتى بكى ثم أنشد :

ياذا الذي طاعته قربة وحقه مفترض واجب
ان الذي شرفته من اجله يزعم هذا انه كاذب

وأشار الى النصراني فاقامه الفضل من موضعه (١) ولعل تعصبه هذا حمله على اثبات هذا العهد في كتابه مع رغبة اكثر الذين سبقوه في اغفاله لما توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين • ولا يقال ان الطرطوشي وضع هذا العهد من عند نفسه لان من كان في منزلته من الزهد والتقوى ينزه نفسه عن الكذب

(٣) ان اكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه من احكام اهل الذمة كما وردت في هذا العهد بمغناها الحرفي تقريباً (٢) واكثر هذه الاحكام كتب قبل زمن الطرطوشي • ناهيك بما جاء من ذلك في كتب السياسة والادارة وبعضها أشار الى هذا العهد اشارة صريحة وأورد بعض نصه • فقد جاء في كتاب الاحكام السلطانية للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (اي قبل الطرطوشي بخمس وسبعين سنة) بباب الجزية والخراج قوله : « واذا صولحو (النصارى) على ضيافة من مرتبهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة ايام لا يزدادون عليها كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مرتبهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة وتبيت دوابهم من غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن — الى ان قال — ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان مستحق ومستحب اما المستحق فستة شروط (١) ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له (٢) ان لا يذكروا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتكذيب له ولا ازدراء (٣) ان لا يذكروا دين الاسلام بدم له ولا قدح فيه (٤) ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح (٥) ان لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه (٦) ان لا يعينوا اهل الحرب ولا يأووا اغنياءهم • فهذه الستة الحقوق ملزمة فلنزم بغير شرط وانما تشترط اشعاراً لهم وتأكيذاً لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم • وأما المستحب فستة أشياء (١) تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار (٢) ان لا يعلو على المسلمين في الابنية ••• (٣) ان لا يسمعوهم اصوات نواقيسهم (٤) ان لا يجاهرهم

(١) ابن خلكان ٤٧٩ ج ١ (٢) الهداية ٥٧٤

بشرب الخمر ولا باظهار صلبانهم (٥) ان يخفوا دفن موتاهم (٦) ان يتمتعوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجناً الخ ^(١) فقول الماوردي هذا يكاد يكون نص عهد عمر حرفياً بعد الترتيب والتبويب . فالعهد المذكور كان معروفاً قبل كتاب سراج الملوك . ويؤيد ذلك ان ابن الاثير اشار اليه اشارة تدل على اعترافه بفحواه وبنسبته الى عمر كقوله في حوادث سنة ٤٨٤ هـ : « وأخرج توقيع الخليفة بالزام اهل الذمة بالقيار ولبس ما شرطه عليهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب » ^(١)

(٤) ان الخلفاء الاولين في القرون الاولى للاسلام كانوا اذا ارادوا تجديد عهد اهل الذمة ولا سيما النصارى فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزي ونحوه مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الاول واقدمهم عمر بن عبد العزيز الخليفة النقي المشهور باقتفائه آثار سمييه وجده لأمه عمر بن الخطاب وهو اول خليفة اموي أراد رد النصارى الى ما شرطه عليهم عمر وكانوا قد اغفلوا اكثر شروطه وخصوصاً من حيث اللباس وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة فامرهم ان يضعوا العمام ولبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام . وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى فانهم كانوا يرجعون الى فحوى عهد عمر كما سترى عهد عمر ومناقبه

اما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر ولا بد في بيانه من المقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد :

(مناقب عمر بن الخطاب) اظهر مناقب عمر العدل مع الصرامة وحرية الضمير والشدّة . والتقوى مع الفيرة الشديدة على الاسلام والرغبة في تأييده ونشره . فقد كان عادلاً حتى لا يبالى ان يحكم على ابنه او على نفسه فهو مثال للعدل مجسم لا يزال المسلمون الى اليوم يتمثلون باحكامه ويحاولون الاقتداء به ولم يستطع احد منهم ان يدرك شأوه . وكانت غيرته على الاسلام لا مثيل لها فلا يعمل عملاً او يقول قولاً الا وهو ينظر من ورائه الى نشر الاسلام ورفع مناره وجمع كلمة العرب في نصرته . فالعدل يقضي عليه ان ينصف اهل الذمة ويحاسبهم ولكن رغبته في نشر الاسلام كانت تظهر من خلال ذلك الانصاف . فقد اطلق حرباً الدين في مملكته وابقى اهل الذمة على ما كانوا عليه من امر دينهم وطقوسهم وقبائلهم وكنائسهم ولكنه منعهم من احداث كنائس جديدة لكي تنحصر النصرانية

فيتطلب الاسلام عليها ثم يحجوها . والعدل قضى عليه ان يحسن الى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين في العراق ففرض عليهم الصدقة بدلاً من الجزية ولكن رغبته في جمع كلمة العرب تحت لواء الاسلام قضت بالاشتراط عليهم ان لا ينصروا اولادهم^(١) (فحوى عهد عمر) وفحوى العهد المذكور يرجع الى اربعة شروط اولية وهي (١) ان لا يحدث النصارى معبداً (٢) ان ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة ايام (٣) ان لا يأووا في كنائسهم جاسوساً ولا يكتتموا غشاً للمسلمين (٤) ان لا يقتلوا المسلمين بشيء من اللباس او الركوب او تعلم القرآن او نقش اسمهم بالعربية على اختامهم . وانه بغير هذه الشروط لا يكون لهم امان على انفسهم وذرايرهم وأموالهم فالشرط الاول ينطبق على رغبة عمر في تأييد الاسلام ونشره كما تقدم . والشرط الثاني تستلزمه حال المسلمين في بلاد الفتح فقد كانوا غرباء بين اهل الذمة والعرب أهل ضيافة ولم يكن اهل تلك البلاد يألفون تلك العادة فجعلها عمر شرطاً واجباً عليهم رحمة بالمسلمين في اسفارهم للحرب او غيرها . وأما الشرطان الثالث والرابع فلا بد في تطبيقهما على اخلاق عمر من مقدمة صغيرة :

نصارى الشام وقصر الروم

اول ما يلاحظ في هذا العهد ان عمر اخذه على نصارى الشام دون سائر اهل الذمة في الشام ودون نصارى سائر الامصار . فهو لا يسري على قبض مصر او نبط العراق ولا على صابئة حران ولا مجوس فارس ولا على اليهود في بلد من البلاد . فلا بد لذلك من سبب متصل بما حواه ذلك العهد من الشدة والآن فلماذا لم يجعله عاماً على سائر بلاد الاسلام ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من اهل الذمة . وزد على ذلك انهم ينسبون الى عمر عهداً^(٢) آخر لاهل الذمة كافة . وليس فيه ضغط ولا تضيق وانما مرجعه الى التسامح والرعاية والحماية ويشبه العهدة النبوية باكثر نصوصه . ورأينا فيه مثل رأينا في تلك العهدة لان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام ولم يذكره احد من كتاب المسلمين القدماء ولكنه يوافق روح ذلك العصر بنحوه لمشايعته اكثر جهود الصلح التي كتبت يومئذ وذكرنا بعضها في ما تقدم . فمن المعقول ان يعطي عمر لاهل الذمة عهداً بهذا المعنى لانه ينطبق على عدله ورفقه في معاملتهم وهو عام لهم يشمل كل طوائفهم

(١) المعارف ١٩٣ والبلاذني ١٨٣ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٢

(٢) قاموس الادارة والقضاء (مادة بطاركة خانه) نقلاً عن منشآت سلاطين

اما العهد الذي نحن في صده فقد اعطي لنصارى الشام على الخصوص وكأنه اختصهم بالتضييق . فهو لم يفعل ذلك الا لسبب دعاء اليه . والغالب في اعتقادنا انه اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعي اهلها النصارى اذ يكونون عيوناً للروم على المسلمين لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية وهي اقوى الجامعات في الشرق من اقدم ازمانه الى هذا اليوم . فكل طائفة من الطوائف الشرقية تفضل ان يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان ظالماً على ان تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلاً . وفي التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى في عصرنا الحاضر مع ما داخل نفوس المشاركة من التسامح الديني . فان كل طائفة من اهلها تفضل ان يحكمها ابن دينها لا تبالي بعده او ظلمه . النصارى يفضل حاكماً مسيحياً والمسلم يفضل حاكماً مسلماً فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة

ونصارى الشام ادعوا للجزية ودخلوا في سلطان المسلمين وظلوا على ما كانوا فيه من حيث الدين وطقوسه يقيمون الصلاة في كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل الاسلام بآتهم القس والاساقفة من القسطنطينية او انطاكية ولسانهم لسان دولة الروم ومعنقدهم مثل معنقدها . وقد بينا في غير هذا المكان ان الفتح الاسلامي كان في صدر الاسلام احتلالاً عسكرياً ولم يكن المسلمون يتعرضون للمسيحيين في شيء من طقوسهم الدينية ولا احوالهم الشخصية ولا احكامهم القضائية وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية بسيادته في ذلك على نصارى الشام . فاذا حدث ما ميسر هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة وخصوصاً من حيث الكنائس . وكان الخلفاء يراعون عهودهم في هذا الشأن حتى اذا استفحل امر بني امية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها مما اقره الراشدون

ذكروا ان الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس فقال « ما هذا » قيل « بيعة » فامر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى امرهم الى قيصر القسطنطينية فكتب الى الوليدان هذه البيعة قد اقرها من كان قبلك فان يكونوا اصابوا فقد اخطأت وان تكن اصبحت فقد اخطأوا ^(١) ولم يجد اعتراضاً نفعاً . ولكن ذلك بدل على ان نصارى الشام كانوا في صدر الاسلام تحت حماية الروم او هم يعدون قيصر الروم حامياً لكنائسهم كما يعتقدون الآن في بعض دول اوربا . فضلاً عما غرس في قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم . وهب انهم كانوا ناعمين على تلك الدولة من بعض

الوجوه الدينية فاصبحوا بعد دخولهم في سلطة العرب بفضلون بقاء القديم على قدمه وذلك عادي في الامم التي تعودت الرضوخ لسواها فانها لا تستقر على حال ولا يهون اخضاعها الي بطريق الدين . ناهيك بما كان يحدده الكثرة والاساقفة من اسباب الميل الى قيصر القسطنطينية والفتح يومئذ حديث والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد الى سلطانه على ان يستعين على ذلك باهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيخذهم عيوناً له عليهم

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعاً في هذا السبيل فينقلون اخبار المسلمين الى الروم واذا جاء جواسيس الروم آوهم في منازلهم واعانهم في استطلاع الاخبار . فربما دخل النصراني بين المسلمين وهو في مثل لباسهم وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم وحفظ شيئاً من القرآن ليوم المسلمين انه منهم . والشام لم يتم فتحها بعد وعمر لا يزال يخاف انتفاضها لبعدها عن مركز الخلافة . فخوفاً من مثل ذلك اشترط على اهلها ان لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من اللباس او الركوب وغيره وان لا يأووا احداً من جواسيس الروم ولا يكتسبوا غشاً للمسلمين

ولنحو هذا السبب ايضاً اوصى عمر عماله ان لا يستعملوا اهل الكتاب لانهم اهل رشى ولان بعضهم اولياء بعض . ويقال ان اصل هذا المنع منقول عن النبي في حديث جرى له يوم خروجه الى بدر ^(١) على ان هذه الوصية لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين الى من يعرف الحساب والكتابة وخصوصاً في اول الاسلام اذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الاصلية

فالارجح عندنا ان عمر كتب عهداً لنصارى الشام (او استكتبهم عهداً) ان لم يكن هذا نصه فهو فحواه ولا يستبعد وقوع بعض التغيير في نصه بعد ذلك . وان السبب في ما حواه من الشدة خوفاً من نصارى الشام لانهم اقرب نصارى الشرق الى كنيسة القسطنطينية . اما القبط فقد كانوا اعداء تلك الكنيسة وهم الذين اطاؤا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح . وانه لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصباً للدين او كرهاً للنصرانية . ثم اطلق المسلمون هذا العهد على سائر اهل الذمة

الامويون واهل الذمة

كذلك كانت احكام اهل الذمة لما افضت الخلافة الى بني امية وكانوا لا يخافون الروم على الشام لان مقر خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطىء وتغلبوا على اهلها وصاروا يغزون الروم

في البحر . علي انهم ضيقوا على اهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في حشد الاموال لاصطناع الاحزاب والتمتع باسباب الدنيا فزادوا الجزية واخراج وشددوا في تحصيلها وضيقوا على الناس حتى اخذوا الجزية ممن اسلم . واما من بقي على دينه من اهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ويحقرونهم لانهم ليسو عرباً ولا مسلمين . ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احقار بني امية لغير العرب من المسلمين . وكانوا يعدّون الناس ثلاث درجات اولها العرب ثم الموالي ثم اهل الذمة . ويؤيد ذلك رأي معاوية في اهل مصر قال « وجدت اهل مصر ثلاثة اصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس . فاما الثلث الذين هم ناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي والثلث الذين هم لا ناس فالسالمة » يعني القبط ^(١)

ولما رأى القبط ان الاسلام لا ينجيهم من الجزية او العنف في تحصيلها عمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهينة والرهبان لا جزية عليهم فادرك عمال بني امية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان وازدادوا غيظاً منهم حتي اراد بعضهم اقتضاءها من الاموات فضلاً عن الاحياء بان يجعلوا جزية الموتى على احيائهم ^(٢) . وامثال هذه الحوادث كثيرة في عهد بني امية ذكرنا كثيراً منها في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ٢١ مع الطرق التي كان يتخذها عمال بني امية لابتزاز الاموال من اهل الذمة

فعل الامويون ذلك واغضوا عن شروط عمر حتى اذا افضت الخلافة الى حفيده ومريده عمر بن عبد العزيز كان من جملة ما قلده فيه انه كتب الى عماله باحياء ذلك العهد كقوله « وامروا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ولا تتركوا احداً من الكفار يستخدم احداً من المسلمين ولا تستخدموا احداً من اهل الذمة » ^(٣) ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الاذان ونظراً لاهتمام بني امية بجمع الاموال للاسباب التي قدمناها واهل الذمة اقدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم لافندارهم في الحساب والكتابة واعمال الخراج استخدموهم في هذا السبيل رغم ارادتهم ولم يكن يهجم ذلك من وجه ديني لنشر الاسلام او حصر النصرانية ولولا ذلك ما ولوا خالد القسري العراقي وامه نصرانية رومية كان يراعي جانبها وبكرم النصارى من اجلها فاعتزل النصارى في ايامه . واراد خالد امه على الاسلام فلم تسلم فابنت لها يعة

(١) المقرئزي ٥٠ ج ١ (٢) المقرئزي ٢٩٥ ج ١

(٣) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ وابن الاثير ٣١ ج ٥

في ظهر القبلة بالمسجد الجامع في الكوفة فكان المؤذن اذا اراد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس^(١) وكان خالد بولي النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبد العزيز ويطاق ايديهم في الحكومة فيستبدون بالمسلمين . وعمر بن ابي ربيعة الشاعر المشهور كانت امه نصرانية ماتت والصليب في عنقها^(٢) وكان النصارى في ايام بني امية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم احد . وكان الاخطل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه احد ولا يستكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به في هجو الانصار^(٣)

على ان الخلفاء من بني امية كانوا اذا قربوا نصرانياً او يهودياً طلبوا اليه ان يدخل في الاسلام فلا يمنعه من الرفض مانع الا من يغضب الخليفة عليه ولم يكن يحتاج اليه فينتقم منه كما اصاب شمعة وكان من رهط الفرس نصرانياً فدخل على بعض خلفاء بني امية فقال له « اسلم يا شمعة » قال « لا والله لا اسلم ابداً ولا اسلم الا طائعاً اذا شئت » فغضب وامر فقطعت بضعة من نغذه وشويت بالنار واظعمها . اما الاخطل فان عبد الملك قال له مرة « ألا تسلم فنفرض لك في الفى ونعطيك عشرة آلاف » قال « كيف بالخير » قال « وما نصنع بها وان اولها لمزج وآخر لسكر » فقال « اما اذا قلت ذلك فان بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها الا كعقمة ماء من الفرات بالاصبع » فضحك

اما اعمال بني امية فكانوا يضايقون على النصارى في استخراج الاموال فمن سهل لهم استخراجها اكرموه . وفي خطط المقرئ في فصول في انتقاض القبط فلترجع هناك^(٤)

الخلاصة

وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية اساس سياستها طلب السلطة والتغلب فاستعان اصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب . فخرتهم تلك العصبية الى انقسام العرب الى قبائلها كما كانت في الجاهلية وانقسمت ايضاً الى عصبية وطنية . وبالغوا في التعصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالي واهل الذمة . واعوزهم اصطناع الاحزاب الاستكثار من الاموال لانفاقها في اجتذاب قلوب الرجال . والاستكثار منها بعثهم على

(١) الاغاني ٥٩ ج ١٩ (٢) الاغاني ٣٢ ج ١

(٣) الاغاني ٧٤ و ١٧٨ ج ٧ (٤) المقرئ ٧٩ و ٣٠٢ و ٤٩٣ ج ١

الظلم في تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل ومدّوا ايديهم الى اموال الصدقة وغيرها واستاثروا بالقي . ورأوا اعداءهم العلوبين يطلبون الخلافة بالحق وسلاحهم الدين والنقوى واذا جادلوهم غلبوه فاستخفوا بالدين تحقيراً لاهله وعمدوا الى الدهاء والحيلة والاغضاء عن الاريجية وبالغوا في الشدة والعنف واشتهر ذلك عنهم ولم ينكره احد من المؤرخين حتى اهلهم من اعقابهم . فابو الفرج صاحب الاغانى اموي^(١) واكثر ما يعرف من مساويء بني امية مقتبس من كتابه

والفضل في ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتبهوا بالدهاء والسياسة والتدبير حكم كل منهم نحو عشرين سنة وهم : معاوية بن ابي سفيان (حكم من سنة ٤١ — ٦٠ هـ) وعبد الملك بن مروان (من ٦٥ — ٨٦ هـ) وهشام بن عبد الملك (من ١٠٥ — ١٢٥ هـ) وكان المنصور العباسي لما افضت الخلافة اليه يتنوع هشام بسياسته^(٢) واما عمر بن عبد العزيز فقد كان احسنهم تدبيراً ولكنه جاء في غير اوانه فلم يطل مقامه . ولولا هؤلاء السواس لذهبت الدولة من ايديهم عاجلاً لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء اهل الترف واللبو والقصف . واولم يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٤ هـ فقد كان مغرمًا بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقرود والفهود . وكان يحب الطرب والمناذمة على الشراب فخرى عماله على مثاله واطهروا الشراب وفي ايامه ظهر الغناء في مكة والمدينة واستعملت الملاهي ولم يكن المسلمون يعرفونها قبل ذلك^(٣)

ومهم يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٠٥ هـ ويسمونه خايع بني أمية فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وسار في طريق غير طريقه فشغف بحاريتين اسم احدهما سلاوة والاخرى حبابة فقطع معهما زمانه . وغنت يوما حبابة :

بين التراقي والهاة حرارة ما تظمن ولا تسوغ فتبرد

فاهوى يزيد لطير فقالت « يا امير المؤمنين لنا فيك حاجة » فقال « والله لا طيرن » فقالت « على من تدع الامة » قال « عايك » وقبل يدها . وخرج يوما لينزه في ناحية الاردن ومعه حبابة وبينما هما في الشراب رماها بحجة غيب فدخلت حلقة فشرقت ومرضت وماتت . فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها حتى انتنت وهو يشمها ويقبها وينظر اليها ويبكي فكلموه في امرها حتى اذن بدفنها وعاد الى قصره كئيباً حزينا وسمع جارية له تمثّل بعدها :

(١) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٨ (٢) المسعودي ١٣٢ ج ٢

(٣) المسعودي ٦٨ ج ٢

كفى حزناً بالهائم الصب ان يرى منازل من يهوى معطلة قفراً
فبكى وبقي يزيد بعد موتها سبعة ايام لا يظهر للناس اشار عليه اخوه مسلمة بذلك
مخافة ان يظهر منه ما يسفه عند الناس^(١) ولم يحكم الا اربع سنوات
ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦ هـ وكان خليعاً سكيراً همه الصيد
وشرب الخمر حتى جعل الخمر في برك يغوص فيها ويشرب^(٢) وأول شيء فعله لما ولي
الخلافة انه بعث الى المغنين في المدينة ومكة واشخصهم اليه واستقدم اهل المجون والحلاعة
ونادهم وبالغ في التهنيت والمسكر ولكنه لم يحكم الا سنة واحدة
على ان العرب اعظموا تهتك بني أمية من ايام يزيد بن معاوية واستعربوا البيعة له
فكيف بعد الذي شاهده من يزيد والوليد وغيرها حتى قال بعض الشعراء مخاطبهم :
ان البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذناب الناس انفسكم ان الذناب اذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بايديكم بطونكم فتم لا خسارة تغني ولا جزع
فاين هؤلاء من دهاة بني أمية الذين ذكرناهم ولم يكن فيهم من يس الخمر او يتماجن
او يتخالع حتى هشام بن عبد الملك مع انه جاء في اواخر الدولة فكان لا يشرب الخمر
ولا يسقي احداً في حضرته مسكراً وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه^(٣)
فلما انفس بنو أمية بالتزلف والقصف مع ما كان من تمصهم على غير العرب واحتقارهم
الموالي واساءتهم الى اهل الذمة وسائر اهل القرى بما كانوا يسومونهم اياه من نهب غلهم
في اثناء السفر — اذ كان جنود المسلمين في اواخر ايام بني أمية اذا مروا بقرية
غضبوا من يمرون به اموالهم^(٤) — فاصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ولم يمض
الا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها

(١) ابن الاثير ٥٧ ج ٥ (٢) الاغانى ٩٨ ج ٣

(٣) الاغانى ١٦٧ ج ٥ (٤) ابن الاثير ١٤٦ ج ٥

العصر الفارسي الاول

من خلافة السفاح سنة ١٣٢ هـ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ

دعونا هذا العصر فارسياً مع انه داخل في عصر الدولة العباسية لان تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفاءها ولغتها وديانتها فهي فارسية من حيث سياستها وادارتها لان الفرس نصروها وأيدوها ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها ومنهم وزراؤها وامراؤها وكتابها وحجابه • وقد حملهم على القيام بنصرتها ما علمته من عصبية بني أمية على غير العرب واحتقار الموالي واكثرهم من الفرس فكانوا ينصرون كل ناظم على تلك الدولة من الشيعة والحوارج • على انهم كانوا اكثر رغبة في نصرته الشيعي لما رأوه في دعوتهم من قوة الحجة يومئذ لانهم يدعون الى بيعة صهر النبي او ابناء بنت النبي • فكان العلويون يبنون دعائهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الاموية والفرس يبايعونهم وينصرونهم على امل التخلص من ظلم بني أمية ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة ورازوا بها على يد ابي مسلم الخراساني واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمه البينية على بني أمية ولم يبق من العرب من ينصر الامويين الا مضر فاستعان ابو مسلم بالبينية على الامويين حتى فاز بمشروعه واليك البيان

انتقال الخليفة الى العباسيين

الشيعة العلوية

ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا وآل علي بن ابي طالب يطالبون بالخلافة ويسعون في ادراكها • وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هـ فغضب اشياخ العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا وأمير الكوفة يومئذ زياد بن ابيه الداهية الشهير فشد في اخاد الثورة وقتل جماعة من اشياخ علي فيهم حجر بن عدي وأصحابه • فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية لعل انتخاب الامة يقع على واحد من ابناء علي فترجع الخلافة الى اهل البيت ولم يخطر لهم ان يبايع معاوية لابنه • فلما علموا بيعته تقموا عليه وزادهم نفمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة — ومن

قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما روينا

لقد ضاعت رعيّكم واتم تصيدون الارانب غافلين^(١)

وكان اوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي فلما مات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد أبي الحسين ان يبايعه . على ان اكثر الذين بايعوه من اهل التقوى عدوا بيقوم خرقاً لحرمته الدين^(٢) . وكان الحسين في المدينة فلما طلبوا منه ان يبايع يزيد فرّ الى مكة واكثر شيعته في الكوفة فكتبوا اليه وحرصوه على القدوم اليهم لينصروه فاطاعهم ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته . وبعث اليه امير الكوفة يومئذ عبيد الله بن زياد جندياً حاربه فدافع عن نفسه واهله حتى قتل قتله المشهورة في كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ .

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته فخرجوا بعد وفاة يزيد وببيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ يطالبون بدمه وسموا انفسهم « التوابين » وأمير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد فاخرجوه منها وولوا عليهم رجلاً منهم قتعلب ابن زياد عليه . فنهض المختار بن أبي عبيد الثقفي وهو من جملة الذين طمعوا بالسيادة لا بتراز الاموال في اثناء تلك الفوضى واختلال الاحوال . وكان المختار عالي الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ويدعو الى بيعة محمد بن الحنفية اخي الحسين من ابيه . فقبه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل اكثر قتلة الحسين . ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضياً بتلك الدعوة فبعث الى المختار يثبّرأ منه . فحوّل المختار دعوته الى عبد الله ابن الزبير وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين لان اياه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم وأقام عبد الله في مكة يدعو الى نفسه . على ان المختار لم يخلص النية في دعوته لاحد لانه انما كان يريد لها لنفسه . فلما علم ابن الزبير بغرضه بعث اخاه مصعباً على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هـ .

اما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين الى فرقتين احدهما تقول ان الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي والاخرى تقول بجولها بعد الحسن والحسين الى اخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرقة الكيسانية . واكثرهما ظهوراً وتصدياً الفرقة الاولى فبايعوا بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين وتسلسلت الخلافة بعده في اعقابها حتى صار الائمة ١٢ اماماً وهم : علي والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر

الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضا ومحمد التقي وعلي التقي وحسن العسكري ومحمد المهدي وتفرع من الشيعة العلوية ايضاً فرق اخر بايعت غير واحد من اعقاب علي كالزيدية نسبة الى زيد بن علي بن الحسين والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق وفرق آخر لا محل لذكرها

وكان بنو امية اذا سمعوا بظهور احد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين فاصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم . فلاقى العلويون في ايام بني امية ضنكاً شديداً وكادوا يهلكون جوعاً واصبح هم احدهم قوت عياله حتى تولى خالد القسري عامل بني امية المتوفى سنة ١٢٦ هـ فاعطاهم الاموال ورفق بهم فعادوا الى طلب الخلافة^(١) وخالد هذا غريب الاخلاق فمع كونه من عيال بني امية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل اهل الذمة كما تقدم

الشيعة العباسية

وكان في جملة المطالبين بالخلافة من اقرباء النبي بنو العباس عم النبي لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون في ابان دولتهم وانما كانوا يدعون الى انفسهم سرّاً . وكان العلويون والعباسيون في ايام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لانهم من بني هاشم وكلا الرهطين اعداء بني امية من قبل الاسلام — والمضطهدون يتقاربون في اي حال وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم وهم مقيمون في الحميمة من اعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شأن بني امية فهموا بالنهوض . واتفق في اثناء ذلك ان الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه ابي هاشم وكان ابو هاشم هذا يفد على خلفاء بني امية من المدينة الى الشام فيمر في اثناء الطريق بالحميمة . ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آس هشام منه فصاحة وقوة ورئاسة مع علمه بطمعه في الخلافة فخافه فدرس اليه في اثناء رجوعه الى المدينة رجلاً سمّه في لبن . فشر ابو هاشم بالسهم وهو في بعض الطريق فخرج الى الحميمة وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فنزل عنده . ولما احسّ بدنو الاجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن اهله فاوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده . وكان معه جماعة من شيعته سلمهم اليه واوصاه بهم . فلما مات ابو هاشم تهوس محمد بالخلافة وايقن بالنجاح لانه اكتسب حزب الكيسانية جميعاً فاخذ في بث الدعاة سرّاً . ثم توفي وقد اوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم وعرف بالامام

فاخذ ابراهيم الامام في بث دعاته وبدأ بخراسان لوثوقه باهلها اكثر من سائر اهل الامصار ولان الشيعة الكيسانية اكثرهم في خراسان والعراق وقد نصروا العلويين مراراً . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع ابي هاشم واوصاهم ان يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » اي اهل النبي ولم يعين العلويين ولا العباسيين . وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الاموية فهان عليهم ان يباعوا لآل محمد وهم يحسبون الامر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين . وتوفى ابراهيم الامام في اثناء ذلك الى ابي مسلم الخراساني القائد العجيب فاتم امرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور

بيعة المنصور للعلوية ونكته

وكان بنو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال امر بني امية اجتمعوا بمكة وفيهم اعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم وتداولوا في قرب انحلال دولة الامويين وفي من يخلفهم من اهل البيت . وكان في جملة الحضور ابو العباس السفاح واخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو ابو جعفر المنصور وغيرهما من آل العباس . فاجمع رأيهم على مبايعة اوجه العلويين يومئذ وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية . فبايعوه لتقدمه فيهم ولما علموه له من الفضل عليهم وبايعه ابو جعفر المنصور في جملتهم ^(١) ولعل هذه المبايعة هي التي اسكت العلويين عن طلب الخلافة في اثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها كلهم اتفقوا ان تكون الخلافة مشتركة في اهل البيت . لان العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام ابراهيم او غيره من بني العباس

اما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة الى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين . وفي جملتهم ابوسلمة الخلال المثري الفارسي الشهير وكان يقيم في حمام اعين بضواحي الكوفة وكان شديد التمسك بدعوة العلويين وقد بذل ماله وجهه في سبيل نشرها . فلما سمع بانتقال البيعة الى بني العباس كظم وتربص ليرى ما يقول الناس . ثم علم ان ابراهيم الامام عين ابا مسلم وارسله الى خراسان ومعه الوصية المشهورة (من اتهمته فاقته) وقد اطاعه النقباء فاطاعه ابو سلمة في جملتهم وهو يتوقع ان تكون البيعة شوري بين الشيعة ^(٢) ولما بلغه ان مروان بن محمد

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الاثير ٢٤٣ ج ٥ والفخري ١٤٧

(٢) الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢

آخر خلفاء بني أمية قتل ابراهيم الامام اضمحرجع الى الدعوة العلوية^(١) ثم جاءه اخوة الامام وفيهم ابو العباس السفاح واخوته وسائر اهل بيته وقد انتقلت البيعة الى ابي العباس المذكور فانزله ابو سلمة عنده وراى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة فسكت فبقيت لآل العباس . وكان ابو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الامويين في خراسان وفارس والعراق فلما غلبهم وملكو خراسان وما يليها جاؤوا العراق وبايعوا ابا العباس فسكت العلويون خوفاً على انفسهم من ذلك التيار العظيم وهم يتوقعون مع ذلك ان تكون الخلافة شوري بين الرهطين

وعلم العباسيون بما كان يضمه ابو سلمة من نقل الخلافة الى العلويين فشكوه الى ابي مسلم سرّاً . فدرس اليه رجلاً قتله بالكوفة غيلة واشاعوا ان بعض الخوارج قتله وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في اخلاصهم حتى تم الامر لهم

اما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا احدهم محمد بن عبد الله في المدينة وبايعه معهم سائر بني هاشم ومنهم ابو جعفر المنصور فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة ابي العباس السفاح سنة ١٣٢ جاؤا اليه في الكوفة يطالبونه ببيعتهم فاسترضاهم ابو العباس بالاموال وقطع لهم القطائع . وكان في جملة القادمين اليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة فآكرم السفاح رفادته وعرض عليه ما يرضاه من المال وقال له « احتكم علي » فقال عبد الله « بالف درهم فاني لم ارها قط » ولم يكن هذا المال موجوداً عند السفاح فاستقرضه له من رجل صير في اسمه ابن ابي مقرن ودفعه اليه . واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح ان بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتنمها من مروان بن محمد فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر اليها ويبكي فساء له عن السبب فقال « هذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط » فخباه به ثم امر الصيرفي ان يبتاعه منه فابتاعه بثمانين الف دينار (نحو مليون درهم) وامر ابو العباس باكرام عبد الله وانزله على الرحب والسعة وهو يتوجس مما في ضميره فبث عليه العميون فانس عنده طمعاً فزاده عطاء فعاد عبد الله الى المدينة مثقلاً بالاموال ففرقها في اهلها وكانوا اهل فاقة فلما راوا تلك الاموال شرّوا

واما عبد الله فما زال مضمرّاً المطالبة بالخلافة لابنه^(٢) على ما تمت المبايعة عليه والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر اهل بالاموال كما رايت . فلما توفي السفاح

سنة ١٣٦ هـ خلفه اخوه ابو جعفر المنصور وكان رجلاً شديداً البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه . فكان همه قبل كل شيء ان يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة لان لم في عنقه بيعة فبث عليهم العيون واراد اختبارهم فبعث بعطاء اهل المدينة على جاري العادة من قبل وكتب الى عامله فيها « اعط الناس في ايديهم ولا تبعث الى احد بعطائه وتفقد بني هاشم ومن يتخلف منهم عن الحضور وتحفظ بمحمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك فلم يتخلف عن العطاء الا محمد وابراهيم المذكوران فكتب اليه بذلك . فتحقق المنصور انها بنويان القيام عليه وقد سكتا في اثناء خلافة اخيه لانه كان يكرمها ويفدق الاموال عليهما والمنصور لا يرى ذلك فلما راوا تضيقه عزموا على الخروج فبشوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم الى بيعتهم . فعلم ابو جعفر بذلك فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق واحمال في استطلاع اسرارهم واراد اسنقذام ابني عبد الله وكتب اليه يستقدمه بها فانكر عبد الله انه يعرف مقرها فاصبح هم المنصور التخلص منها ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين وخصوصاً بني الحسن وهم يقيمون في المدينة فبعث الى عامله فيها ان يقبض عليهم جميعاً ثم امره ان ينقلهم الى العراق فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والاغلال في ارجلهم واعناقهم وقد حملهم على محامل بغير وطاء ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبد الله لاستنارهما . فجاءوا ببني الحسن وعدتهم بضعة عشرة رجلاً فامر المنصور بنقلهم بقنطرة قليلة

اما محمد بن عبد الله صاحب البيعة فلم يقع في الفخ فبعث المنصور الى عامله في المدينة يشدد في طلبه فلم ير محمد بدءاً من القيام فظهر بالدعوة فبايعه اهل المدينة بعد ان استفتوا امامهم مالك بن انس فافتاهم بالخروج معه فقالوا « ان في اعناقنا بيعة لابي جعفر » فقال « انكم بايعتموه مكرهين وان بيعة محمد بن عبد الله اصح منها لانها انعقدت قبلها »^(١) وكان ابو حنيفة ايضاً على هذا الرأي يقول بفضل محمد هذا ويحتج الى حقه فحفظ لها المنصور هذا القول فتأدت اليهما المحنة بسبب ذلك . فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ اصبح من اكبر المضطهدين لها فضرب مالكاً على الفتيا في طلاق المكره وحبس ابا حنيفة على القضاء كما هو مشهور

وكان لنكث المنصور ببيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في اذهان العلويين لانها جاءتهم بغتة وكانوا يظنون ذلك لا يصدر من اهل البيت كما صدر من بني امية فتحسروا

علي ايام بني امية وتمنوا رجوعها — ذكروا عن محمد بن عبد الله في اثناء قيامه على المنصور انه سمع شاعراً يرثي بني امية فيبكي فقال له عمه « اتبكي على بني امية وانت تريد ببني العباس ما تريد » فقال له « يا عم لقد كنا نقتلنا على بني امية ما نقتلنا فما بنو العباس الا اقل خوفاً لله منهم وان الحجة على بني العباس اوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لابي جعفر »^(١)

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

القتل عل التهمة

قد رأيت في ما تقدم ان بني العباس قاموا يدعون الى انفسهم وهم بين خطريين عظيمين الاول ان يحاربوا بني امية ويتغلبوا على احزابهم . والثاني ان يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم الى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم ان الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت في عصر الراشدين وكما ارادها بنو علي . وان العلويين انما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدبيرهم وان معاوية لم يغلب الا بالدهاء والحيلة وان عبد الملك لم يستطع استبقاءها الا بالفتك وشدة البطش . فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين بمبايعة ابي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ثم افضت بعده الى ابنه ابراهيم الامام وتوفى هذا الى ابي مسلم الخراساني ورأى فيه الشدة والدهاء جعله قائداً على نقبائه ودعائه واوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا اهل بيت احفظ وصيتي انظر الى هذا الحلي من اليمن فالزهري واسكن بين اظهريهم فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم واتهم ربيعة في امرهم . واما مضر فانهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه وان استطعت ان لاتدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل وايمان غلام بلغ خمسة اشبار واتهمته فاقتله .. »^(٢)

نفج ابو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية وقد عمل بها وعول عليها فكان يقتل كل من اتهمه او شك فيه فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠,٠٠٠ نفس قتلوا صبراً^(٣) بدون حرب في بضع سنين وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة وفيهم

(١) الاغاني ١٠٦ ج ١٠ (٢) ابن الاثير ١٦٥ ج ٥

(٣) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٥

غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة كابي سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها ابو مسلم بسيفه وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لابي مسلم امير آل محمد . فحالما استشار السفاح ابا مسلم بشأنه واتهمه بنقل الخلافة الى العلويين اشار ابو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الاطراف . وفعل نحو ذلك ايضاً سليمان بن كثير وهو من اكبر دعاة الدولة العباسية قبله وكان شيخاً جليلاً لم يذخر وسعاً في نصرة تلك الدعوة . فبعد قتل ابي سلمة بلغ ابا مسلم عنه مثلاً بلغه عن ابي سلمة فاحضره اليه وقال له « اتحفظ قول الامام لي من اتهمته فاقته » قال « نعم » قال « فاني قد اتهمتك » تخاف سليمان وقال « اناشدك الله » قال « لا تناشدني فانت منطوي على غش الامام » وامر بضرب عنقه ^(١) . ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الامراء والقواد . قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر ومنهم الكرماني واولاده وكبار رجاله ^(٢) وغيرهم بشر كثير حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء واصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى احدهم الى مقابلته الا اوصى وتكفن وتحنط . وثار من ذلك بعض الامراء من شيعة بني العباس وصاح في رجاله « ما على هذا اتبعنا آل محمد ان تسفك الدماء وان يعمل بغير الحق » فتبعه على رأيه اكثر من ٣٠,٠٠٠ رجل فوجه اليهم ابو مسلم جنداً قاتلهم وقتلهم

المنصور والدولة العباسية

فهذا وامثاله مهدي ابو مسلم الخلافة لبني العباس فساعدهم اولاً على اخراجها من بني امية الى اهل البيت ولم يكنف ببيعة ابي العباس وقتل مروان بن محمد اخر خلفاء بني امية ولكنه حرضهم على قتل من بقي من بني امية بالاغراء او التخويف على السنة الشعراء . وبقال انه هو الذي اوعز الى سديف الشاعر مولى بني هاشم ان يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك وكان السفاح قد امنه واكرمه وامن سائر بني امية — فيقال ان سديفاً دخل يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام فانشد سديف قوله

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داءً دويماً
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها اموياً

فتأثر السفاح وامر بسليمان بقتل ودخل شاعر آخر فقال شعراً آخر وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني امية فقتلهم وبسطوا النطوع على جنبهم فأكلوا الطعام وهم

(١) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٨٣ ج ٥

يسمعون انين بعضهم حتى ماتوا جميعاً^(١) وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك وان الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السفاح وهو مشهور بكرهه لبني امية وشدة نقمته عليهم ولكن لاختلاف في انهم قتلوا غدرًا سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الامراء المالك بمصر في اوائل القرن الماضي

والغالب ان ابا مسلم اوعز الى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم فاشار الى سديف ان يحرضهم على ذلك بشعره . ولم يقل سديف ذلك حبا لبني العباس بل كرها لبني امية وانتقاماً لآل علي لانه من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شوري بين الشيعة . فلما رأى المنصور استنقل بها بعد ذلك نقم على العباسيين وهجما بأشعار بلغ خبرها المنصور فكتب الى عامله ان يأخذ سديفاً فيدفنه حياً ففعل^(٢)

وبعد ان قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الامويين عمدوا الى استئصال شافيتهم من سائر البلاد . ولم ينج منهم الا قليلون اهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ففرّ الى الغرب واسس دولة بني امية بالاندلس كما سيأتي . وتولى استئصال شأفة الامويين من بني العباس عبد الله بن علي فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم انتقاماً لما فعلوه قبلاً بالائمة من آل علي وخصوصاً زيد بن زين العابدين . فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل فضر به ثمانين سوطاً ثم احرقه^(٣)

وبعد ان تخلص المنصور من الامويين لم يذخر ابو مسلم وسعاً في تخليص الدولة له من اقربائه آل العباس انفسهم وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره وقد طمع بالخلافة فحاربه بامر المنصور وغلبه وقبض على ما في عسكره من الغنائم والاسلحة . فاراد المنصور ان يوجهه الى بني الحسن منافسيه في الخلافة فاشتغل خاطره بابي مسلم واصبح خائفاً منه على سلطانه بعد ما بلغ اليه من النفوذ والشهرة والدالة . ولم يكن همه الا قتله ليتفرغ للعلويين فاتهمه بانه ينوي اخراج الملك منهم فاستحق القتل عملاً بوصية الامام

وكان المنصور قد خاف ابا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة اخيه ابي العباس ولكن ابا العباس لم يرد الاقدام على ذلك . فاما مات السفاح وخلفه المنصور صم على قتله ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي فضرب عدويه احدهما بالآخر فاهما قتل صاحبه انفراد فيسهل على المنصور قتله . فلما فرغ ابو مسلم من حرب عبدالله بن علي احتال المنصور

(١) الفخري ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢

(٢) العقد الفريد ٣٢ ج ٣ (٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢

في استقدامه اليه من خراسان في حديث طويل وادخله عليه دخول الزائر الامين وقد اكن له اناساً بالسلاح وراء الستر فاخذ سيفه منه وحادثه وتدرج من العتاب الى التوبيخ حتي اذا ازفت الساعة صفق المنصور بفرج الكامنون بسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ قاصر به فلفوه بالبساط ثم دعا بعض رجال خاصته وشاورهم في قتله ولم يقل لهم انه قتله فقال له احدثهم « ان كنت قد اخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقبله » فاشار المنصور الى البساط فلما رأى ابا مسلم فيه وتحقق موته قال « عدّ هذا اليوم اول يوم من خلافتك » (١)

ولما فرغ المنصور من ابي مسلم لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية لعلمه انه ارتكب بقتله خطراً عظيماً فما عثم ان ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية وكادوا يفتكون به لولم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل الراوندية جميعاً ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل حصين بقيه غائلة ذلك عند الحاجة ثم عمد الى تخايص الخلافة من آل علي فحارب محمد بن عبدالله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها منهم عمه عبدالله وكان ابو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله فاحتال المنصور في استقدامه بامان بمته اليه مع ولديه نجاء فحبسه عنده . ثم علم سرّاً ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته وكان والياً على الكوفة . فتجاهل وبعث اليه وقد دبر أمراً كتمه عن رجال بطانته فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاکرام ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده واقبل عليه وقال « يا ابن العم اني مطلقك على امر لا أجدر غيرك من اهله ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله فهل انت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي » فقال له عيسى « انا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع امره ونهيه » فقال المنصور « ان عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيع دمه وفي قتله صلاح ملكنا نخذه اليك واقتله سرّاً » فطاعه عيسى فسلم اليه عمه ففضى به الى الكوفة . واضمر المنصور ان ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله الزمه القصاص وسلمه الى اعمامه اخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الاثنين معاً . اما عيسى فكأنه شك في نية المنصور والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضاً خوفاً من وصية الامام فاستشار بعض ذوي مشورته فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حياً

فقتله في بيت جعل أساسه على الملح^(١)

وأمثله ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة • وكان يعطي الامان ثم ينكث كما رأيت فعله بعمه عبد الله وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط لما بولع السفاح وأرسل أخاه المنصور لمحاربته فجرت السفراء بينهما واتفقا على ان يدخل ابن هبيرة في امان بني العباس فكتب له المنصور اماناً نزل ابن هبيرة اربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضي به فبعثه الى ابي جعفر فانفذه ابو جعفر الى ابي العباس فاسره بمضائه • وكان رأي ابي جعفر في بادىء الامر ان يفي بما اعطاه ولكن ابا مسلم (وكان لا يزال حياً) اشار على السفاح ان يقتله قاتلاً • ان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد • لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة • فبعد ان جاء ابن هبيرة الى ابي جعفر مستأناً غدر به وقتله^(٢) لانه اتهمه ثم اتهم ابا مسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت • وشاع نكث الامان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه المنصور كما تقدم فبعث اليه يعرض عليه الامان ويعده خيراً فاجابه محمد « اي امان تعطيني امان ابن هبيرة ام امان عمك عبد الله ام امان ابي مسلم »^(٣)

وظل المنصور وابو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك • على انهم لم يكونوا يبطشون او يقتلون الا في من نازعهم على الخلافة فهذا يقتلونه على الشك • اما احكامهم في ما خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق كما سيأتي • اما من كان في نفسه مطمع في الخلافة او ما يتماق بها فحكمه حكم المجرمين فكل من يطلب الخلافة لنفسه او يسعى فيها لاحد كانت حياته في خطر فاذا دعي للمثول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعداداً للموت وكان المنصور ايضاً قدوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني أمية في الاندلس وقد فرّ من العراق فالتجأ الى المغرب خوفاً من القتل فنصره رجاله وخصوصاً مولى له اسم بدر سعى في تأييد سلطانه مثل سعي ابي مسلم في الدولة العباسية فلما استتب له الامر سلبه كل نعمة وسجنه ثم اقصاه حتى مات وفعل نحو ذلك في رؤساء الاحزاب الذين نصره وسياقي الكلام على ذلك

واشتهر فتك العباسيين بالذين بنصروهم في تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء انفسهم يشيرون الى ذلك اذا عوزهم الاستدلال به • فالامين لما رأى طاهر بن الحسين يتفاني

(١) المستطرف ٦٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٧ ج ٥

(٢) ابن خلدون ٢٧٩ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٢٥٤ ج ٥

في نصرة اخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الامين وكاد يذهب بدولته كتب الامين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم اعلم انه ما قام لنا منذ قننا قائم بمحقنا وكان جزاؤه الا السيف فانظر لنفسك او دع » ^(١) وفي الواقع ان المأمون لما استتب له الامر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل ابي مسلم فاهدى له خادماً كان رباه وامره ان يسمه ففعل ^(٢)

سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية

الموالي الفرس

قدرنا ان الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا وفيهم الموالي واهل الذمة وكانوا ناعمين على دولة بني امية فغضبوا اهل البيت انتقاماً منها والجمهور الا هم منهم الفرس الفرس والعرب قبل الاسلام

الفرس اهل سياسة وسلطان وقد انشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الاحكام من قديم الزمان • وضخت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان ونجح فيهم القواد والعلماء والحكماء وترجموا العلم والفلسفة وكان لهم شأن كبير في التاريخ القديم واشتهر فيهم فضلاً عن الاسر المالكة والدهاقين والاساورة بيوتات شريفة اشهرها سبعة كان الشرف فيها • وعلى اطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء وغيرها من بقايا مدنهم القديمة نقوش كتابية مثل التي خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم

وكان في مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب بقيمون على حدودها بين النهرين في العراق والجزيرة وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس وهم المناذرة في الحيرة • وكثيراً ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربي حتى ملوكهم فانهم لم يكونوا يستكفون من ذلك — حتي ان بهرام بن يزدجرد بن سابور نشأ بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعراً ^(٣) وكانوا يستخدمون العرب في دواوينهم للكتابة او الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز او اليمن او نجد وخصوصاً بعد ان دخلت

(١) المسعودي ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٣٧ ج ١

(٣) المسعودي ١١٣ ج ١

اليمين في حوزتهم على عهد كسرى انوشروان
 واشهر كتاب العرب في دواوين الفرس آل عدي بن زيد من المضربة وكان عدي^١
 وابوه وجدّه من مهرة الكتّاب على قلة من يحسن الكتابة من العرب في ذلك العهد وكانوا
 يخدمون الفرس في دواوينهم . فجدّه حمّاز بن زيد بن ايوب كان كاتباً عند النعمان في الحيرة
 وتقرب من الفرس وولد له زيد فأوصى به الى دهقان كان صديقاً له وهو من اهل
 الدولة قرباه الدهقان وعلمه الفارسية فنبغ في اللسانين فنقدم الدهقان الى كسرى ان
 يوليه البريد . ولم يكن ينال هذا المنصب الاّ ابناء المرازبة فنقدم زيد في الدولة حتى
 صار كسرى يستشير في مهامه . وولد لزيد ابنه عدي وتوقف وتعلم مثل ابناء الاساورة
 واثقن ألعاب الفرس على الخيل بالصوالجة فقرّبه كسرى وجعله كاتباً في ديوانه بالمداين
 وصار من اصحاب السطوة والكلمة النافذة وكسرى بأذن له مع الخاصة ويبعث به بالمهمات
 الكبرى الى ملك الروم وغيره واذا فسد العرب على الفرس وتمردوا توسط عدي في اصلاحهم
 واذا مات ملك العرب في الحيرة لا يولي كسرى من يخلفه الاّ بمشورة عدي . فشق ذلك
 على ملوك الحيرة حسداً منه لانهم يمنية وعدي مضري فوشى به بعضهم الى كسرى حتى
 قتل وتولى بعده ابنه زيد بن عدي في المكاتبة عن كسرى الى ملوك العرب في امورها
 وفي خواص امور الملك . وكانت لكسرى وظائف يؤدّيها اليه العرب كل عام فكان زيد
 يتولى ذلك وغيره^(١)

وجملة القول ان العرب كانوا يخدمون الفرس في ايام دولتهم قبل الاسلام كما خدم
 الفرس العرب في ايام دولتهم بعد الاسلام . على ان الفرس بلغ من ضخامة سلطانتهم وسعة
 ملكهم قبل الاسلام حتى كانوا يستمون انفسهم الاحرار والاسياد ويعدّون سائر الناس
 عبيداً لهم اي انهم اصابوا بما اصاب العرب بعد ذلك وبما يصاب به غيرهم من الامم التي
 تتوفى الى السيادة فيغلب عليها الغرور وتترفع عن سواها

فلما ظهر الاسلام وقامت دولة الخلفاء مقام دولة الاكسرة كان ذلك شديداً على
 الفرس وخصوصاً بعد ما لافوه من ضغط بني امية واحتقارهم فكانوا يبتغون فيجارهم
 الامويون ويبالغون في اهانهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالجانيق ويقتلون اهلها حتى
 افنوا اكثر البيوتات القديمة ووجوه الاساورة الذين كانوا يأتون الى اصطخر^(٢) فلا لوم
 عليهم بعد ذلك اذا نصروا اكل قائم على الدولة الاموية . على انهم لم يفوزوا الاّ بطلبها

للعباسيين كما رأيت وكانوا يعدّون ذلك فوزاً لأنفسهم تحلّصاً من عصبية العرب عليهم وطعماً في الرجوع الى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة

استخدام الموالي الفرس

فلما قبض العباسيون على ازمة الملك جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم في العراق فأقاموا أولاً في الكوفة ثم في الهاشمية حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة . وقربوا الموالي الفرس وخصوصاً اهل خراسان فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ولاسيما الذين حاربوا مع ابي مسلم في طلب الخلافة لهم . واشهرهم خالد بن برمك جدّ الوزراء البرامكة فانه كان من قواد جند ابي مسلم وشهد معه الوقائع وابلى بلاءً حسناً في نصرة اهل البيت وكان ابوه برمك من مجوس بلخ وكان يخدم بيتاً من بيوت النار هناك اسمه النوبهار اشتهر هو وبنوه بسدائنه وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس . فاسلم خالد ودخل في جند ابي مسلم وكان عاقلاً حازماً فلم يجعل للعباسيين معالاً للشك في صداقته كما فعل ابو مسلم . فقدمه ابو العباس وولاه الوزارة ثم تولاه للمنصور وخدمه بعد مقتل ابي مسلم في محاربة الاكراد وكانوا قد تغلبوا على فارس^(١) وتوالت الوزارة في اعقابهِ الى يحيى ابنه نجعفر ابن ابنه وهو الذي نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكره

وكذلك فعل العباسيون في استخدام الموالي في مهماتهم . واول من استخدمهم لذلك المنصور فانه استعمل مواليه وغلثانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب فاقتدى به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب كما سيجيء . ولما حضرته الوفاة اوصى بثلاث ماله لمواليه^(٢) واوصى باكرامهم . ومن اقواله في وصيته لابنه المهدي « وانظر الى مواليك فاحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدتك ان نزلت بك . . . واوصيك باهل خراسان فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم ودماءهم في دولتك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ان تحسن اليهم وتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم عما كان منهم وتختلف من مات منهم في اهله وولده »^(٣)

ولا غرو اذا اكرم العباسيون اهل خراسان بعد ان آثروهم على اهلهم وابنائهم وقتلوا من خلفهم . ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لاول وهلة فكانوا اذا جاؤا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويمحيئون ويدخلون على الخليفة كأنهم من اهله والعرب يقفون

(١) ابن خلكان ١٠٦ ج ١ (٢) الفخري ٢١٠

(٣) ابن الاثير ٧ ج ٦

ببابه لا يؤذن لهم إلا بمشقة — ذكروا ان ابا نخيلة الشاعر العربي وفد على ابي جعفر المنصور ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له وهو يرى الخراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به فيرون شيئاً اعرابياً جلفاً فيعشون به فسأله صديق له رآه في تلك الحال « كيف ترى ما انت فيه من هذه الدولة » فقال :

اكثر خلق الله بي لا يدري من اي خلق الله حين يلقي
وحلة تشتر ثم تطوى وطيلسان يشتري فيغلي
لعبد عبداً او لمولى مولى يا ويح بيت المال ماذا يلقي^(١)

وكان المهدي بن المنصور اذا اراد الشورى جمع خاصته للداولة واول من يتكلم منهم الموالي^(٢) وقس على ذلك في سائر الاحوال . فاصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالي الفرس وهم نظموا الحكومة ودواوبنها ورتبوا احوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب كانوا دولتهم لان الغالب في هذه المناصب ان تنتقل من الرجل الى بعض اولاده مثل منصب الخلافة فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة والولاية كآل برمك وآل وهب وآل فحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم

وكانت امور الدولة ترجع الى الوزراء يولون ويعزلون واذا تولوها احدهم ولى الاعمال رجالاً من اصحاب او مربيه . فتغيرت الاحوال على اهل البلاد واطمانت خواطرهم وتفرغوا للعمل في التجارة او الصناعة او الزراعة ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بني امية واستبدادهم واطلقت حرية العمل وحرية الدين وذهبت عصبية العرب ورتع الناس في مجبوحة الامن

ولما استبد الانراك في الدولة وضعت شوكة الفرس بعد المأمون كما سيأتي ظلاً الموالي من اصحاب النفوذ في دولة الخلفاء يعتمد عليهم الخليفة في اموره الخاصة والعامة من الكتابة الى القيادة ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص ولكنهم اصبحوا اخلاطاً منهم ومن سواهم وانما تجمعهم كلمة الموالي ويتفانون في خدمة الخليفة او الامير



اهل الذمة في الدولة العباسية

لما اخذ الموالي الفرس في تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها احسوا بانفقارهم الى من يعينهم على ذلك من اهل الذمة في العراق والشام وكانوا اهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلاً عن العلوم فاطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم اسباب المعيشة وقربوهم واكرمهم . فاطمانوا لتلك الدولة وثقظوا الى بغداد وخدموا العباسيين بعقولهم واقلادهم بما آتسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم وولولهم خزائنهام وضياعهم

فالحلابة (الصيارف) اكثرهم من اليهود . والكتاب فيهم جماعة كبيرة من النصارى . وكثيراً ما كان النصارى ينقلدون ديوان الجيش وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان وهو نصراني حتى يتسابق اكابر رجال الدولة من المسلمين الى ثقبيل يده . ومن ثقلد ديوان الجيش من النصارى في الدولة العباسية ملك بن الوليد قلده اياه المعتضد بالله واسرائيل النصراني قلده اياه الناصر لدين الله . وقد ادرك بعضهم رتبة الوزارة فنقلد خلافتها ابو العلاء صاعد بن ثابت في ايام المني بالله ^(١)

وسرى ذلك الاعتدال والتساع في الدين الى الدولة الفاطمية بمصر وكان لاهل الذمة فيها شأن عظيم فنقلد الوزارة او الكتابة (وهي كالوزارة في مصر) غير واحد منهم وقويت شوكتهم في الدولة فاستوزر العزيز بالله الفاطمي رجلاً نصرانياً اسمه عيسى بن نسطوروس وآخر يهودياً اسمه منشا فعز النصارى واليهود في ايامها ^(٢) ومن نافذي الكلة في الدولة الفاطمية من اهل الذمة فهد بن ابراهيم النصراني كاتب برجوان صاحب النفوذ الاعظم في ايام الحاكم بامر الله . فكان فهد هذا يوقع عن برجوان ويخاطب بالرئيس وله نفوذ عظيم وارتفع شأن النصارى في ايامه حتى كادت الدولة تكون في ايديهم ^(٣) على ان الكتبايين (اهل الذمة) كانوا في ايام الحاكم هم اهل الدولة وكذلك في ايام الحافظ ^(٤) وكتاب الجيش في اكثر الاحيان من اليهود

ناهيك بمن كان الخلفاء والامراء يستخدمونهم من اطباء اهل الذمة وحكائهم وتراجتهم وكتابهم وخصوصاً نصارى الشام فانهم خدموا التمدن الاسلامي في نقل العلوم

(١) تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٣٢ ج ٩

والسيوطي ١٧ ج ٢ (٣) المقرئ ٤ و٣١ ج ٢ (٤) المقرئ ٤٠٦ ج ١

من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب وبينما ما كان من محاسنة الخلفاء لهم وتقديعهم ورعاية جانبهم واكرامهم وفيهم النصراني واليهودي والمجوسي والسامري والصابي وغيرهم والكل راتعون في بحبوحة السكينة والطمانينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والامراء

وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الاساقفة ويجالسونهم • فالهادي كان يستدعي اليه الاسقف تيموثاوس في اكثر الايام ويحاوره في الدين ويبحث معه وينظره • ويطرح عليه كثيراً من المشكلات وله معه مباحث طويلة ضمنها كتاباً الفه الاسقف المذكور في هذا الموضوع وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد^(١) وغيره واغضوا عن بعض ما في عهد عمر بن الخطاب من التضييق على النصراني كمنعهم من احداث الكنائس^(٢) او الاحتفال بالاعادياد ومنعهم من خدمة الدولة وسهلوا لهم الاختلاط بهم واطهروا احترام مذهبهم حتى اصبح النصراني يهدون الخلفاء أقنونات بعض القديسين فيقبلونها منهم اضهاد اهل الذمة في العصر العباسي

على ان ذلك لم يمنع تضييق بعض الخلفاء على النصراني بمقتضى عهد عمر وهدم كنائسهم — فان الملوك المستبدين تختلف سياستهم باختلاف اخلاقهم واطوارهم فقد يترأى لبعضهم التضييق على النصراني لسبب او لغير سبب كما فعل هرون الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس • فالمتوكل المتوفى سنة ٢٤٧ هـ كان شديد الوطأة على النصراني ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم لانه امر بهدم الكنائس المحدثه بعد الاسلام ونهى ان يستعان بهم في الاعمال او ان يظهروا الصلبان في شعائهم وامر ان يجعل على ابوابهم صور شياطين من الخشب وان يلبسوا الطبايسة العسليه ويشدوا الزنار ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج وان يرقعوا لباس رجالهم برقعين تحالفان لون الثوب قدر كل واحدة اربع اصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ومن خرج من نسائهم تلبس آزاراً عسلياً ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك^(٣)

ولا يستغرب هذا التضييق من المتوكل فانه نعم مثل هذه النعمة على سائر اهل الدولة وغيرهم وشدد التكبر على الشيعة واهلك العلماء والكتباء • وكان شديد التعصب على الشيعة

(١) تاريخ المشارقة (خط) ١٤٣ (٢) المقرئ ٥١١ جزء ٢

(٣) ابن خلدون ٢٧٥ ج ٣ وابن الاثير ٢٠ ج ٧ والمقرئ ٤٩٤ ج ٢

فاضطهدهم وعذبهم ولاقي اهل الذمة منه الشدائد^(١) على انه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه فقد حمله عليه انتصار النصارى لاعداء الدولة - وذلك ان اهل حص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فاعانهم البصري عليه فكتب العامل الى المتوكل فامره باخراج النصارى وهدم كنائسهم وكان هذا من اسباب نفعته عليهم^(٢) ويقال نحو ذلك في ما صدر في ايام الرشيد من الاوامر بهدم الكنائس في الثغور وأخذ اهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم^(٣) - فعل الرشيد ذلك على اثر رجوعه من حرب الروم في هرقة فالظاهر ان نصارى الثغور (الحدود بين مملكة الروم ومملكة الاسلام) ساعدوا ابناء طائفتهم الروم في تجسس احوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية فامر الرشيد بالتضييق عليهم انتقاماً منهم وخصص امره هذا باهل الثغور على الحدود وشد على الخصوص في مخالفتهم هيئة المسلمين في لباسهم دفعاً لنتكرهم وتجسس احوال المسلمين - والا فالرشيد من احسن خلفاء بني العباس عدلاً ورفقاً باهل الذمة وكان احد عمال أخيه الهادي قد هدم بعض الكنائس بمصر فلما افضت الخلافة اليه امر باعادة بنيانها^(٤)

وهكذا يقال في اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم . واقدم ما قاسوه من تضييق الحكم في طقوسهم وكنائسهم في ايام الحاكم بامر الله سنة ٣٩٥ هـ وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى في مصالح الدولة في ايامه حتى صاروا كالوزراء وتعاضوا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فتزايدت مكابدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم فغضب الحاكم بامر الله - وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون . فامر بقتل هذين الرجلين وشد على النصارى فامرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ومنعهم من عمل الشعائين والتظاهر بما كانت عاداتهم فيه وقبض على ما في الكنائس وادخله في الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم وأجبرهم على الاسلام وغير ذلك من التشديد والعنف^(٥) مما لم يقاس النصارى مثله من قبل ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ابان التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن به لان مرتكبه اتاه عن حمق او جنون

(١) تاريخ المشارقة (خط ١٤٦) (٢) ابن الاثير ٢٩ ج ٧

(٣) ابن الاثير ٨٢ ج ٦ (٤) المقرئ ٥١١ ج ٢

(٥) المقرئ ٤٩٥ ج ٢

وقد سوَّغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حربٌ كانت بين الروم والمسلمين يومئذٍ فأخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الدين بعد الحاكم عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية وان يعاد بناء كنيسة القيامة وان يؤذن لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء فرجع اليها كثيرون ^(١)

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً فعظمه تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل . على انه كثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم اموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح كاصداره المذشورات بمنعهم من اكل الملوخيا او من البقلة المسماة بالجرجير او منعهم من عمل الفقاع ومنع النساء من التبرج او المسير في الطرق والامر بسب السلف ولعنهم ونقش ذلك على المساجد وابواب الحوانيت وعلى المقابر ونحو ذلك من الاوامر التي تدل على اختلال في عقله . على اننا قلنا نراه اتى امراً الا لسبب وان كان ضعيفاً — فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلاً ان معاوية بن ابي سفيان عدو الشيعة كان يحبها والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة ام المؤمنين ومنعهم من اكل المتوكية لانها تنسب الى المتوكل وهو من اعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان علي بن ابي طالب كان يكرهه ^(٢) وقس على ذلك سائر ضروب الخفاقة والغرابة ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على انه عاد لسبب طفيف او بلا سبب فأمر ببناء تلك الكنائس ^(٣) وخير النصارى في الرجوع الى دينهم فارتد كثير منهم — وقد تقدم ان ذلك كان في ايام ابنه الظاهر . ومن اعماله الغريبة انه ابنتى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايع ثم قتلهم واخربها وزم الناس باغلاق الاسواق نهراً وفتحها ليلاً فظل الناس على ذلك دهوراً طويلاً ^(٤) فمن كانت هذه اعماله لا يستغرب منه اضطهاد ولا يعد اضطهاداً عاراً على الدولة او الامة

على ان افضح ما فاساه النصارى واليهود من الاضطهاد انما كان في دور الانحطاط او التقهقر في الاجيال الاسلامية الوسطى وخصوصاً بعد الحروب الصليبية لانها كانت سبباً

(١) المقرئ ٣٥٥ ج ١ (٢) المقرئ ٣٤١ ج ٢

(٣) ابن الاثير ١٦ ج ٩ (٤) السيوطي ١٧ ج ٢

كبيراً في اثاره التعصب بين الامتين . فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكمهم لدينهم وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الافرنج سرّاً فبالغ امراء المسلمين في الفتك بهم . فنصارى «قارا» مثلاً بين دمشق وحمص كانوا يسرقون المسلمين في اثناء تلك الحرب ويبيعونهم خفية من الافرنج فلما مرّ بها السلطان الملك الظاهر في اثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ امر بنهب اهلها وقتل كبارهم واتخذ صبيانهم ممالك فتربوا بين الاتراك في الديار المصرية فصار منهم اجناد وامراء^(١) كما فعل العثمانيون لتجديد الانكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين واهل الذمة في بلادهم حتى اصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في اذى الاخرى ولما كانت الحكومة اسلامية فالنصارى هم المغلوبون . فاذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود باحراقها فتامر الحكومة باحراقهم او احراق كنائسهم^(٢) وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة لان الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة او اشد منها . وكثيراً ما كانوا يهددون امرى المسلمين بالقتل او بتنصروا^(٣) واذا دخلوا بلاداً اسلامياً بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع^(٤) ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود واهل الدجن ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم^(٥)

تعصب العامة على النصارى

قلنا ان الخلفاء والامراء قدموا النصارى في مصالح الدولة واغدقوا عليهم الاموال واكرمهم ورفعوا منزلتهم وانهم فعلوا ذلك لاحتياجهم اليهم في ابان ذلك التمدن لنقل العلوم او الطبابة او الحساب او الكتابة او غيرها مما تحتاج اليه الدولة في تنظيم شؤونها لاشتغال المسلمين يومئذ بالرئاسة . وكان اولو الامر من الجهة الاخرى يقدمون المسلمين في المعاملات الرسمية على سواهم من اهل الذمة كما كان الامويون يقدمون العرب على غير العرب فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين وعامة المسيحيين . وذلك طبيعي في كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان او طائفتان ولا يزال ذلك جارياً على نحو هذا الشكل الى يومنا هذا

(١) ابو الفداء ٤ ج ٤ (٢) المقرئ ٨ ج ٢ وابو الفداء ١١٧ ج ٤

وسراج الملوك ١٨٩ (٣) ابن الاثير ٢٩ ج ٧ (٤) ابن الاثير ٦٢ ج ٨

(٥) نفع الطيب ١٢٦٦ ج ٢

نشأ هذا التحاسد أولاً بين العامة ونحوهم من اهل المهن العلمية او الحرف الصناعية الذين يحومون حول الخلفاء والامراء للارتفاق بما يعوزهم من اسباب المدينة او يرضيهم من عوامل الرخاء والترفع كالشعر والغناء والكتابة والحساب وغيرها . واما اهل الطبقة العليا (الشرفاء) والاغنياء ورجال الدولة فقلما كانوا يتعصبون او يتباغضون وانما كانوا ينظرون الى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم فالشريف الرضي الذي كتب الى الخليفة القادر بالله :

عطفاً امير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ابد اكلانا في المعالي معرق
الآ الخلافه ميزتك فاني انا عاقل منها وانت مطوق

رثى ابا اسحق الصابي بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

ارابت من حملوا على الاعواد ارابت كيف خبا ضياء النادي
فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة فعابه بعضهم لكونه شريفاً يرثي صائباً فقال له « انما رثيت فضله »^(١)

واما العامة ومن جرى مجراهم او استعان بهم على بعض المصالح او المناصب فكانوا يظهرون التعصب على النصارى ويسعون في اذيتهم لدى ولاية الامور فاذا كان صاحب الامر حازماً لا يصغي للوشاية — ذكروا ان رجلاً نصرانياً من اهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤ هـ انه شتم النبي فاجتمع اهل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد بالله بومئذ وطالبوه باقامة الحد عليه وكأنه اعتقد براءة الرجل فلم يجب طلبهم^(٢) واتصل الامر بالخليفة وكان له شأن كبير . والحكم صاحب الاندلس في اوائل القرن الثالث للهجرة صلب احد عماله لانه ظلم ابناء اهل الذمة^(٣)

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة اخذ هذا التعصب يسري من العامة الى الخاصة لرغبة الناس بومئذ في التقرب من رجال الدولة بالتزلف والتملق التماساً للكسب فينتحلون الاسباب المساعدة على ذلك ويتسابقون الى دس الدسائس واخلاق الوشايات . واسهل وسائل التزلف في الدولة الاسلامية التدين لاشتراك الدين والسياسة في مصالحهما فكان بعضهم يستعينون في اظهار التدين والغيرة على الاسلام بالطعن في الادبيات الاخرى فاذا كان

(١) ابن خلكان ١٣ ج ١ و ٢ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٩٢ ج ٧

(٣) ابن الاثير ١٥٧ ج ٦

صاحب الامر ضعيفاً انظلي عليه ذلك واضطهد اهل تارك الاديان . ولذلك كان التعصب على اهل الذمة ولا سيما النصارى يتقدم بتقديم الدولة الاسلامية نحو الشيوخة . وقد اشد في الاجيال الاسلامية الوسطى على اثر الحروب الصليبية فأصبح الحكم وارباب المناصب العلمية وغيرها يجاهرون باحتقار غير المسلمين و يبالغون في اضطهادهم ويعاملونهم معاملة الاعداء . وتمكنت العداوة بين الفئتين وكل منهما يحاول اذية الآخر حتى اصبح النصارى يودون التخلص من دولتهم باية وسيلة كانت فلما جاء التتر لفتح بغداد سنة ٦٥٦ هـ كان هوى اهل الذمة معهم . وتعاضل هذا التباغض على الخصوص قبيل النهضة الاخيرة اي منذ قرن وبعض القرن حتى في المعاملات الرسمية ولا سيما في البلاد البعيدة عن المدينة — فقد اطاعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف في ديار بكر بدفن رجل مسيحي توفي فيها ننشرها لغرامة عبارتها وهي :

« من جانب الشرع الشريف في ديار بكر

» الى مطران طائفة كفر السريان ابها المنكروه بالنظر والمعتقد ان يعقوب الكافر من طائفتكم المنكروهه حيث ان الملعون قد فطس وهلك فلاجل ادخال جثته الكريمة ضمن الارض قد صدر الاسترحام من مرشد نعلته وجري اخذ الخراج وان تكن الارض لا تقبل جثته الخبيثة فلكي لا تكون سبباً لفساد الهواء قد اعطيناه الرخصة بعنوان الشرع الشريف ان تدفن ضمن مدينتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم اقضي اعطا هذه الرخصة لكي لا يكون مانع من طرف احد في ٢٦ جمادي الاولى سنة ١٢٠٣ » انتهى

فأي مسلم او مسيحي من اهل هذا العصر يطلع على هذا ولا ينكره او يستغربه ولولا ثقتنا بصدق الناقل لا نكرناه نحن ايضاً . وقد هوّن علينا تصديقه ان صديقاً آخر مقيماً في القاهرة اكد لنا وجود رخص كثيرة في بعض البطركخانات بمصر في مثل هذه العبارة . وقد اخذ هذا التعصب في الزوال من بدء هذه النهضة ومتى نصجحت نرجو ان يزول تماماً باذن الله

تحاسد النصارى

على انك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الاذى في ابان التمدن الاسلامي لرأيت سببه في كثير من الاحوال وشاية بعض طوائف النصرانية ببعض الآخر كالنساطرة واليعاقبة في العراق . وكثيراً ما كان اهل النفوذ من النصارى انفسهم اشد وطأة على اهل دينهم من حكامهم المسلمين كما كان عيسى بن شهلا الطيب لما تولى الطبابة

ونال منصباً في دار الخلافة فانغم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والاساقفة يأخذ اموالهم لنفسه حتى انه كتب الى مطران نصيين كتاباً باتمس منه فيه من آلات البيعة اشياء عظيمة المقدار ويهدده ومن اقواله له « الست تعلم ان امر الملك بيدي ان شئت امرضته وان شئت عافيته » فبعث المطران بالكتاب الى الربيع حاجب الخليفة فانتمم الخليفة منه

واعتر ما اجراه بختيشوع بن جبرائيل الطيب مع حنين بن اسحق المترجم الشهر لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل فحسده عليها وعمل على الكيد به من طريق الدين وذلك انه اسطاع ايقونة (صورة) للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المسيح • وأوعز الى بعض خاصته ان يحملها هدية الى الخليفة في وقت عينه له وذهب الى مجلس الخليفة في الميعاد المضروب وكان هو المستقبل للايقونة • من يد الخادم والحامل لها وهو الذي وضعها بين يدي المتوكل فاستحسنها المتوكل جداً وجعل بختيشوع بقبائها بين يديه مراراً كثيرة فقال له المتوكل « لم تقبها » فقال له « يا مولانا اذا لم اقبل صورة سيدة العالمين فلمن اقبل » فقال له المتوكل « وكل النصارى يفعلون كذلك » فقال « نعم يا أمير المؤمنين وافضل مني لانني أنا قصرت حيث انا بين يديك • ومع تفضيلنا معشر النصارى فاني اعرف رجلاً في خدمتك وافضالك وأرزاك جارية عليه من النصارى يهاون بها ويبصق عليها وهو زنديق ملحد لا يقرّ بالوحدانية ولا يعرف آخره يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسل » فقال له المتوكل « من هذا الذي هذه صفته » فقال له « حنين المترجم » فقال المتوكل « اوجه احضره فان كان الامر على ما وصفت نكلت به وخلدته في المطبق مع ما اتقدم به في امره من التضيق عليه وتجديد العذاب » فقال « انا أحب ان يؤخر مولاي أمير المؤمنين امره الى ان أخرج وأقيم ساعة ثم تأمر باحضاره » فقال « اني أفعل ذلك » وخرج بختيشوع تَوّاً الى حنين واخبره • ان الخليفة اهديت اليه ايقونة كذا وقد استحسنها وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه احتقرنا وقال لنا هذا ربكم وأمه مصوران وقد سألني أمير المؤمنين عن رأيي فيها فقلت له مثلها يكون في الحمامات والكنائس وغيرها مما لا نبالي به فطلب اليّ ان ابصق عليها فصقت فاذا دعا بك افضل مثل فلي » فصدقه حنين ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع فلما ابصق على الايقونة امر الخليفة بحبسه ووجه الى ثيودوسيوس الجائليق يومئذ فاحضره فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبلها ولم يزل يقبها وبسكي طويلاً ثم أخذها يده

وقام قائماً فدعا لامير المؤمنين واطنّب في دعائه فدعاه الى الجلوس والايقونة في حجره فطلب الخائلي اليه ان يتركها له ثم سأله الخليفة عما يستحق الذي يبصق عليها فقال « اذا كان مسيحياً عارفاً فاني احرمه دخول الكنيسة ومن القربان وامنع النصارى من ملابسته وكلامه واضيق عليه » فاعطى الخليفة الايقونة للخائلي مع جائزة وامر بخين فجلد بالسياط والحبال وامر بنقض منازل وحجسه ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فافرج عنه ^(١)

صرية الدين

فاذا كان هذا فعل المتوكل في هذه الحال وهو كما وصفناه من شدة وطأته على النصارى وغيرهم من اهل الذمة فكيف في غيره من الخلفاء المعتدلين . وقد رأيت من حديث حين هذا ان الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق الدين في انصرانية فضلاً عن اعفائهم من الاسلام الاّ من أراد به اختياره . وكانوا ايضاً يشاركون النصارى في احتفالاتهم بالاعياد الكبرى كالميلاد والشعائين ويخرجون معهم الى اماكن الزهة كأنهم أمة واحدة ^(٢) ولم يكن ذلك قاصراً على العراق والشام فان المصريين كانوا يحتفلون باعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى انفسهم وكان الخليفة يفرق في الناس الهدايا في عيد الميلاد والغطاس ويفرح المصريون جميعهم معاً ^(٣) وكانت الحكومة اذا أنشأت معهداً خيراً كان حظ اهل الذمة منه مثل حظ المسلمين وخصوصاً المستشفيات ودور المرضى فانها كانت تبني لمعالجة المسلم والذمي فاذا لم يكن فيها ما يكفي الاثنين قدموا المسلم ^(٤)

على ان المسلمين في ابان تمدنهم اطلقوا حرية الدين لرعاياهم على اختلاف طوائفهم ونخلهم فلم يسمع انهم اكرهوا طائفة من الطوائف على الاسلام تعصباً للدين حتى في ايام بني امية مع ضغطهم على غير العرب في طلب المال فقد رأيت ما كان من خالد القسري وغيره . واما بنو العباس فكانوا اقرب الى الاعتدال وحرية الدين ولذلك تعددت البدع الدينية في ايامهم من المجوس وغيرهم . ناهيك بالفرق الاسلامية وتعدادها . وكان

(١) طبقات الاطباء ١٩٤ ج ١ (٢) ابن الاثير ١١٣ ج ٨ والفرج ١٥٦ ج ٢

(٣) المقرزي ٤٩٤ ج ١ (٤) طبقات الاطباء ٢٢١ ج ١

أكثر الخلفاء تسامحاً في الدين المأمون فكان هو نفسه شيعياً وكان وزيره يحيى بن اكرم سنياً ووزيره احمد بن ابي دواد معتزلياً^(١) يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن — واول من قال بذلك رجل يهودي اسمه لييد الاعصم الذي يقال انه سحر النبي . فكان لييد يقول ان التوراة مخلوقة ثم قال بخلق القرآن وعنه اخذ طالوت ابن اخته واخذه ابان بن سميان عن طالوت واخذه الجعد بن درهم عن ابان في ايام هشام بن عبد الملك الاموي وظهر مقالته في خلق القرآن وانكار ما فيه وان فصاحته لا تعجز الناس بل بقدرهم على مثلها واحسن منها^(٢) فغضب عليه هشام وبعث به الى خالد القسري امير العرافين وامره بقتله فحبسه ولم يقتله فالح عليه فاخرجه يوم الاضحى وبعد ان صلى قال « اريد ان اضحي اليوم بالجعد بن درهم فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خيلاً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم ذبحه^(٣) . ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد^(٤) حتى اذا تولى المأمون فنصر المعتزلة — ولعله اخذ الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه — وتبعه الواثق بالله فقال مثل قوله فعظم ذلك على عامة المسلمين وانكروه وسموا الواثق كافراً^(٥) كما سمو المأمون امير الكافرين^(٦) وكان ما كان من المحنة في ذلك ايام المتوكل . وانقسم المسلمون الى حزبين والخلفاء ضد المعتزلة وقد شددوا التكبير على القائلين بخلق القرآن وتناشدت الشعراء ذلك طعنًا فيهم وتكفيرًا لهم كقول ابي خلف المعافري :

لا والذي رفع السما ء بلا عهاد للنظر
ما قال خلق في القرا ن بخلقه الا كفر
لكن كلام منزل من عند خلاق البشر^(٧)

وبالجملة فقد كانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية في تلك العصور لا يكره الرجل على معنقه او مذهبه فربما اجتمع عدة اخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب . فأولاد ابي الجعد ستة كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئان واثنان خارجيان^(٨) فسياسة الدولة العباسية في معاملة الرعايا من المسلمين واهل الذمة انما هي المحاسنة

(١) ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢ (٢) المقرئ ٣٤٦ ج ٢

(٣) ابن الاثير ١٢٣ ج ٥ و ٢٨ ج ٧ (٤) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٥

(٥) ابن الاثير ٨ ج ٧ (٦) ابن الاثير ١٣١ ج ٦

(٧) نفع الطيب ١٥٨ ج ٣ (٨) المعارف ١٥٦

والعدل والرفق . وقد اتينا بأمثلة من عدل الخلفاء الاولين من بني العباس ورفقهم في الجزاء الثاني من هذا الكتاب^(١) وكانوا يحاسبون الفرس وسائر اهل النفوذ من الموالي على الخصوص ولا سيما بعد ان صارت الحكومة اليهم وقبضوا على جندها وما لها فكان الخلفاء يقدمونهم ويكرمونها ويطلقون ايديهم في شؤون الدولة — فاذا داخلهم شك في اخلاصهم ولو على سبيل الوشاية فتكوا بهم فتكاً ذريعاً كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسي الاول

العصية العربية في العصر العباسي

سياسة التقسيم

على ان المنصور كان همه منصرفاً الى العرب لانهم اهل عصبية اذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة وفعلوا ما ارادوه لما يعلمه من جرأتهم في طلب الحق وتقييح الظلم جهاراً ولا يحملون ضيماً وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من القدر والفتك مما لا تصبر عليه النفوس الاية . وقد زاده حذراً منهم ما كان يسمعه من اقوالهم الدالة على اباة الضيم ولو كان فيه ما يسوءه كما اتفق له وهو في بعض حجانه وكان يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع قائلاً يقول « اللهم اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع » فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله فطلب ان يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه فقال له « ان الذي حال بين الحق واهله هو انت يا امير المؤمنين » فقال المنصور « ويحك وكيف يدخلي الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي » فقال الرجل « لان الله تعالى استرعاك المسلمين واموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والاجر وابواباً من الحديد وحجاباً معهم الاسلحة وامرتهم ان لا يدخل عليك الا فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والمهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير وما احد الا وله من هذا المال حق^٢ الخ »

فهذا وامثاله نبه المنصور لجرأة العرب فجعل يفكر في اذلالهم ويستنبط له الحيل وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على انسابهم ومراتبهم وفيهم البنية والمضربة . فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين والخواارج وغيرهم وقد بنى بغداد وحصنها وانشأ فيها منازل الجند نظر الى من حوله منهم على الاجمال فاذا هم ثلاث فرق كبرى البنية

والمضرية والخراسانية فاتفق سنة ١٥١ هـ ان بعض الجند شغبوا عليهم وحاربوه على باب الذهب وهو قصره في بغداد فاجس خيفة من تكرار ذلك لعله ان دولته انما قامت بالجند فاذا اجتمعوا عليه اخرجوها من بده . وهو يعلم ايضاً ان لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة العلويين او غيرهم فليس اهون عليهم من ردها الى دولة جديدة

وكان كبير بني العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس وهو شيخهم وله الحرمة والقدم عندهم فاستشاره المنصور في ذلك قائلاً « اما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا وقد خفت ان تجتمع كلمة هؤلاء فيخرج هذا الامر من ايدينا فما ترى ؟ » قال « يا امير المؤمنين عندي رأي ان اظهرته لك فسد وان تركته امضته وصحت خلافتك وهابك جندك » قال له « اقمضي في خلافتي شيئاً لا اعلمه ؟ » قال له « ان كنت عندك متبهاً فلا تشاورني فان كنت ماموناً عليها فدعني افعل رأيي » فقال له المنصور « فامضه » فانصرف قثم الى منزله فدعا غلاماً له فقال « اذا كان الغد فاقدمني واجلس في دار امير المؤمنين فاذا رأيته قد دخلت وتوسطت اصحاب المراتب فانمض وخذ بعنان بغلتي واستخلفني بحق رسول الله وبحق العباس وبحق امير المؤمنين الا ما وقفت لك وسمعت مسألتك واجبتك عنها فاني سأنتهرك عند ذلك واغظ لك فلا تخف وعاود المسألة فاني سأضربك فعاود وقل لي اي الحين اشرف اليمين ام مضر فاذا اجبتك فاترك البغلة وانت حر » ففعل الغلام كما امره وفعل قثم به ما قاله الى ان قال « مضر اشرف لان منها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفيها كتاب الله وفيها بيت الله ومنها خليفة الله » فامتعضت اليمين من قوله لانه لم يذكر لهم شيئاً وقال بعض قوادهم « ليس الامر كذلك مطلقاً بغير فضيلة لليمن » ثم قال لغلام له قم الى بغلة الشيخ فاكبحها ففعل حتى كاد يعقبها فامتعضت مضر وقالوا « يفعل هذا بشيخنا » فامر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها فنفر الحيان ودخل قثم على المنصور . وافترق الجند العربي من ذلك الحين فصارت مضر فرقة واليمين فرقة والخراسانية فرقة وقال قثم للمنصور « قد فرقت بين جندك وجعلتهم احزاباً كل حزب منهم يخاف ان يحدث حدثاً تقضيه بالآخر »^(١)

وكان المهدي بن المنصور قد جاء من خراسان فقدم عليه اهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها فهاؤه بمقدمه فاجازهم وكساهم وفعل المنصور بهم مثل ذلك فقال قثم

للمنصور « وقد بقي عليك بالتدبير بقية وعي ان تعبر بأبنك (المهدي) فتنزله في ذلك الجانب من بغداد وتحول معه قطعة من جيشك فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً فان فسد عليك اولئك ضربتهم بهؤلاء وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم باولئك وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الاخرى » فقبل رأيه واستقام ملكه وبني المهدي بلداً سماه الرصافة — فاستعان المهدي في استبقاء دولته بسياسة التقسيم

وما زال شأن العرب يضمف في الدولة العباسية تدريجياً وحزب الفرس بقوى حتي أصبحت الدولة في أيام الرشيد بين عاملين كبيرين احدهما فارسي والاخر عربي كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة . وكانت بطانة الخليفة ايضاً حزبين احدهما ينتمي الى الفرس والاخر الى العرب مرجعها الى ابني الرشيد الامين والمأمون لان الاول امه عربية هاشمية (زبيدة) وام الثاني أمة فارسية يقال ان الرشيد اشتراها لتلد له لان امرأته زبيدة أبطأت في الحمل فولدت له عبد الله المأمون ثم حملت زبيدة فولدت محمداً الامين^(١) فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذي وقع بين سارة وهاجر امرأتين في ابراهيم الخليل . وسرى هذا التحاسد في البطانة ومنه الى سائر رجال الدولة وهوى بني هاشم وسائر العرب مع الامين وهوى سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون . وكان زعيم الحزب العربي آل الربيع بن يونس

والربيع يتصل نسبه بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان فجدّه مولى مولى . ودخل الربيع في جملة موالي المنصور فولاه حجابته ثم جعله وزيره وكان المنصور شديد الميل اليه حسن الاعتماد عليه فسأله يوماً عما يتمناه منه فقال « ان تحب ابني الفضل » فقال المنصور « كيف اخترت له المحبة دون كل شيء » فقال « لانك اذا احببته كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته » ومات الربيع في أيام الهادي سنة ١٧٠ هـ ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة اسقط في يد الفضل بن الربيع خروج الوزارة من يده فرام التشبه بهم ومعارضتهم ولم يكن له من القدرة ما يدرك به الخاق بهم فكان في نفسه منهم إحن وشحناء فسعى بهم عند الرشيد وكان سعيه من جملة اسباب نكبتهم

ذهاب عصبة العرب بذهاب دولة الامين

وكان المأمون فضلاً عن نسبه الفارسي من امه قدرني في حجر جعفر بن يحيى البرمكي وهو الذي سعى له في ولاية العهد^(٢) ورباه على حب الفرس والفضل بن الربيع

سعى في تأييد بيعة الامين ولما توفي الرشيد بعد مقتل البرامكة كان الفضل بن الربيع هو الذي حمل الامين على نقض بيعة المأمون^(١) واختلف الاخوان على البيعة وكان المأمون عند اخواله بخراسان والامين في اهله ببغداد وانتشب القتال بين الفريقين — وهو قتال بين الفرس والعرب لان العرب في معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الامين^(٢) . وقد نصر الخراسانيون ابن اختهم المأمون بتدبير الفضل بن سهل . وكان الامين يجرى جنده في بغداد بمشورة الفضل بن الربيع . وكان العرب من الجند العباسي قد انهكهم الحضارة والترف وتبددوا بسياسة التقسيم فلم يستطيعوا دفاعاً . فلما ضاق الحال بالامين ولم يبق عنده مال لتجنيد استنجد رعا اهل بغداد وفيهم العيارون والشارط وكانوا طوائف كبيرة . وامر بعض قواده ان يتبعوا اصحاب الاموال والودائع والذخائر من اهل الملة وغيرهم فلم يزدده ذلك الا ضعفاً . وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون وسيأتي تفصيل ذلك . فاخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها الى المأمون كما اخرجوها قبلاً من بني امية وسلموها الى اجداده

فاستغل امر الفرس في ايام المأمون وازداد العرب ضعفاً حتى كثيراً ما كانوا يتعرضون له في الشوارع يشكون اغضاه عنهم ومن اقوالهم « يا امير المؤمنين انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان »^(٣)

فلما افضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد جمع ما جمعه من الاتراك والفراغة كانت الضربة القاضية على العرب في الدولة العباسية لانه كتب الى عماله في الاطراف باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ففعلوا وهم يستعينون بالله من ذلك وانحط شأن العرب من ذلك الحين^(٤) ومنعوا من الولايات . واخر من ولي مصر منهم عنبسة بن اسحق صرف عنها سنة ٢٤٢ هـ^(٥) فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم في نزعها من العرب على الاطلاق فقام مرداويج في اصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد ان يأخذ بغداد وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب^(٦) فلم يفلح على ان النفوذ تحول بالتدريج الى والخدم كما سترى

(١) ابن الاثير ٨٩ ج ٦ (٢) المقرئ ١٧٨ ج ١

(٣) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ (٤) المقرئ ٩٤ و ٣١١ و ٣١٣ ج ١

وابن خلدون ١٣٠ ج ١ (٥) المقرئ ٢٩٤ ج ٢ (٦) الفغري ٢٥٣

الشعوية والعرب

وفي ايام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعوية بالطعن على العرب وكان المأمون يقرّبهم ويجعلهم من بطانته ويجيزهم ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة وكان شديد التعصب على العرب وابو عبيدة الراوية الشهير وعلان الشعوبي . والف الشعوية الكتب في ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الامم

والشعوية يقولون بالمساواة بين بني الانسان ولذلك سموهم ايضاً « اهل التسوية » ومن اقوالهم في الرد على العرب ان النبي نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف مللهم بقوله « المسلمون اخوة نتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على سواهم » وقوله في خطبة حجة الوداع « ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى » وما جاء في القرآن « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . والشعوية ينوبون بدفاعهم عن كل ام الارض في ذلك العهد الا العرب فاذا افتخروا بملوكهم ذكروا الفراعنة والناردة والماقة والا كلسية والقياصرة وافتخروا بسلطان الحكيم والاسكندر الكبير وملك الهند . واذا فاخروهم بالانبياء والمرسلين ذكروا الانبياء من ادم الى ايامهم وانهم جميعاً من غير العرب الا اربعة هم هود وصالح واسماعيل ومحمد . واذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورواية القبان والاسطربلاب ونفخوا بفلسفة اليونان واشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم . وبلغ من جساسة بعض الشعوية في بعض ردوده ان قال « فما الذي تفخربه العرب على العجم فانما هي كالدثاب العادية والوحوش النافرة ياكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض فرجالها موثقون في حلق الاسر ونساؤها سبايامردفات على حقائب الابل » ^(١) واستشهدوا على ذلك بايات من اقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا « لا يفلح العربي ان لم يكن معه نبي يتصره » ^(٢) وعيروهم باستلحاق الادعياء ونظموا الاشعار طعناً فيهم . ومن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هاني وبشار بن برد وغيرها على ان بشاراً كان تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب في الرد على الشعوية . ومن اشهرها الف في ذلك كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة وقد رد الشعوية عليه في مناظرات يطول شرحها . وفي كل حال فان السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب

نكبة الوزراء الفرس

الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت ان الخلفاء العباسيين قربوا الموالي الفرس وولهم المناصب الكبرى فاتخذوا منهم الوزراء والعمال فاعتزَّ الفرس وتاقت نفوسهم الى الاستبداد بالدولة والرجوع الى ما كانوا فيه على عهد الاكسرة . وهم يعلمون ان ذلك لا يتيسر لهم في الاسلام الا بصيغة دينية تحت راية الخلافة الاسلامية . وربما كان ذلك الامل في جملة ما حملهم على التشيع لاهل البيت في ايام بني امية ونصرتهم في طلب الخلافة

فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين وقتل آل الحسن وقتلهم بعد ان قتل ابا مسلم وغيره من شيعة لم ير الفرس بداً من الرضوخ لسلطانه خوفاً من بأسه . على انهم ظلوا على مذهب الشيعة وتربصوا يتوقعون فرصة يشون بها على الدولة او ينشئون لانفسهم دولة شيعية

وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه فيستخدمون الفرس في اكبر مصالح الدولة على حذر . فاذا رأوا من احدهم ميلاً الى التشيع عزلوه او قتلوه . ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم والخلفاء يبنون عليهم العيون في منازلهم كما فعل المهدي بوزيره يعقوب بن داود وأصله من موالي العرب وكان في بادى أمره كاتباً عند ابراهيم بن عبد الله العلوي الحسني اخي محمد بن عبد الله الذي قام في المدينة وقتله المنصور . وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور ثم رجع في جملة الراجعين وكنم ميله واتصل بالمهدي فاستخدمه وأحبه كثيراً ووثق به حتى آخاه وأعلن ذلك في الدواوين فقال سلم الخاسر في ذلك :

قل للامام الذي جاءت خلافته تهدى اليه بحق غير مردود

نعم القرن على التقوى اعنت به اخوك في الله يعقوب بن داود

واحرز يعقوب المذكور نفوذا عظيماً حتى غلب على أمور المهدي وسهل له الاسراف والاشتغال عن مصالح الدولة وتفرغ هو للعمل والعرب لا يعجبهم ذلك فجعلوا يعرضون به بالاشعار ونحوها والمهدي يسمع اقوالهم ولا يبالي بها - روي ان المهدي حج مرة فمرَّ بمكان عليه كتابة قرأها فاذا هي :

لله درك يامهدي من رجل لولا اتخاذك يعقوب بن داود فقال المهدي لمن معه اكتبوا تحته « على رغم انك الكاتب لهذا وتمسأ لجدم » فلما لم يجد اعداؤه حيلة في تغيير قلب المهدي عليه تحولوا الى الوشاية من جهة لا بد للخليفة ان يتنبه لها فقالوا له « ان يعقوب يميل الى العلوية وانه كان معهم عند قيامهم على ابيه » فاشتغل خاطره وكان يعقوب يكتّم ذلك عنه فاراد ان يمتحنه فدعا به يوماً وهو في مجلس فرشه موروثة وعليه ثياب موروثة وعلى رأسه جارية جميلة ثم أظهر المهدي انه مسرور منه فاهداه المجلس بما فيه والجارية ايضاً ثم تقدم اليه بمهمة طلب قضاءها — وهي ان رجلاً من العلوية يريد المهدي ان يتخلص منه فاوصى يعقوب ان يقتله فوعده بذلك بعد ان اقسم الايمان وذهب الى منزله واستقدم ذلك العلوي وكلمه فراه ليلاً وتوسل الرجل اليه ان يحجب دمه فحنّ له يعقوب وعفى عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال • وكانت الجارية في بعض جوانب البيت تسمع ماجرى فنقلت الحكاية كما جرت • فبعث المهدي حتى قبض على الرجل وخبأه وأتى بيعقوب فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطابق عدة سنين ولم يخرج الا في السنة السادسة من خلافة الرشيد شفع به يحيى بن خالد البرمكي لانهما من طينة واحدة ومذهب واحد وكان يعقوب قد عجز نفيه الرشيد بالاقامة حيث يشاء فاختار مكة فسروه اليها وتوفي فيها سنة ١٨٧ هـ وهي السنة التي نكب فيها البرامكة

الوزراء البرامكة

مرتبتهم في الدولة

لما توفي المهدي والهادي وافضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة لان خالداً جدّهم من قواد بني مسلم وقد جاهد في نصرة العباسيين جهاداً حسناً فاستوزره ابو العباس واستعمله المنصور في الحروب كما تقدم • وكان خالد كبير العقل واسع الصدر لم يبلغ احد من ولده مبلغه في الجود والرأي والبأس والعلم • واشهر ابنه يحيى بوفور العقل وسداد الرأي وكان مقرباً من المهدي يعوّل على رأيه • وولد ليحيى سنة ١٤٨ هـ غلامه الفضل قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة ايام وربى الطفلان معاً فارضت الخيزران الفضل من لبن ابنها فكان الفضل بن يحيى اخا الرشيد من الرضاعة وفي ذلك يقول سلم الخاسر^(١)

(١) ابن الاثير ٢٧٧ ج ٥

اصبح الفضل والخليفة هرو ن رضيحي لبان خير النساء
ولما ترعرع هرون عهد المهدي الى يحيى بتربيته فشب الرشيد في حجره وكان يدعوه
« يا ابي » فلما مات المهدي سنة ١٦٩ هـ في جرجان كان اكبر رجال الدولة المقرين
يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس . وخاف الرشيد اختلال الامر اذا علم الناس
بموت ابيه وهم في تلك الحال فاستشار يحيى فاشار عليه برأي كان فيه الصواب حتى رجعوا
الى بغداد وندهاج الناس وفيها الخيزران ام الهادي والرشيد فبعثت الى الربيع ويحيى
لتشاورها فاجابها الربيع ولم يجبها يحيى لما يعلمه من غيرة الهادي عليها . فسر الهادي من
تصرف يحيى وشكره وأوصاه ان يقوم بامر الرشيد كما كان في ايام ابيه ووجع الربيع
واول شيء خطر للهادي بعد قبضه على ازمة الخلافة ان يخلع اخاه الرشيد من
ولاية العهد ويحول الارث الى ابنه لتبقى الخلافة في نسله كما كان يفعل معظم الخلفاء في
مثل هذه الحال . فاعلن الهادي عزمه لبعض خاصته فواقوه وخدموا هرون وابعوا
جمهر بن الهادي وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة . فامر الهادي ان لا يسار بين يديه
بالحرية على جاري العادة في السير بين يدي ولي العهد فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه
ورضي هو بذلك ولكن يحيى لم يرض بل حرضه على التمسك بحقه في ذلك فوشى بعضهم
الى الهادي ان يحيى يفسد الرشيد عليه فبعث الهادي الى يحيى فقال له « يا يحيى مالي ولك »
قال « ما يكون من العبد الى مولاه الا طاعته » فقال « لم تدخل بيني وبين اخي وتفسده
علي » فقال « من انا حتى ادخل بينكما انما صيرني المهدي معه ثم امرني انت بالقيام بامره
فانتهيت الى امرك » فطابت نفس الهادي بهذا القول . فاغتنم يحيى رضاه وقال « يا امير
المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم وان تركتهم على بيعه
أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك اوكد للبيعة » قال « صدقت » وصرفه
فلما اتى الهادي القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع فبعث الى يحيى فخبسه
فكتب اليه يحيى وهو في الحبس « ان عندي نصيحة » فاحضره وسأله عما عنده فقال
يحيى « يا امير المؤمنين ارايت ان كان الامر الذي لا نبلغه ونسأل الله ان يعدنا قبله
(يعني موت الهادي) اتظن الناس يسلون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشيد او يرضون به
لصلاتهم وحجهم وغروم ؟ » قال « ما اظن ذلك » قال « يا امير المؤمنين افنا من ان يسمى
اليها اكبر اهلك مثل فلان ويطمع فيها غيرهم فنخرج من ولد ابيك . والله ان هذا الامر
لو لم يعقده المهدي لآخيك لقد كان ينبغي ان تعقده انت له فكيف بان تحمله عنه وقد عقده

المهدي ولكنني أرى ان نقرّ الامر على اخيك فاذا بلغ اشدّه اتيت بالرشيّد تغلغ نفسه له وبإيعهٗ « فقبل الهادي قوله وعمل به ^(١) »

وتوفي الهادي ولم يملك الا سنة وافضت الخلافة الى الرشيّد ويحيى اول من بشره بها واتاه بالخاتم وهو نائم فعرف الرشيّد فضله في ذلك وقال له « يا أبت انت أجلسني في هذا المجلس ببركتك وبمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الامر » ودفع اليه خاتمه وجعل اصدار الامور وايرادها اليه وكان يعظمه فاذا ذكره قال « ابي » وفي هذه الوزارة يقول الشاعر :

الم اتر ان الشمس كانت سقيمة فلما ولي هرون اشرق نورها

يمين امين الله هرون ذو الندى فهرون واليها ويحيى وزيرها

وخلف يحيى اولاداً احسنهم الفضل في جوده ونزاهته وجعفر في كتابته وفصاحة لسانه ومحمد في بعد همته وموسى في شجاعته وبأسه . وقد تولوا ارفع المناصب وتصرفوا في الدولة وخصوصاً جعفر والفضل . فضلاً عما اشتهروا به من الجود والسخاء وكان ابوهم يحيى جواداً مثلهم فشقّ الناس من اسمهم فعلاً للسخاء فقالوا « تبرمك الرجل » اي جاد وسخا واراد الرشيّد اكرام يحيى فولّى ابنه الفضل وجعفر اعظم الاعمال فقسم المملكة بينهما فجعل جعفر عاملاً على الغرب كله من الانبار الى افريقية وقد فضل الشرق كله من شيروان الى اقصى بلاد الترك . فشخص الفضل الى خراسان سنة ١٧٦ هـ فجعلها مركز عمله وازال سيرة الجور منها وبنى المساجد والحياض والربط واحرق دفاتر البقايأ وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتاب لكنه لم يقم فيها الا قليلاً فاستخلف على عمله وشخص الى العراق سنة ١٧٩ هـ فاكرمه الرشيّد ثم ولاه الوزارة ورأى بعد قليل ان ينقلها الى جعفر فخطب اباها قائلاً « قد احببت ان انتقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب انت اليه » فكتب يحيى الى الفضل « قد امر امير المؤمنين اعلى الله امره ان تحوّل الخاتم من يمينك الى شمالك » فاجابه الفضل « قد سمعت ما امر به امير المؤمنين في اخي وما انتقلت عني نعمة صارت اليه ولا غربت عني رتبة ظلمت عليه ^(٢) »

وتمكن جعفر عند الرشيّد وغلب على امره وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه حتى اتخذ الرشيّد ثوباً له زيقان فكان يلبسه هو وجعفر جملة . وتصرف جعفر

في المملكة تصرفاً مطلقاً لم يكن يضي امرأ الا أمضاء الرشيد ولو كان فيه هبة نصف مملكته او تزويج بعض بناته . وفي حكايته مع عبد الملك بن صالح الهاشمي ما يمثل ذلك الاطلاق احسن تمثيل — كان الرشيد متغيراً على عبد الملك لانه من بني عمه وله طمع بالخلافة فاتفق ان عبد الملك المذكور كان مرة في مجلس شراب بمنزل جعفر فلما اراد الانصراف قال له جعفر « اذكر حوائجك » فشكا اليه ان الرشيد متغير عليه فقال له « قد رضي عنك امير المؤمنين وزال ما عنده منك » فقال « وعليّ ٤٠٠٠٠٠ درهم ديناً » قال « نقضى عنك وانها لحاضرة ولكن كونها من امير المؤمنين اشرف بك وادل على حسن ما عنده لك » قال « وابراهيم ابني احب ان ارفع قدره بصهر من ولد الخلافة » قال « قد زوجه امير المؤمنين العالية ابنته » قال « واوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه » قال « قد ولاه امير المؤمنين مصر » وخرج عبد الملك والحضور يعجبون من اقدام جعفر على ذلك من عند نفسه وخافوا ان يغضب الرشيد من هذه الجسارة فما عثم ان علموا بامضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول « احسن احسن »^(١)

ناهيك بما كان من اطلاق يده في خزائن الدولة وفي رقاب الناس . ومع ذلك فان الرشيد حالماً اوجس منه على سلطانه نكبه ونكب سائر اهله نكبتهم المشهورة واختلف المؤرخون في سببها وهو ما نذكره

نكبة البرامكة

الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة وكان جدهم خالد قد بايع العلويين قبل العباسيين مثل سائر اهل خراسان وفارس . فلما غلب العباسيون وشاهد فتحكم بابي سلمة ثم بابي مسلم وسواه ممن يريد الخلافة للعلويين رأى من الحكمة وسداد الراي ان يفضي عن ذلك الامر واخلص الخدمة للسفاح ثم للعنصور . وسار ابنه يحيى واولاده على نحو ذلك وهوام لا يزال مع الشيعة العلوية من اثار آل علي لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصاً في خلافة الرشيد لانه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم^(٢)

وكان يكره الشيعة منذ صباه وهم يخافونه من قبل الخلافة . فلما تولى الخلافة امر باخراج الطالبيين جميعاً من بغداد الى المدينة ^(١)

واشتهر بذلك حتى اصبح الشعراء يتقربون اليه بهجائهم وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب وهم لا يجسرون على الظهور في حياته فلما مات ودفن في طوس قال دعبل ابن علي يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعاً بقتل العلويين من قصيدة مدح بها اهل البيت وهما الرشيد و اشار الى اجتماع القبرين في طوس قبر الرشيد وقبر الرضا قال :

وليس حي من الاحياء نعلمه	من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء في دمائم	كما تشارك ايسار على جزر
قتل وأسروا ونحرق ومنهبة	فعل الغزاة بارض الروم والحزر
ارى أمية معذورين ان قتلوا	ولا ارى لبني العباس من عذر
إربع بطوس على القبر الزكي اذا	ما كنت تربع من دير الى وطر
قبران في طوس خير الناس كلهم	وقبر شرهم هذا من العبير
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا	على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيئات كل امريء رهن بما كسبت	له يدها نخذ ما شئت او فذر ^(٢)

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية ويعدون عمله حراماً ^(٣) ويكظمون . على انهم كانوا يساعدون تلك الشيعة سرّاً بما يبلغ اليه امكانهم وكان كبارهم يجتمعون الى جعفر وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الاعلى عند الرشيد ويدكرون اعمال الرشيد وجعفر يحاذرون ان يبلغ ذلك اليه ولكن حساده في بلاط الخليفة واكثرهم من العرب او من ينتمي اليهم كانوا يسعون به الى الرشيد وأشدهم غيظاً منه واقدرهم علي الكيد به زبدة ام الامين لانه فضل ابن ضرته المأمون علي ابنا . وقد اضطفت عليه مذ كانوا في الكعبة وقد جاؤوا لتعليق كتابي العهد للامين والمأمون فلما حلف الامين المين على جاري العادة وهم بالخروج من الكعبة ردّه جعفر وقال له « فان غدرت باخيك خذك الله » وطلب اليه ان يحلف على ذلك ثلاثاً فشق طلبه علياً . زبدة فحقدها عليه . وكانت من جملة من حرض الرشيد على الايقاع به ^(٤) فضلاً عما بينهما من العداوة الجنسية وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب وخصوصاً آل الربيع وآل مزيد الشيباني

(١) ابن الاثير ٤٧ ج ٦ (٢) الاغانى ٥٧ ج ١٨

(٣) الاغانى ٧٦ ج ٢٠ (٤) المسمودي ١٩٥ ج ٢

فان البرامكة اضعفوا نفوذهم في الدولة وأغروا الرشيد بهم ^(١) غير حسادهم من الفرس حتى عمهم محمد بن خالد فانه كان من جملة حسادهم والساعين في أذاهم ^(٢) هؤلاء جميعاً كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر تارة من حيث تشيعه وطوراً من حيث استبداده بالدولة وآونة من حيث استثنائه هو وأهله بالاموال والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره وقد غلب عليه ماغرس في نفسه من افضال يحيى عليه وآثار ابائه في تنظيم دولته واحياء معالمها وان يكن ساء مايبديه جعفر أحياناً من نصرة العلويين او استنصارهم فان جعفر لما ولاء الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلاً شيعياً ^(٣) فكان الرشيد صابراً على ذلك يترقب الفرص

الشيعية العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من اهل طبرستان والديلم قبل قيام العباسيين من شيعة علي وانما يابغوا لالعباسيين مجازاة لابي مسلم او خوفاً منه • فلما رأوا ما حل به من القتل غدرأ وغضبوا وتعاقدوا على الاخذ بثأره ثم رأوا المنصور قتل بالراوندية اخوانهم وهم من اصحاب ابي مسلم ثم بنى بغداد وتحصن فيها فتربصوا واذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم وفر من بقي من ولد علي الى اطراف المملكة الاسلامية في خراسان والمغرب وأخذوا يثيرون دعائمهم وينشرون دعوتهم سرّاً فكان الخراسانيون من اقوى انصارهم انشقاقاً من المنصور لقتله ابي مسلم وعملاً بتعاقدهم عليه

فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان لانها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم رهبة في قلوب الناس منذ نقلوا الخلافة من بني أمية الى بني العباس • وكان داعية الشيعة هناك في ايام الرشيد يحيى اخا محمد بن عبد الله الذي حاربه المنصور وقتله • فظهر يحيى هذا في الديلم سنة ١٧٦ هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد فسرّح اليه الفضل بن يحيى فاستزله الفضل من بلاد الديلم بالحسنى على ان يشترط ما احب ويكتب له الرشيد بذلك خطه فكتب له أماناً أمضاء الرشيد وجلة بني هاشم وجاء الفضل ومعه يحيى الى بغداد فوفى له الرشيد بكل ما احب وأجرى له ارزاقاً سنية ثم خطر له ان يحبسه خوفاً منه ولعل بعض الاعداء الشيعة حرضوه على حبسه لكنه لم

(١) ابن الاثير ٥٧ ج ٦ وابن خلدان ١٧٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٧١ ج ٦

(٣) السيوطي ١٠ ج ٢

يكن يستطيع ذلك لعهد الامان الذي بيده . فاستشار الفقهاء في الامان فقال بعضهم الامان صحيح فاجبه الرشيد فقال الآخر وهو ابو الجحيري القاضي هذا امان منقوض من وجه كذا فزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل فدفعه الى جعفر فحبسه وهو يرى انه مظلوم لانه جاء على الامان وقد نكث الرشيد الامان فحدثه نفسه ان يطلقه بما له من النفوذ والدالة ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه . فبعث الى يحيى المذكور من الحبس فخطبه فتوسل الرجل اليه وقال « انق الله في امري ولا تعرض ان يكون غداً خصمك محمد (صلعم) فوالله ما احدثت حدثاً ولا آويت محدثاً » فرق له جعفر وقال « اذهب حيث شئت من بلاد الله » قال « وكيف اذهب ولا آمن ان اوخذ » فوجه معه من اداه الى مأمنه ^(١)

الرشيد وجعفر

وكان حساد جعفر يراقبون حركاته وخصوصاً الفضل بن الربيع لانه كان يرشح نفسه للوزارة بعد ابيه فسبقه اليها اولئك العجم وكانت له عيون على جعفر فاخبروه بما فعله فرفع الخبر الى الرشيد فانكره ولكنه اتهم الفضل وأظهر ان جعفر انما فعله بامر . ثم بعث الى جعفر فدعاه الى الطعام معه وجعل بلقمة ويحادثه ثم سأله عن يحيى فقال « هو بجاله في الحبس » فقال « بجيائي ؟ » ففطن جعفر فقال « لاوحياتك » وقص عليه امره وقال « قد علمت انه لا مكروه عنده » فقال الرشيد « نعم ما فعلت ما غدوت ما في نفسي » وقد كظم غيظه وعزم على الايقاع به من ذلك الحين . ولما قام جعفر عنه قال في نفسه « قلني الله ان لم اقتلك » ولكنه مكث يتربص الفرص ويدبر الحيل لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبدلونه من الاموال للناس على اختلاف طبقاتهم حتى بني هاشم انفسهم واراد ان يغالطه لئلا ينتبه جعفر لما في نفس الرشيد عليه فآظهر انه يريد ان يوليهِ خراسان فأخذ الخاتم ودفعه الى ابيه يحيى وعقد له علي خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوماً ^(٢) فهو اما ولاء اباها تمويهاً او ولاء ثم خافه

وكان في جملة حساد البرامكة علي بن عيسى بن ماهان فسعى بموسى بن يحيى اخي جعفر واتهمه في امر خراسان واعلم الرشيد انه يكاتبهم ليسير اليهم ويحرضهم على خلع الطاعة فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم اطلقه ولكنه تغير على البرامكة جميعاً وظهر ذلك

(١) ابن خلدون ٨ ج ٤ وابن الاثير ٥٠ و ٧٠ ج ٦

(٢) ابن الاثير ٦١ ج ٦

في بعض معاملاته . فكان يحيى بن خالد مثلاً يدخل على الرشيد بغير اذن فعرض الرشيد في بعض حديثه استهجاناً ذلك فكف يحيى عنه . وكان يحيى اذا دخل على الرشيد قام له العلمان فأوصى الرشيد مسروراً خادمه ان لا يقوموا له ف شعر يحيى بهذا التغير وتناقل الناس خبر ذلك ولبثوا يتوقعون شراً يصيب البرامكة وليس من يجراً على اخبارهم به . على انهم كانوا يعرضون في اثناء الغناء بما يخافونه عليهم — ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار أحياناً :

ما يريد الناس منا ما تنام الناس عنا
انما همهم ان يظهرنا ما قد دفنا

وكان الرشيد يستعظم الاقدام على ذلك الامر ويخاف انصار البرامكة اذا هو فترك بهم فاراد ان يستطلع افكار خاصته في هذا الشأن ليرى وقعه في قلوبهم والمغنون احسن وسيلة لذلك لمخاطبتهم الناس في حال سكرهم وطربهم والسكر يبعث صاحبه على الافشاء بما في ضميره والتصريح بما يجول في خاطره . فسأل الرشيد مغنية اسحق الموصلي مرة « باي شيء تعهدت الناس » فقال تعهدون بانك نقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة « فاظهر الرشيد الغضب وصاح به « ما انت وذاك وبلك » فامسك^(١)

وكان للرشيد عيون على البرامكة في منازلهم ودواوينهم يحصون عليهم انفسهم فلا يخلو ان تبدر منهم بادرة تليحاً او تصريحاً والوشاة يعظمونها له

وكان في جملة جواسيس الرشيد خذر يان رباها واهداها الى جعفر فكانا ينقلان اليه كل ما يدور في مجالس جعفر يومياً . وكان لجعفر مجلس انس يعقد في منزله مرة في الاسبوع يحضره ارباب الدولة واهل الوجاهة من الفرس يلبسون اثواباً لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس هو مثلهم . ففي احد هذه المجالس دار الكلام على ابي مسلم وبطشه وكيف استطاع وحده ان ينقل الدولة الاسلامية من عائلة الى عائلة . فقال جعفر « لا يستعرب ذلك منه ولا فضل له » به لانه لم يدركه الا بقتل ٦٠٠.٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبراً وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم الى قوم بغير سفك دم^(٢) » وكان الغلامان الخذر يان يسمعان قوله فنقلاه الى الرشيد وافهاما انه يعرض بنقل الدولة من العباسيين الى الفرس او العاويين فازداد خوف الرشيد منه

فلما كانت السنة التي نكبوا فيها (سنة ١٨٧ هـ) كان الرشيد قادمًا من الحج وقد

صمم على الفتك بجعفر فظاهر رضاه عنه وولاه كورة خراسان اراد بذلك ان يطمئنه
ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية وخلع عليه وعقد له لواءً وعسكرًا بالنهروان . فضرب
الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر وفيهم نخبة اصحاب جعفر وبني هو بغداد
يتأهب للحاق بهم

وكان له صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه اسماعيل بن يحيى قد علم ما في نفس
الرشيد على جعفر واهله فاراد ان يتوسط في اصلاح ما بينهما فجاء جعفر في أثناء تأهبه
للخروج الى خراسان وخلا به وحاده في شؤون شتى حتى تطرق الى الموضوع الذي
جاء من أجله فقال له « يا سيدي انت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة
الاقطار عظيمة المملكة فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان احظى لمنزلتك
عنده » فلما سمع جعفر قوله غضب كأن ما يحول في نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال
« والله يا اسماعيل ما اكل الخبز ابن عمك الا بفضلي ولا قامت هذه الدولة الا بنا اما كن
اني تركته لا يهتم بشيء من امر نفسه وولده وحاشيته ورعيته وقد ملأت بيوت امواله
مالاً وما زلت للامور الجليلة ادبرها حتى يمد عينه الى ما اذخرته واخترته لولدي وعقبى
بعمدي وداخله حسد بني هاشم وبغيم ودب فيه الطمع ؟ والله لئن سألتني شيئاً من ذلك
ليكون وبالاً عليه » كانه يهدده بذهاب خراسان . فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى
غضبه خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد لانه صار متهماً عندهما

فسمع ذلك الحديث احد حواسب الرشيد ونقله اليه فصمم على الفتك به . ولعله
كان ينوي القبض عليه وجسه فقط فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله واكبر الاقدام على
ذلك فاستشار زبيدة امرأته وصرح بما يحول في خاطره قائلاً « اني خائف ان تمكن هؤلاء
من خراسان ان يخرج الامر من يدي » فخرضته على سرعة الفتك به ويقال انها ذكرت
له اموراً اركبها جعفر في بيت الرشيد ^(١) تتعلق بالعباسة اخته . فاعتزم الرشيد بعد
جعفر عن رجاله ومريديه وهم في عسكره بالنهروان وهو في بغداد وبعث خادمه مسروراً
ليأتيه براسه فذهب اليه وقتله كما هو مشهور . ووجه الرشيد من احاط بابيه يحيى وسائر
اولاده وباخيه الفضل لئلا فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير
ذلك وارسل الى سائر البلاد بقبض على اموالهم ووكلائهم ورقيقهم واسبابهم ولم يتعرض
لمحمد بن خالد لانه كان من جملة الساعين بهم واسند الوزارة بعدهم الى الفضل بن الربيع

(١) الاتليدي ١١٣

عدوهم • ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان اذا ذكرهم بكى^(١) وقد اصاب جعفر من الرشيد كما اصاب بزرجمهر وزير كسرى ابرويز اذا اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله^(٢)

فالرشيد فك بالبرامكة لانه خافهم على سلطانه عملاً بسياسة العباسيين في تأييد دولتهم اذا اتهم جعفر وشك فيه فقتله • وهي غير سياستهم في معاملة رعاياهم فانها كانت مؤسسة غالباً على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويستدعيه الحق مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة ولا سيما الرشيد فقد كان اذا وعظته بكى واذا استعطفته عفا واذا استجديته سخا حتى جرى خبره مجرى الامثال • اما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم^(٣) ولا في من يدعو اليهم او ينصرهم

الاميين والمأمون

او العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب اهل خراسان وتضاعفت نفقتهم على الدولة العباسية وتعاقدوا على الاخذ بثار ابي مسلم والبرامكة وتربصوا بترقبون الفرص • وتوجهت آمالهم الى المأمون لان امه فارسية وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية — ولم تكن الشيعة يومئذ مذهباً دينياً كما هي اليوم وانما كانت حزباً سياسياً يراد به جماعة الفرس او غيرهم من انصار العلويين • فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة اظفاره وكان يحبى بن خالد قد اختار الفضل بن سهل السرخسي لخدمة المأمون • والفضل اصله من مجوس خراسان اسلم على يد المأمون^(٤) سنة ١٩٠ هـ وتشيع طمعاً بنصرة الفرس في خراسان وكان هاماً فقدمه يحبى في الدولة حتى صار من خاصته ثم جعله قهرماناً له • وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلاً فتوقع ان تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب منه • وكان المأمون يحبه ويقدمه ولم يكن الفضل طامعاً بأقل من الوزارة — يحكى ان مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رايه بالفضل واكرامه

(١) الاغانى ٧٤ ج ١٧ (٢) المسعودي ١١٩ ج ١

(٣) الفخري ١٧ (٤) ابن خلكان ٤١٣ ج ١ وابن الاثير ٧٩ ج ٦

ايام نقل ذلك للفضل وقال له « لا استبعد ان يحصل لك منه ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم »
فاغتاز الفضل وقال « والله ما صحبته لا كتب مني مالا قلا او جلا ولكني صحبته ليمضي
حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب »^(١)

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للامين العراق والشام الى آخر
المغرب وهو اخليفة بعده وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق^(٢) على ان يتولى الخلافة
بعد اخيه الامين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من احزاب الشيعة وفي جملتهم الفضل بن
سهل . واراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ ان يسير الى خراسان فامر ابنه المأمون ان يبقى في
بغداد حتى يرجع . وكان الرشيد مريضاً تخاف الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب
سعيه هدرآ فجاء الى المأمون وقال له « لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك
ومحمد الامين المقدم عليك وان احسن ما يصنع بك ان يخلعك وهو ابن زبيدة واخواله
بنوهاشم وزبيدة واموالها كما تعلم فاطلب الى امير المؤمنين ان تسير معه » فطلب المأمون
ذلك من ابيه فامتنع اولاً ثم اجاب — ولا بد لا امتناعه من سبب كان يجوز في خاطره
وهو يتوقع قرب اجله ويرى لاولاده عليه رقباء^(٣) يحصون انقاسه ويستطيعون بقاءه

فسار المأمون مع ابيه والفضل معها واهتم الفضل في اثناء الطريق بتأييد امر المأمون
فاخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم واقر له الرشيد بجميع مامعه
من الاموال . ثم نزل المأمون مرو فصبه خراسان واشتد المرض على الرشيد وهو في طوس
والامين في بغداد وله عيون مع الرشيد اشد ثم غيرة عليه الفضل بن الربيع وزير الرشيد
بعد البرامكة . فلما بلغ الامين اشتداد المرض على ابيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستنهم
على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك
العسكر والمأمون غائب في مرو وحرضهم على الخاق بالامين . فطاعوه رغبة منهم في الرجوع
الى اهلهم واولادهم في بغداد واغفلوا اليهود التي اخذت عليهم المأمون وحملوا ما كان في
عسكر الرشيد الى الامين وقت البيعة له ثم حشّن الفضل بن الربيع للامين ان يخلع اخاه
المأمون من ولاية العهد ففعل

(١) الفخري ٢٠٣ (٢) ابن الاثير ٦٩ ج ٦

(٣) ابن الاثير ٨٣ ج ٦

الفضل بن سهل وعلي الرضا

فلما بلغ المأمون موت أبيه ورجوع رجاله الى أخيه بالاموال والاحمال وقد نكثوا
عنده خاف على نفسه فجمع خاضته بمرء وشاورهم في الامر واطهر لهم ضعفه وانه لا يقوى
على أخيه فنشطوه ووعدوه خيراً . وقال له الفضل بن سهل « انت نازل في اخوالك
ويبعثك في اعتناقهم اصبر وانا اضمن لك الخلافة » فاطمان خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح
وقال له « قد صبرت وجعلت الامر اليك فقم به » وسماه ذا الرئاستين اي رئاسة السيف
ورئاسة القلم

فبذل الفضل جهده في نصرة المأمون لانه انما يعمل لنفسه ووطنه وامته واستمال
الناس وضبط الثغور . وتعاظمت العداوة بين الاخوين وقطعت الدروب بينهما من بغداد
الى خراسان وابطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة وتجردت الجيوش وحدثت معارك
هائلة فاز فيها جند المأمون وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين وانتهت الحرب بفتح بغداد
وقتل الامين سنة ١٩٨ هـ وقد حملوا رأسه الى المأمون في خراسان . فلما تحقق المأمون
صدق ما عاهد الفضل عليه اصبح آله بيده لا يخالفه في شيء . فاستبد الفضل في الدولة
وولى اخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن على ان
يكون مقامه في بغداد . ثم اغتنم هذه الفرصة لنقل الخلافة الى العلويين . وكان داعيتهم
يومئذ في خراسان علي بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بعلي
الرضا فبذل الفضل جهده في تحريض المأمون على بيعته علي الرضا بولاية العهد بعده اي
ان يخرج الخلافة من بني العباس الى العلويين . وربما جعل تلك البيعة شرطاً لمساعدته
في استرجاع الخلافة له وانه حسن له ذلك ولم يشترطه . فاجابه المأمون الى طلبه اما
وفاء لوعده او مجازاة له للمكربيه وانه فعله عن حسن ظن في العلويين لانه رضع حب
الشيعه من طفولته وكان يظهر التشيع^(١) فبايع لعلي الرضا سنة ٢٠١ هـ وجعله الخليفة
بعده ولقبه « الرضا من آل محمد » وامر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الخضرة
وكتب بذلك الى الافاق

فلما بلغ ذلك الخبر الى بغداد ضج الهاشميون واتباعهم واعظموا الامر وامتنعوا عن
البيعة لعلي المذكور وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس وقد تحققوا ان تلك البيعة انما
هي دسيسة من الفضل بن سهل فانكروا ولاية أخيه الحسن بن سهل على بغداد . وافرأوا

اخيراً على خلع المامون وبيعة عمه ابراهيم بن المهدي فبايعوه ولقبوه « المبارك » وبعث الهاشميون الى المامون يهددونه بالقتل اذا بقي على عزمه

وكان الفضل بن سهل يخفي هذه الاخبار عن المامون لئلا يخاف فيندم وينكث البيعة فيخلع علياً فيذهب سعيه عبثاً . وكان علي الرضا مطعماً على ما حدث في بغداد وابت نفسه ان يحدث ذلك بسببه ولا يطلع المامون عليه فجاءه بنفسه واخبره بما صار اليه حال بغداد وانهم بايعوا ابراهيم بن المهدي . فاستغرب المامون الخبر ولم يصدقه وقال « بل هم ولوه عليهم في اثناء غيابي كذلك اخبرني الفضل » فقال له « ان الفضل قد كذبتك » فادرك المامون دسيسة الفضل وانه انما نصره لهذا الغرض وشك فيه فحلّ قتله عنده فدرس اليه اناساً قتلوه في الحمام بسرّس مغافصة ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به^(١)

وفكر في بيعة علي الرضا فاعظم ان يرجع عنها وخاف اذا رجع ان يشور عليه اهل خراسان ويقتلوه فعلم الى سياسة الفتك فدرس اليه من اطعمه عنباً مسموماً فأت^(٢) فذهبت الاسباب التي اغضبت اهل بغداد فخلعوا ابراهيم بن المهدي وعادوا الى بيعة المامون . فهرب ابراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع الامين في تلك الثورة وجاء المامون بغداد سنة ٢٠٤ هـ واستقر بها . ودفعاً للشبهة في ما اشتربه من حب آل ابي طالب اضطهدهم ومنعهم من الدخول عليه وامرهم بلبس السواد^(٣)

فاضطرب امر الشيعة في بغداد مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتنون تشيعهم الى آخر خلافة الواثق فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ اضطهد الشيعة وشدد التكبير عليهم لانه كان قدر بني من حادثه بين جماعة اهل عصبية عربية يكرهون الفرس او الشيعة . منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة وعمرو بن فوخ الرخمي وابو السمط من ولد مروان بن ابي حفصة الذي كان ينقرب الى الرشيد بهجو العلويين وهو من موالي بني امية . وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الاجمال ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسنوا له الواقعة في اسلامهم الذين يعتقد الناس علوم منازلهم في الدين . فأثرت اقوالهم فيه وشبّ على كره الشيعة وكره الخلفاء الذين كانوا ينصرون الشيعة قبله وهم المأمون والمعتصم والواثق^(٤) كما أثرت تربية البرامكة في المامون وحببوا اليه الشيعة واهلها

(١) ابن الاثير ٤٣١ ج ٦ والفجري ١٩٩ والاغانى ٣١ ج ٩ وابن خلكان ٤١٤ ج ١

(٢) ابن الاثير ٤٤١ ج ٦ والفجري ١٩٩ (٣) ابن الاثير ١٥٦ ج ٦

(٤) ابن الاثير ٢٢ ج ٧

فلما تولى المتوكل امر بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المباني ومنع الناس من اتيانه وبالغ في بغضه علماً واهل بيته حتى جملة تخريبه - ذكروا انه كان في جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة كان يشده على بطنه تحت ثيابه نخدة ويكشف رأسه وهو اصلع تشبهاً بالامام علي ويرقص ويقول « قد اقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين » (يعني علماً) والمتوكل يشرب ويضحك^(١) وغلبت السنة في الدولة من ذلك الحين وقوامها الانزاع كما سيأتي . وبذهاب امر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها وبخلافه المتوكل ينقضي العصر الفارسي الأول

الاسرار في الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الاسرار والتكتم في ما ينوونه وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانهم ولا سيما في ما يحتاجون اليه لتثبيت دعائم دولتهم كما رايت من تصرف الخلفاء مع قوادهم ووزرائهم من اول دولتهم وخصوصاً المنصور مع اعمامه وابي مسلم وغيرهم وتصرف الرشيد مع البرامكة والمأمون مع الفضل ابن سهل وعلي الرضا وطاهر بن الحسين . وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطاً من شروط نجاحها كما فعل قثم بن العباس في التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ ان يطالع المنصور عليها . وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والارصاد وكل منهم يتجسس على صاحبه . فيث الخليفة العيون على قواده ووزرائه ووزراؤه يقيمون الارصاد عليه . وربما كان خادماً الرجل او جاريته عيناً عليه وقد يقيم الخليفة الجوايس والرقباء على اولاده او اخوته او يقيم ولاية العهد الرقباء على آباءهم كما فعل الامين والمأمون بابيهم الرشيد فقد كان رقيب المأمون على ابيه مسروراً الخادماً ورقيب الامين جبرائيل بن مجتيشوع الطيب وكانوا يحصون انفسه^(٢) كما تقدم

ولما تولى المأمون الخلافة واتى بغداد كان يجسس على ابراهيم بن المهدي فالزمه رجلاً ينقل اليه كل ما يسمعه من لفظه جدياً او هزلاً^(٣) وهكذا كان سائر الخلفاء وخصوصاً في اواخر الدولة لان التجسس يكثر اذا مالت الدولة الى السقوط وتدنات من الهرم كما سيحيى

(١) ابو الفداء ٤٠ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٨٣ ج ٦

(٣) الاغانى ٨٢ ج ٢٠

وكان للوزراء عيون على الخلفاء وللخلفاء عيون على العمال هم اصحاب البريد او اصحاب الاخبار غير ما كانوا يبتشونه من الخدم والجواري والمغنيات لهذه الاغراض — كانوا يفعلون ذلك خوفاً على سلطانهم فبالعوا في التكتّم الى ما يفوق الوصف . فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر وكان يقتفر كل شيء الا القدح في الملك وافشاء السر والتعريض بالحريم^(١)

وبحافظتهم على الاسرار والتكتّم في اعمالهم اشكل على الناس كثير من الحوادث التي جرت في ايامهم ولم يفهموا اسبابها . فنكبة البرامكة مثلاً تهكن المؤرخون في تدوينها رجماً بالغيب وذهبوا في اسبابها كل مذهب . وكّم من قليل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب او تمر او غير ذلك وانما قتل مسموماً بدسيسة بعض الخلفاء او القواد او ولاية العهد الى طبيبه او صاحب داره^(٢)

اختلاط الانساب بعد الاسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ انسابهم حتى كانوا يحنقون من لم يكن مولوداً من ابوين عربيين فاذا كان ابوه غير عربي سموه المذرع او كانت امه اعجمية سموه الهجين . واذا كانت امه أمة استعبدوه فاذا انجب اعترفوا به والا ظل عبداً والعرب لا تورث الهجين وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم
ابناء الأماء

ولما جاء الاسلام وغلب العرب على امم الشرق من فارس والترك وغيرها وكثرت السبايا في اثناء الفتوح اتخذوا من النساء اظفاراً ودايات ومراضع واقتنوا الجواري للفراش وكانوا في بادىء الرأي يكرهون التزوج بهنّ ويحنقون ابناءهن وخصوصاً في الحجاز مركز الجامعة العربية حتى نشأ في المدينة ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من الاماء وهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وفاقوا اهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً فرغب الناس في السراري^(٣)

(١) المسعودي ٢٢٥ ج ٢ وطبقات الاطباء ١٧١ ج ١

(٢) طبقات الاطباء ١٨٢ ج ١ (٣) المقدم الفريد ٢٢٩ ج ٣

على ان بني امية ظلموا يحنقرون ابناء الاماء تعصباً للعرب على الهجم فبلغ عبد الملك يوماً ان علي بن الحسين تزوج جارية له واعنقها فكتب اليه بؤنيه فاجابه علي « ان الله رفع بالاسلام الخسيسة واتم النقيصة واكرم به من اللؤم فلا عار على مسلم وهذا رسول الله (صلم) قد تزوج امته وامراً عبده » فلما تلا عبد الملك جوابه قال « ان علي بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس » على ان العرب اصبحوا بعد الاسلام يرفعون من شأن الهجناء اعتماداً على ان النسب ليس من قبيل الام وانما النسب للاباء عملاً بقول الشاعر :

لا تسمي امرأة من ان تكون له أم من الروم او سوداء عجماء
فانما امهات القوم اوعية مستودعات ولا حساب آباء

اما بنو امية فظلموا على احتقارهم بني الاماء الى اواخر دولتهم وكانوا لا يستخفونهم وقالوا لا تصلح لهم العرب . ولذلك لما قام زيد بن علي بن الحسين يطالب بالخلافة في ايام هشام بن عبد الملك غيره هشام بقوله « انت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن امه » قال « يا امير المؤمنين ان الامهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات وقد كانت ام اسماعيل امه لام اسحق فلم يمنعه ذلك ان بعثه الله نبياً وجعله للعرب اباً فاخرج من صلبه خير البشر محمداً »^(١) فالعلويون كانوا اقرب للاختلاط بغير العرب استنكافاً من شدة تعصب بني امية للعرب ولذلك كان الموالي اكثرهم من شيعة العلويين وكان العرب في صدر الاسلام بهذا الاعتبار طائفتين وفيهم من يحقر ابناء الاماء وفيهم من لا يجعل لنسب الام قيمة — ذكروا ان عبد الملك بن مروان سابق ولديه سليمان ومسلمة فسبق سليمان فقال عبد الملك :

الم انهم ان تحملوا هجناء كم على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المرآن هذا ابن حرة وهذا ابن اخرى ظهرها متشرك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه ونقصر رجلاه فلا يتحرك
وادركنه خالاته فنزعته الا ان عرق السوء لا بد يدرك
وهاك ما قاله حاتم الطائي :

وما انكحونا طاعين بناتهم ولكن خطبناها باسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلة ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا

ولكن خلطناها بخير نساءنا فجاءت بهم أيضاً وجوهم زهرا
وكأن ترى فينا من ابن سبية اذا لقي الابطال يطعنهم شزرا
وبأخذ رايات الطعان بكفه فيوردها أيضاً ويصدرها حمرا
كريم اذا اعتز اللثيم تحاله اذا ما سرى ليل الدجي قرا بدرا ^(١)

على ان طبيعة العمران غلبت على ما أرادته الامويون من حفظ النسب العربي وقضى الاختلاط بالا عجم باختلاط الانساب حتى في الخلفاء من بني أمية فابيعوا في أواخر دولتهم لابناء الاماء . وأول من تولى الخلافة من الخلفاء المهجاء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ولكن أمه كانت من نسل يزدجرد ابن كسرى سبأها قتيبة ببلاد الصفد وارسلها الى الحجاج فقدمها الحجاج الى الوليد بن عبد الملك فاولدها يزيد ^(٢) ويقال ان بني أمية حظروا مبايعة بني الاماء ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن أمة فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذي يذهب ملكهم على يده فلم يلبث سبعة أشهر حتى مات ووئب مكانه مروان بن محمد وأمّه أمة كردية فذهب ملكهم على يده

الخلفاء المهجاء

اما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي وقد ضعفت في أيامهم العصية العربية لكثرة الاختلاط فاصبحوا لا يعتمدون بالام على الاطلاق وكان أكثر خلفائهم من بني الاماء من ابراهيم الامام فابعدوه وفيهم الاماء من الفرس والترك والروم والاكرد والبربر والاحباش والزنج وغيرهم واليك اسماء بعض خلفاء بني العباس من ابناء الاماء :

اسم الخليفة	جنس أمه
ابراهيم الامام	بربرية
المنصور	بربرية
الرشيد	حرسية
ابراهيم بن المهدي	زنجية
المأمون	فارسية
المنتصر بالله	حبشية رومية
المستعين بالله	صقلية

(١) المقد الفريد ٢٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٤ و ١٤٧ ج ٥

اسم الخليفة	جنس امه
المعز	جارية ؟
المهتدي	رومية
المقتدر	تركية
المكتفي	تركية
المستضي	ارمنية
الناصر	تركية

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الاخرى . فان المستنصر بالله الفاطمي أمه أمة سودانية وعبد الرحمن الداخل الاموي أمه بربرية . ناهيك ببناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى في صدر الاسلام فان محمد بن الحنفية امه جارية سنديّة سوداء فاذا كان هذا حال اختلاط النسب في الخلفاء فكيف في سائر طبقات الناس . فالنسب العربي لم يكن خالصاً الا في الجاهلية وصدر الاسلام الى اواسط الدولة الاموية وظل بعد ذلك محفوظاً من حيث الآباء فقط اما من حيث الامهات فانه اختلط اختلاطاً عظيماً . ونحن نعلم الآن ان الولد يرث من أمه كما يرث من ابيه وربما كان من حيث الاخلاق اقرب الى أمه مما الى ابيه . فالعرب بعد القرن الثاني للهجرة قلّ فيهم الدم العربي الخالص الا في البادية او حيث لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم . فضلاً عما أثر فيهم من طبائع الاقاليم التي نزلوها وعادات اهلها

فالعرب الحضري في القرن الثالث للهجرة هم غير العرب في صدر الاسلام فكيف في حضر هذه الايام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج ناهيك بمن يتعرب وينتسب الى العرب وخصوصاً بعد ضياع الانساب . حتى أصبحت العصبية العربية تنسب الى البلاد فاهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلاً يعدون من العرب وهم بالحقيقة اختلاط من العرب والترك والديلم والجرس والروم والفرس والارمن والكرج وغيرهم ولكن الرجل اذا نزل بعض هذه البلاد عدّ في بادئ الرأي غريباً . فاذا قطها وتناسل فيها كان اولاده مولدين فاذا توالى عليهم الاجيال سموا عرباً



العصر التركي الاول

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ

نريد بهذا العصر المدة التي استبدَّ فيها الاتراك بالدولة العباسية وهم الاجناد تميزاً له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبدَّ فيه الفرس وهم الوزراء وليس بين العصرين حدٌّ فاصل ينتهي اليه الواحد ويتبدى منه الآخر بل هما تعاصرا مدة كان الاول في اواخره والاخر في اوائله

الاتراك القدماء

الترك امة قديمة جداً مؤلفة من قبائل وبطون واخفاذ كانت مواطنهم على جبال الالطاي او جبال الذهب في اواسط اسيا بين الهند والصين وسبيريا • وهم يذهبون في اصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين في مؤسس دولتهم (روملس) فيعتقدون ان برترينا اول قوادهم رضع من ثديي الذئبة فلما شبَّ قادمهم في الحروب والغزو بنجيامهم وانعامهم لانهم اهل بادية فخاروا الامم المجاورة لهم وخصوصاً سكان الصين • وخلف برترينا غير واحد من ابناؤه وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمرانها فاحب بعضهم ان يبني المدن فنعمه بعض امرائه ومن نصأحه في هذا الشأن قوله « نحن يا مولاي اقلُّ من عشر اهل الصين عدداً وقوتنا انما هي باطلاق حريتنا — اذا راينا في انفسنا قوة على الحرب هجمنا والا رجعنا الى البادية واهل المدن محبوسون داخل الاسوار كأنهم في قفص » فاعجبه راي الرجل وعدل عن التحضر — وتلك كانت حال العرب في صدر الاسلام فان بداوتهم كانت من اهم اسباب تغلبهم

وما زال الاتراك اهل بادية وغزو وخيام يزدادون قوة وعدداً حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠.٠٠٠ رجل حاربوا اهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة وظفروا في معظم حروبهم • وقد عقدوا مع الرومان في ايام بوستيان صلحاً وظلت العلاقات حسنة بينهم وبين خلفائهم وتبودلت السفارات بين الامتين غير مرة • وفي ايام خاقان ديزابول ارسل اليه الرومانيون في جبال الذهب وفدًا عقدوا معه محالفة على محاربة الفرس في زمن كسرى انوشروان فلم يقووا عليه • وكانوا قد انتشروا في بلاد تركستان واقام بعضهم في المدن

الأتراك بعد الاسلام

ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في انحاء العالم وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان في ايام بني امية . ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج وكانوا يحملون في جملة الجزية اولاداً من اهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق وهم في الغالب من السبي او الاسرى على جاري العادة في تلك الاعصر . فضلاً عما كان يقع منهم في ايدي المسلمين في اثناء الحروب بالاسرا والسبي ويعبرون عنهم بالماليك ويفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الامراء . فاخذوا يدينون بالاسلام مثل سواهم من الامم التي خضعت للعرب في ذلك العهد ومنهم العبيد والموالي كما تقدم

وكان الأتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن واشجاعة والمهارة في رمي الشباب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعي ولما اشتغل احد منهم بدرسها في ابان التخذن الاسلامي . واشتهر ذلك عنهم حتى اصبحوا اذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب كما فعل ابن الاثير لما اشار الى معرفة قتلش علم النجوم فقال « ومن العجب ان هذا قتلش كان يعلم علم النجوم وقد اتقنه مع انه تركي ويعلم غيره من علوم القوم » ويعرف الأتراك في تاريخ الاسلام باسماء كثيرة تختلف باختلاف اصولهم وفروعهم . وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب

الجنـد التـركـي في الدولة العباسية

المتنـم والأتراك

اول من استخدم الأتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لاشان لها في الدولة وانما كان الشأن الاكبر يومئذ للفراسانيين (الفرس) والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في ايام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الامين وتسلسل الفرس انصار المامون واخواله واستبدوا في الدولة كانت الحضارة قد اضرت بالمسلمين واذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المتنم اخو المامون في ذلك قبل ان تفضي الخلافة اليه . وكانت امه تركية وفيه كثير من طبائع الأتراك التي

ذكرناها مع الميل اليهم لانهم اخواله كما كان يميل المامون الى الفرس . وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتناولهم بعد قتل اخيه الامين حتى اصبح يخافهم على نفسه . ولم يكن له ثقة بالعرب وقد ذهبت عصبيتهم واخلدوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى ان ينقوى بالاتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد اهل بداءة وبطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يغير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف وفيهم جمال وصحة فالبسهم اثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وميزهم بالزي عن سائر الجنود ^(١) . واكثر الاتراك الذين اجتمعوا عنده بنسبون الى فرغانة واشروسنة

فلما افضت الخلافة اليه كان الاتراك عوناً له وتكاثروا حتى ضاقت بغداد عنهم وصاروا يؤذون العوام في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك اذى كثير وربما راوا الواحد بعد الواحد قتيلاً في قارعة الطريق . فاتفق ان المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام اليه شيخ فقال له « يا ابا اسحق » فاراد الجند ضربه فمنعه وقال « يا شيخ مالك » قال « لا جزاك الله عن الجوار خيراً جاورتنا وجئت بهؤلاء العالوج من غلمانك الاتراك فاسكتتهم بيننا فانبت بهم صبياننا وارملت نساءنا وقتل رجالنا » والمعتصم يسمع ذلك فدخل منزله ولم ير ركباً الى مثل ذلك اليوم ففرج فضلى بالناس العيد ولم يدخل بغداد بل سار بلمس معسكراً لاجناده حتى اتى سامراً فاتخذها معسكراً فاعجبته وسماها سر من رأى واختط فيها الخطط واقطع اتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم وافرد اهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه وتسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدها وجهزوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس فكثر العيش واتسع الرزق . وما زالت سامراً قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١ هـ الى ايام المعتد فعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ هـ وهو اول من عاد اليها منذ بنيت سامراً ^(٢)

وكان المعتصم بنظم المالك فرقاً عليهم القواد منهم مثل نظام الجند في ذلك الزمن . ولم يكتف بجمع المالك الاتراك بالشراء او المهاداة ولكنه رغب امراء الاتراك واولاد ملوكهم بالقدوم اليه والاقامة في ظله . ومن جاء منهم على هذه الصورة جف بن

للتكئين من اولاد ملوك فرغانة وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والنقدم في الحروب فوجه المعتصم اليه من احضره واحضر غيره من ابناء الامراء فبالغ المعتصم في اكرامهم . ولما بنى سراً من رأى (او سامراً) اقطعهم فيها القطائع وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون ^(١)

وكان اكثر الاتراك لما جمعهم المعتصم اليه يدينون بالمجوسية او الوثنية على ما كانوا عليه في بلادهم وفيهم جماعة قد دخلوا الاسلام . اما غير المسلمين فلما صاروا من جند الخليفة وتربوا في ظل المسلمين أسلموا وفيهم من اظهر ذلك ترفلاً الى الخلفاء كالافشين وكان مجوسياً وظهر الاسلام طمعاً بالكسب من الغنائم بالحروب ^(٢)

وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء اترাকে على فطرتهم وبخاف تخضرم واختلاطهم بالامم الاخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدهم فابتاع لهم الجواري التركيات فازوجهم منهن ومنعهم ان يتزوجوا او يباهروا احداً من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض واجرى للجواري ارزاقاً قائمة واثبت اسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امرأته او يفارقها ^(٣)

الجند التركي ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الاتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على امور الدولة وخصوصاً بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخري وفتحوا عمورية ونصروا الاسلام فتحول النفوذ اليهم . وبعد ان كانت امور الدولة في قبضة الوزراء الفرس اصحبت في ايدي القواد الاتراك اوصار النفوذ فوضى بين الوزراء والقواد . واشتهر من الوزراء في اثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال كابن وهب وابن الفرات وعلي بن عيسى وابن مقلة وغيرهم . وكانوا يسابقون الاتراك الى النفوذ وابتزاز الاموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيجيء

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب واخذت في التقهقر وانغمس الخلفاء في الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة فاصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة الا بالجند (الاتراك) وهؤلاء لا يعملون عملاً الا بالمال فمن استطاع استخدام الجند ملك ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية . فاصبح الاتراك محور تلك الحركة وهم اهل شجاعة وحرب كما تقدم فاصبح البطش والفتك اكبر عوامل السيادة

(١) ابن خلكان ٤١ ج ٢ (٢) الجزء الثاني ١٥٤

(٣) اليعقوبي تقويم البلدان ٣٣

وكانت جنود الدولة العباسية في اوائلها العرب من مضر واليمن والفرس — وزيد بالفرس سكان ما بين العراق واطراف خراسان شرقاً الى نهر جيحون (الاندوس) ويدخل في ذلك اهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها — وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقاماً من بني أمية او رغبة في الملك ومعظمهم من الجنود الاحرار بلا بيع ولا عتق وانما سموا الموالي اشارة الى انهم ليسوا عرباً على اصطلاح ذلك العصر • واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم في مصالح الدولة فنبغ منهم الوزراء والامراء والعلماء وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وانشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتي

فلما تولى المعتصم واقفى الاتراك بالترغيب او الشراء اصبح الجند العباسي اكثرهم من الممالك واخذ الخلفاء بعده الى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمة في بلاطهم وجعلوهم من بطانتهم في جملة الخدم او الحرس وتقدم بعضهم في مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا في الاحكام • فانتقلت سياسة الدولة من ايدي الموالي الفرس واكثرهم من الشيعة الى الجند الاتراك واكثرهم من السنة وتمكن هذا المذهب منهم منذ جاهر الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة واولهم المتوكل على الله • ورسخ الاتراك في مذهب السنة من ذلك الحين ولا يزالون عليه الى اليوم

اما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدا في ايام المتوكل لانه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢ هـ وكان ما كان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم زاد في تقديم الاتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة • ثم اغرام ابنه المنتصر (اوهم اغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك اول جرأتهم على الخلفاء • وولوا المنتصر بعده ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يخزّه • وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل امر الاتراك استفحالاً عظيماً — وما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء انه لما تولى المعتز فعد خواصه واحضروا النجمين وقالوا لهم «انظروا كم يعيش الخليفة وكما يبقى في الخلافة» وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال «انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته» فقالوا له «فكم تقول انه يعيش وكما يملك» قال «مهما اراد الاتراك» فلم يبق في المجلس الا من ضحك^(١)

وقد قتلوا المعتز هذا شرّاً قتلته فانهم جرؤوه برجله الي باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه واقاموه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر

وبعضهم يابطه بيده^(١) . والمستكنفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس^(٢) وبلغ من فقر القاهر بالله أنهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب^(٣) — فلا غرو إذا أصبح الخلفاء آل في ابدي الاتراك اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب^(٤) وبعد ان كان القواد يحملون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحالف لهم^(٥)

فلما تقدم الاتراك في الدولة العباسية وعلم اخوانهم في بلادهم بذلك تقاطروا مئات وألوفاً يطلبون الارتزاق بالجندية ورغبوا في الاسلام وجعلوا يدخلون فيه بالالوف وعشرات الالوف . فقد اسام منهم سنة ٣٥٠ هـ ٢٠٠,٠٠٠ خركا دفعة واحدة والحركة الخيمة ولا يقل اهل الخيمة الواحدة عن خمسة انفس فمدد الذين اسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس . واسلم سنة ٤٣٥ هـ ١٠,٠٠٠ خركاه من اهل بلاساغون وكشغرد دفعة واحدة وضحووا عشرين الف رأس غنم^(٦)

وكان الجند الاتراك يومئذ اشبه شيء بالفرق التي كانت عند الرومان ويسمونهم Praetorian او هم كالباشبوزق في الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال . فكل من وصلت يده الى السلطة اقتنى العلمان الاتراك اما باشرأ او بالاجرة . وتألفت منهم الفرق بتوالي الاعوام وكل منها تنسب الى صاحبها كالساحية نسبة الى ابي الساج والصلاحية الى صلاح الدين وقس على ذلك الاسدية والنظامية وامثالهما . وكثيراً ما كانت الحروب تنشب بين هذه الفرق تنازعاً على النفوذ او على الاموال . ولما استولى الديلم على بغداد في ايام بني بويه توالى الحروب بين الترك والديلم وعلمان الخلفاء او الموالي . وما من دولة قامت في ذلك العصر الا استخدمت الاتراك في جندها سواء كانت شيعية او سنية . فكانوا يحملون الى بغداد او غيرها من المدائن الاسلامية تباعاً وقلماً يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبراً . وكان للامراء والقواد غناية كبيرة في تدريب جنودهم الاتراك على الحركات العسكرية فضلاً عن تعليمهم الفرائض الدينية . على انهم كانوا يعلمونهم هذه الفرائض وهم احداث — فاذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الامير او السلطان فاذا اعجبه اشتراه وانزله في الطبقة التي يانئها من مماليكه وسلمه الى الطواشي برسم الكتابة . قاول ما يديأه

(١) ابن الاثير ٧٧ ج ٧ (٢) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨

(٣) ابن الاثير ١٧٣ ج ٨ (٤) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩

(٥) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ (٦) ابن الاثير ٢١٠ ج ٨ و ٢١٦ ج ٩

تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن • وكان في دولة المماليك المصرية لكل طائفة من العلماء فقيه يحضر اليها كل يوم ويأمرها القرآن والخط والتمرين باداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات • فاذا شب المملوك عامه الفقيه شيئاً من الفقه فاذا صار الى سن البلوغ أخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي النشاب ولعب الرمح ونحو ذلك • واذا ركب الاتراك لرمي النشاب او اللعب بالرمح لا يجسر جندي ولا امير ان يخدمهم او يدنو منهم • فاذا اتقن فنون الحرب تنقل في اطوار الخدمة رتبة بعد رتبة حتى يصير من الامراء ولا يصل الى هذه الرتبة الا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه وقد ينبغ منهم الفقهاء والادباء والشعراء والحساب^(١)

على ان اهل البلاد كانوا يهابون الاتراك ويخافون بطشهم فاذا جاؤا بلداً خافهم اهله اذ كثيراً ما كانوا ينزلون في دور الناس^(٢) ويتعرضون لاجرم والعلماء فاصبح عامة بغداد يكرهونهم كرهاً شديداً

الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية

ا قدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ولم يكن له شأن كبير — واول من قرب الخدم واستكثر منهم الامين بن الرشيد فانه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وامره ونهيه وعين منهم جماعة سمام الجرادية وجماعة من الحبشان سمام الغراية • ولم يقرب الامين الخدم لحمايته او سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكاً في الترف والقصف • ومن اقوال الشعراء في عصره يصفون انقطاعه عن اللهو بالعلماء ويسخون بعضهم قولهم :

عزيباً ما تفادى بالنفوس	الا يا ايها المثوى بطوس
يحمل منهم شؤم البسوس	لقد اقيت للخصيان هقلاً
وفي بدر فيالك من جليس	فاما نوفل ^٣ فالشأن فيه
اذا ذكروا بذى سهم خسايس	وما للمعصي شيء لديه
لديه عند مغترق الكؤوس	وما حسن الصغير اخس حالاً

(١) المقرئزي ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩

لهم من عمره شطرٌ وشطر
وما للغايات لديه حظ
إذا كان الرئيس كذا سقيماً
فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس
لعزَّ على المقيم بدار طوس^(١)
كان لهوهُ من اعظم اسباب سقوطه

سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن في أيام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق فلما استبدَّ الاتراك وعلت كلمتهم في أيام المتوكل فما بعده وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم او يقتلونهم كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم ان يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسهم في القصور ليزيدوهم ضعفاً . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يميلون الى حبس اولادهم واقاربهم^(٢) خوفاً من نواظهم مع بعض الاتراك على خلعتهم او قتلهم . ولا عسير لهم في اثناء الحجز الا الخدم والخضيان فالتوا اخلاقهم وتحققوا بالاختبار ان حياتهم لتوقف بالاكثر على امانة اولئك الخدم لما آسوه من غيرتهم عليهم وخصوصاً الخضيان اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة اسياهم ولا مطمع لهم بالملك لا ولادهم واهلهم . فاصبح ولادة العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والاكرام التماساً لحمايتهم اذا اراد الاتراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في امورهم — والملوك يجعلون الكبار كباراً — فازداد الخدم نفوذاً وسطوة حتى اصبح الاتراك يخافونهم وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل الى قيادة الجند او الامارة على الاقاليم

فرق الخدم وطبقاتهم

ولما تكاثرت الخدم في دور الخلفاء جعلهم طبقات وفرقاً تعرف باسماء خاصة وفيهم الرومي والتركي والحشبي والارمني والسندي والبربري والصقابي في فرق اشته بفرق الجند ولهم الرواتب والجواري

والمراد في الاصل بالخدم الغلمان او العبيد او المالك الذين يقيمون في دور الخلفاء او الامراء للخدمة في ما يحتاجون اليه من مهام المنازل . فكانوا يتعاون الغلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخباز وغيرهم . ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم في

حماية تلك المنازل ايام الشدة على قدر ما يستطيعون بذله من المال في ابتياعهم . واثماتهم
تفاوتت من مئة دينار الى الف دينار او اقل او اكثر . وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الامراء
الى خمسمائة غلام او الف او اكثر فغلما ن بغا الشرابي احد قواد الا تراك بلغ عددهم ٥٠٠
وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠

اما في دور الخلفاء فكان الغلمان فرقاً تعرف باسماء خاصة كفرق الغلمان الاصاغر
والغلمان الحجرية والرجال المصافية والركابية وغيرها . والفرق بين فرق الجند التركي
وفرق الغلمان ان الاجناد عساكر الدولة ينظمون في خدمة المملكة وينقاضون رواتبهم من بيت
المال وفيهم المبتاع والمأجور . واما الغلمان فهم مختصون بالامير او الخليفة لخدمته الشخصية
او حماية داره وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص . وقد تتحوّل فرق الغلمان الى فرق
من الجند او يعملون معاً في خدمة الدولة على ما تقتضيه الاحوال . وقد يبتاع الخليفة
العبيد لينفقو بهم على اعدائه مما اضابط له . وكثيراً ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة
او الولا . يرحي تغلب على امره وتفعل ما تشاءه فيضطر الخلفاء احياناً الى الفتك بهم
غيلة بمساعدة فرق اخرى ^(١)

وكان في دور الخلفاء صنف من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم في دور النساء
وكانوا يستكثرون منهم ايضاً واكثرهم من الطواشية السود . وكان اهل بغداد يستخرون بهم
وهي زاون باشكالهم ويعترضون لهم في الطرق وينادونهم بعبارات التهم كقولهم « يا عقيق صب
ماء واطرح دقيق . . باعاق باطويل الساق » وهم يشكونهم الى الخلفاء . واصاب الناس في
ايام المعتضد شدة بسبب ذلك فان بعض اهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية السود
سنة ٢٨٤ هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك فامر المعتضد بجماعة من العامة ضربوا
بالسياط ^(٢) على ان الخصيان كثيراً ما كانوا يرتقون في الدولة الى مصاف الامراء

القواد والوزراء من الخدم

واول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ
وعنده من الخدم والخصيان ١١,٠٠ خادم من الروم والسودان ^(٣) وكثير من المال
والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سنة رد فيها رسوم الخلافة الى ما كانت عليه . وكان يقدم
الخدم ويستعين بهم وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها . وفي ايامه نبغ مؤسس الخادم

(١) ابن الاثير ١٢٦ ج ٨ (٢) المسعودي ٣٤٠ ج ٢

(٣) الفخري ٢٣٤

فقدّمه وكان يستشير في اموره فنصرّف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء. وتولى رئاسة الجيش وامارة الامراء وبيوت الاموال واستبد في كل شيء لكنه على الاجمال خدم الخليفة المقنذر خدماً ذات بال . ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى ادت الى حروب انتهت بقتل المقنذر وحملوا رأسه الى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه

فالخلفاء انما لجأوا الى تحكيم الخدم والخصيان استبقاءً لحياتهم او احياناً لنفوذهم ودفع استبداد جند الاتراك . ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية بل شمل معظم الدول الاسلامية المعاصرة . ولا هو من مخترعات الاسلام لانه كان شائعاً في معظم الدول القديمة فاسطفان المعنى (المولى) استبدّ في شوؤون الدولة الرومانية من قتل وتنصيب وعزل وكذلك سليمان الخصي وغيرها

اما في الاسلام فاشتهر من الخدم في مناصب الدولة جماعة كبيرة تولوا القيادة او الامارة او بيت المال او غير ذلك من المناصب الكبرى . فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التراس والاعلام وابلى في خدمة مولاه بلاءً حسناً حتى قتل في سبيل نصرته سنة ٢٨٩ هـ ^(١) ويحكم اصله من الغلمان وارتقى حتى صار امير الامراء وعي الى رتب الدولة العباسية ^(٢) وجوهر قائد جند الفاطميين الذي فتح لهم مصر وبنى القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة كان مملوكاً رومياً وبلغ من تعظيمهم امره واكرامه انه لما افلح من المغرب قادماً الى مصر لفتحها ترجل اولاد الخليفة المعز واهله ومشوا بين يديه ^(٣) وكان قبله كافور الاخشيدي وهو خصي اسود ارتقى تبصر حتى اسنقل باحكامها سنة ٣٥٥ هـ وبانس الصقلي الخصي اصله خادم مؤنس الخادم وتقدم مع ذلك في اعمال الدولة وعظمت منزلته حتى ولي الولايات وتداخل في السياسة . ورجوان الاستاذ كان خصياً ايضاً ارتقى في الدولة الفاطمية الى رتبة الوزارة ووزر للعزير بالله والحاكم وتلقب بامين الدولة وهو اول من لقب بذلك في الدولة الفاطمية ^(٤) وقراقوش الطواشي وزير صلاح الدين الايوبي بلغ ارقى مناصب الحكومة في الدولة الايوبية . وعميد الملوك احد كبار القواد الاتراك كان من الخصيان وكذلك شقير الخادم صاحب البريد في مصر والشام ايام بني طولون . ومؤتمن الخلافة في الدولة الفاطمية كان خادماً خصياً وقس على

(١) ابن الاثير ٢٠٥ ج ٧ (٢) ابن الاثير ١٣٣ ج ٨

(٣) المقرئ ٣٧٧ ج ١ (٤) ابن الاثير ٤٩ ج ٩

ذلك تقدم الصقالبة في دولة بني امية بالاندلس وتقدم الخدم والخصيان في دول السلاجقة وبني بويه وسائر دول الاسلام في تلك العصور

تأثير النساء في سياسة الدولة

للأمراة تأثير كبير في اعمال الرجل مهما يكن نوعها وفي اى عصر كان واية امسة كانت وان اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الامم وادابها . اما الدولة اذا كانت ملكية مطلقة فللأمراة شأن كبير في سياستها حتى في الاسلام مع شيوع الطعن في آرائهن وقولهم ان مشاورتهن في الامور مجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد . وما من عظيم من عظماء الاسلام الا وهى عن مشورتهن وادخلهن في الامور — قال المنصور في وصيته لابنه المهدي « اياك ان تدخل النساء في امرك » وقال النخعي « من اقترب الساعة طاعة النساء » وقال ابو بكر « ذلك من اسند امره الى امراة » ولعل أقوال كثيرة في النهي عن مشورة النساء ومع ذلك فقد اثرت المرأة في سياسة الدولة تأثيراً عظيماً

امهات الخلفاء

وتأثير النساء في الدولة من قبيل تأثير الام في الاسلام وقد بينا ذلك في باب الامومة ويعظم اثره على الخصوص في تأثير امهات الخلفاء على اولادهم ولا سيما في أواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم الى الخدم

على ان العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون الى انشاء فاحرزت المرأة نفوذاً كبيراً وخصوصاً امهات الخلفاء وأول من استبد منهم الخيزران ام الهادي والرشد وهي حرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها اولادها ومن خالفها منهم او اعترضها قتلتها . وكانت في ايام زوجها المهدي صاحبة الامر وانتهى وهو يطاوعها . فلما تولى ابنها الهادي ارادت الاستبداد بالامور دونه وان تسلك به مسلك ابيه فلم يمحض اربعة اشهر حتى ائثال الناس اليها وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فساء ذلك وكلته يوماً في امر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلاً فقالت « لا بدّ من اجابتي اليه فاني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك » فنصب الهادي وقال « ويلي على ابن الناعلة قد علمت انه صاحبها والله لا اقصيها لك » قالت « اذا والله لا اسألك حاجة » قال « لا ابالي » وقامت منضبة فصاح بها « مكانك . . . والله اناني من قرابتي من رسول الله لئن بلغني انه وقف

بابك احد من قوادي او خاصتي لاضررن عنقه ولاقبضن ماله • ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك امالك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك ؟ اياك واياك لا تفتحي بابك لمسام ولا ذمي » فانصرفت وهي لا تعقل ولم تنطق عنده بعدها ثم انه قال لاصحابه « ايما خير انا ام اتم وامي ام امهاتكم » قالوا « لا بل انت وامك خير » قال « فايكم يحب ان يتحدث الرجال بنحبر امه فيقال فعلت ام فلان وصنعت » قالوا • لا يحب ذلك » قال فما بالكم تأتون امي فتتحدثون بمحدثها » فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فخذتها عليه حتى اذا عامت انه يريد خلع اخيه الرشيد والبيعة لابنة جعفر أمرت بعض جواريا بقتله بالغم والجلوس على وجهه ^(١) فقتلوه

فلما كانت ايام الرشيد استبدت الحيزران في الاحكام واحتشدت الاموال فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم اي نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد ولما مات توسع الرشيد باموالها وقس على ذلك ثروة سائر امهات الخلفاء ^(٢) أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة ام المقتدر وهي تركية سبطوة غريبة على رجال الدولة في خلافة ابنها وكانت تتصرف في الاحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها ^(٣)

ويقال نحو ذلك في ام المستعين بالله المتوفى سنة ٢٥١ هـ وكانت صقلية الاصل فاطاق المستعين يدها في أمور الدولة وبد اثنين من قواد الاترك اتماش وشاهك الخادم فكانت الاموال التي ترد الى بيت المال من النواحي يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة ^(٤) على أن تسلط النساء في الدولة العباسية كان على معظمه في أيام المقتدر لتسلط الخدم والحجاب • وقد اشتهر من النساء في ذلك العهد السيدة أم المقتدر والحالة وام موسى الهاشمية القهرمانة فهؤلاء كن يرشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحجاب وانكتاب ونحوهم وعيشن الامور كما يردن ويريد هؤلاء • وكان لام موسى المذكورة دهانة ونفوذ حتى تكفأت مرة بالخلافة لاحد العباسيين من اصهارها واخذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم فوشى بها بعضهم الى المقتدر فقبض عليها واخذ منها أموالاً عظيمة • وقس على ذلك نفوذ نساء القصور في الدولة العباسية وهو من قبيل نفوذ الموالي في هذه الدولة لان أكثر اولئك النساء من غير العرب

(١) ابن الاثير ٤١ ج ٦ ٢ الجزء الثاني من هذا الكتاب ١٣٤

(٣) تاريخ الوزراء ٦٧ (٤) ابن الاثير ٤٧ ج ٧

فساد الاحكام في الدولة العباسية

التنازع على النفوذ

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في أيام خلفائها الأولين وخصوصاً الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة . فانتسح سلطانها في أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد فبلغت الهند شرقاً والبحر الاثلاينكي غرباً وبلاد سيبريا وبحر قزوين شمالاً وبحر فارس وبلاد النوبة جنوباً . وقد بينا اقسامها وجغرافيتها في الجزء الثاني^(١) . فلما نكب البرامكة ثم استبد الخند التركي في الحكومة اصبحت الاحكام فوضى وخصوصاً بعد المتوكل لانهم أقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جراتهم على الخلفاء بعده . من عزل وتولية وقتل وسمل . فمعجز الخلفاء عن القيام بشؤون الدولة وهم اصحابها المسؤولون عنها والاحكام تصدر باسمائهم وان كانوا مدفوعين الى اجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ في بلاطهم من الوزراء او القواد والخدم او الموالي او النساء او غيرهم — او على الاجمال بالوزراء والقواد . فاقدرهم على ارضاء الخليفة او اشداهم دهاءً ومكرأ يفضي النفوذ اليه فاذا ملك قياد الحكومة بذل جهده في حشد الاموال اذ لا يأمن ان يستبدل هذا الخليفة بآخر لا يرضاه او لعل بعض اعدائه يغلبه بدسائسه وسعائته فيعزله فاذا لم يكن له مال عاش ذليلاً مهاناً . على ان القواد كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ في بلاط الخليفة بالتهديد او بالوشاية ويختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص

وبقال بالاجمال ان النفوذ أصبح ضائعاً بين الوزراء والقواد وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم غير ما يكتسبونه من المال في اثناء نفوذ كلمتهم . فاصبح الغرض الأول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى أمور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل او قتل او حبس لانهم غير المكسب من اي طريق كان ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملاً بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله « ان تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب »^(٢) . وانتبه الخلفاء الى مطامعهم فاصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه واخذوا أمواله وقد فصلنا ذلك بباب المصادرة في الجزء الثاني من

هذا الكتاب^(١) ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية واصبحت بتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم حتى انشأوا للمصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة^(٢) فكان المال يُتداول بالمصادرة كما يتداول بالتجارة

انواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن افرات « تأملت ما صار الى السطان من مالي فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهرى (ابن الجصاص) فكان مثل ذلك » فكانه لم يخسر شيئاً لانهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة . واذا صودر احدهم على مال لم يكن في وسعه ادائه كله معجلاً أجלוه بالباقي وساعده على تحصيله او جمعة برده جابه وتغير زيه وانزله في دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ليستطيع التمتع في جمع الاموال من الناس^(٣)

وتعددت اسباب المصادرة وجهاتها حتى اصبح كل صاحب مال او منصب عرضة لها وهالك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على ايام الراضى بالله نشرها بنصها حرفياً انموذجاً لانواع المصادرات ومقاديرها^(٤)

دينار

٧,٣٠٠	من احمد بن محمد البسطامي عن النصف مما بقى عليه من مصادره لسنة ٣٠٠ هـ
١١,٠٠٠	» علي ابن الحسين الباذياني الكاتب عما تولاه بالموصل
٣٠,٠٠٠	» محمد بن عبد الله الشافعي عما تصرف فيه اعلي بن عيسى
٨٠,٠٠٠	» محمد بن علي بن مقلبة عما تصرف فيه
١٠٠,٠٠٠	» محمد بن الحسين المعروف بابي طاهر
١٣,٠٠٠	» الحسن بن ابي عيسى النائد عما ذكر انه وديعه اعلي بن عيسى
٤,٠٠٠	» ومنه ايضاً عن نفسه
٢٠,٠٠٠	» ابراهيم بن احمد المادرائي
٣٦,٣٦٠	» عبد الواحد بن عبيد الله بقية مصادره والده

(١) الجزء الثاني ١٧٠ (٢) تاريخ الوزراء ٣٠٦

(٣) الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ ٤ تاريخ الوزراء ٢٢٤

من احمد بن يحيى عن مصلحة وحيث	١٠,٠٠٠
» ابراهيم بن احمد الجيهذ عن صلحه	٦,٠٠٠
» محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعه لمحمد بن علي و ابراهيم المادرائي	٤,٠٠٠
» عبد الوهاب بن احمد بن ما شاء الله عن صلحه	٤٠,٠٠٠
» محمد بن عبد الله بن الحرث عن صلحه	١٠,٠٠٠
» محمد بن احمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها	٢٥٠,٠٠٠
» ابراهيم المادرائي عن الباقي عليه	١٥,٠٠٠
» ابي عمر بن الصباح عن الباقي على ابن العباس احمد	٣,٠٠٠
» علي بن محمد بن الحواري وقتل	٧,٠٠٠
» هرون بن احمد الهمذاني	٧,٠٠٠
» عبد الله بن زيد بن ابراهيم	٢,٠٠٠
» » » » صلحاً عن نفسه	١٥,٠٠٠
» علي بن مأمون الاسكافي وقتل	٦٠,٠٠٠
» يحيى بن عبد الله عما تصرف فيه مع حامد	٧٠,٠٠٠
» حامد بن عباس وقتل	١,٣٠٠,٠٠٠
» محمد بن حمدون الواسطي	١٥٠,٠٠٠
» علي بن عيسى	٤٢,٠٠٠
» ابراهيم جيهذ حامد بن عباس	١٠,٠٠٠
» الحسن المادرائي	١,٢٠٠,٠٠٠
ومنه ايضاً	١,٠٠٠,٠٠٠
من محمد المادرائي	١,٠٠١,٠٠٠
ومنه ايضاً بخط آخر	١٠,٠٠٠

درهم

من ابي الفضل محمد بن احمد بن بسطام	٢٠,٠٠٠
» علي بن الحسن الباذيني صلحاً عما تصرف فيه بالموصل وقتل	٥٠٠,٠٠٠
» ابي عمر بن الصباح عن ضمانه الباقي من مصادرة ابي ياسر	١٠٠,٠٠٠

من عبيد الله بن احمد اليعقوبي	١٠٠,٠٠٠
« الحسن بن ابراهيم الخرائطي صلحاً عما افنطعه من مال الرئيس	١٠٠,٠٠٠
« الحسين بن علي بن نصير	١٠٠,٠٠٠
« علي بن محمد بن احمد السمان عن ورثة قرقر	٢,٠٠٠
« ابي بكر الجرجاني من ضياع بن عيسى	١٠,٠٠٠
« الحسين بن سعد القطريلي	٢٣٠,٠٠٠
« محمد بن احمد . . .	١,٥٠٠,٠٠٠
« ابي الحسن بن بسطام	٣,٠٠٠,٠٠٠
« احمد ابن محمد بن حامد بن عباس	٥٠,٠٠٠
« سليمان بن الحسن بن مخلد	٢٣٠,٠٠٠

ابتزاز الاموال

فالوزير يتولى الوزارة عاملاً او عامين ثم يُعزل او يساقط وله عدة ملايين من الدنانير فضلاً عن الضياع والمباقي وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من اسباب المظالم . وكان الوزير لا يولي عاملاً على ولاية ما لم يقبض منه مالاً على سبيل الرشوة بسمونه « مرافق الوزراء » . ومن اغرب حوادث التولية بالرشوة ان الخاقاني وزير المقتدر بالله ولي في يوم واحد تسعة عشر ناظرًا للكوفة واخذ من كل واحد رشوة ^(١) واذا لم يكن للعامل او الناظر ما يفي المبلغ المتفق عليه مع الوزير دفع بعضه معجلاً واجل البعض الآخر الى مدة معينة او غير معينة والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه او يرون فيه غرامة او ظلماً والعامل الذي يتولى عمله بالرشوة وهو لا يزال مديوناً ببعضها يهون عليه ابتزاز اموال الرعية . - او هو يطلب الولاية لهذه الغاية . فيأخذ العمال في حشد الاموال اما بالتلاعب في جباية الحكومة فينفقون دبناراً في بعض مصالحها فيقيدونه عليها عشرة دنانير او باستخراج اموال الرعية بالرشوة او بضرب الضرائب الفادحة على الباعة واهل الاسواق في المدن ^(٢) او بسلب الفلاحين في القرى بعض غلاتهم وقد يقاسمونهم اياها فان بعض العمال كان يبعث رجاله الى اليدر فيقسمونه كما يشاؤون واذا تكلم الاكار (الفلاح) شتموه وحلقوا لحية وضربوه ^(٣) وقد لا يرضهم ذلك فيقتصبون الضياع برمتها

ومن اغرب طرق الاغتصاب ان يقتصب العامل او الوزير او غيرهما من رجال الدولة

ضيعة لبعض الناس فيأخذها بغير ثمن ويستعملها لنفسه واذا استحقَّ عليها الخراج اداها صاحبها الاول مخافة ان يثبت الملك لمقتصبها اذ يدون خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالِكها في ملكها^(١) فيضطر المالك الى دفع الخراج اعواماً ريثما يتوفى الى من ينصفه ممن يفضي النفوذ اليهم من اهل العدالة او يهتدي الى وساطة او حيلة

ناهيك بما كانوا يقتصبونه من اموال الرعية باقتضاء خراج الارض مضاعفاً او مكرراً على انهم قد يرون لهم نفعاً من ترك خراج بعض الارضين فيتركونه لاصحابها على ان يخدموهم في مصلحة لهم وربما بلغ مقدار الخراج المتروك مالاً كثيراً جداً • فقد كان لرجل يدعى ابا زنبور في وزارة ابن الفرات ضياع مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهماً^(٢) وكثيراً ما كانوا يتركون امثال هذه الضياع بلا خراج لاهل الوساطة او الدالة او النفوذ عند الخليفة او غيره

الجاسوسية وفتوى اللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الاموال ان يقسط الوزير او من يقوم مقامه على ارباب الدواوين والقضاة او غيرهم مالاً على وجه القرض على ان يسبب لهم عوضه من اهل التواحي^(٣) فتقع الخسارة على الرعية • قضايك اهل الاسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضافت ابواب الرزق على الناس واصبحت الحقوق فوضى من استطاع حيلة في اختلاس المال سرّاً او جهراً استخدمها وكثر العيارون والشطار في المدن وتعدّد اللصوص في القرى وفيهم جماعة اصلهم من جنود الدولة طمع الوزراء او القواد بارزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم اموالهم وامتهم واذا عوتبوا او حوكموا احتجوا بذلك • وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار يأخذون اموالها باعتبار انها حق لهم لان اصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد منموها وتجرّدوا فترك عليهم فصار اموالهم بذلك مستهلكة واللصوص في حاجة اليها بسبب فقرهم فاذا اخذوا تلك الاموال وان كره التجار اخذها كان ذلك لهم مباحاً لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون اخذ الزكاة شاء ارباب الاموال او كرهوا^(٤) لان الزكاة صدقة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم وكان لها شأن كبير في اول الاسلام ثم اهملت باواسط الدولة العباسية فاتخذ اللصوص ذلك حجة لسلب اموال التجار

(١) الاغاني ٤٧ ج ٢٠ (٢) تاريخ الوزراء ٩٤

(٣) تاريخ الوزراء ٢٦٢ (٤) الفرج بعد الشدة ١٠٦ ج ٢

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الاحكام من الضيق المالي وغلاء الاسعار في المدن وما انتشبت من الفتن بين الاحزاب ولا سيما السنة والشيعية وراجت الدسائس وتكاثرت السعائيات برجال الدولة وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب . واصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون اليه اخبارهم فتسابق اسافل الناس الى السعاية بافاضلهم يرفعون الى الخليفة او الى صاحب النفوذ في دولته كتباً يخلقون بها المطاعن على الابرياء للانتفاع باذاهم . واكثر ما تكون وشايتهم باهل الدولة في حال اعتزالهم او في من يخافونهم اذا القيت مقاليد الاحكام اليهم وقد يجتمع عند الخليفة او الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب فاذا تكاثرت او ذهبت الحاجة اليها احرقوها ^(١) فلما فسدت الاحكام في دار الخلافة واستبد الوزراء والقواد في شؤون الدولة رأى العمال في الولايات ان يجتروا من ذلك الاستبداد في ولايتهم فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والأتراك والاكراد والعرب وغيرهم

تشعب المملكة العباسية

لما اصبحت الدولة العباسية في ماتقدم من فساد الامور والفوضى في سلطتها واحكامها بين الفرس والأتراك او بين الوزراء والاجناد او بين الخدم والنساء وذهبت هبة الخلفاء بما اصابهم من التضييق والاحتقار هان على عمالهم في اطراف المملكة ان ينفصلوا عنهم باحكامهم الادارية والسياسية وان يستأثروا بحماية اعمالهم وهو الاستقلال . وكان اسبقهم اليه ابعدهم عن مركز الخلافة . واسبق عمال العباسيين الى ذلك ابراهيم بن الاغلب في شمالي افريقيا استقل سنة ١٨٤ هـ ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة لانه حدث في عصر الرشيد والدولة العباسية في معظم سطوتها وانما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة . واما استقلال العمال بذهاب هبة الخلفاء او اخلال شؤون الدولة فالاسبق اليه الفرس ثم الأتراك فالأكراد مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء . وتدرج كل من هذه الامم من العمالة الى الامارة الى الملك او السلطنة . فالول من استقل من الفرس العمال فأنشأوا الامارات الصغرى ثم الدول الكبرى وكذلك فعل الأتراك والاكراد . فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية ثم نذكر الفروع التركية والكردية اما العربية فسيأتى ذكرها في الكلام على العصر العربي الثاني

الدول الفارسية في ظل العباسيين

الدول الصغرى

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة الى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافاً بالسلطة العباسية ثم استبدد الاتراك في الخلفاء بعد المعتصم وأغلوا ايديهم وكسروا شوكتهم فكان للفرس على الاجمال حظ كبير من ذلك . فلما رأوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال باماراتهم

على ان الذين استقلوا من القواد او الامراء مازالوا يعترفون للعباسيين بالسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم . فتفرعت المملكة العباسية الى امارات مستقلة عملاً بسنة الارتقاء واليك اهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها واسماء مؤسسها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ الطاهرية	خراسان	٢٠٥ — ٢٥٩ هـ	طاهر بن الحسين
٢ الصفارية	فارس	٢٥٤ — ٢٩٠	يعقوب بن الليث
٣ السامانية	ماوراء النهر	٢٦١ — ٣٨٩	نصر بن احمد
٤ الساجية	اذريجان	٢٦٦ — ٣١٨	ابو الساج
٥ الزيارية	جرجان	٣١٦ — ٤٣٤	مرداويج بن زيار

فانظر كيف تفرعت بلاد فارس الى امارات فارسية . فانتعشت الشيعة ونالوا بعض ما كانوا يؤملونه من مساعيهم في نصرة العلويين من ان يعيدوا دولة الفرس الضخمة كما كانت قبل الاسلام . ولكن تلك الامارات لم تتمكث طويلاً كما ترى في الجدول حتى قامت دولة آل بويه وهي اكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن بظل الدولة العباسية

دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وانصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ويرتفع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء وانما سموهم ديلم لانهم سكنوا بلاد الديلم . وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك من ايام الرشيد واخر من نجح في ذلك الحسن ابن علي الاطروش من نسل الحسين فدعا الديلم الى مذهبه في اواخر القرن الثالث فاجابوه وجد آل بويه الاقرب الذي اسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه ابو شجاع كان له

ثلاثة اولاد علي ويلقب عماد الدولة وحسن ويلقب ركن الدولة واحمد ويلقب معز الدولة وكان بويه رقيق الحال فانظم اولاده بالجندية لانها كانت يومئذ باباً من ابواب الرزق الواسعة وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيرية فارثي عنده حتى ولأه الكرج ثم اتسعت احواله فكتب الى الخليفة العباسي وهو يومئذ الرازي بالله المتوفي سنة ٣٢٩ هـ ان يقاطعه على اعمال فارس بمال يحمله الى دار الخلافة على جاري عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد فأجابه الرازي وبعث اليه بالخلة . واخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم وجاء الاخوان واتحدا مع اخيهما الثالث معز الدولة في شيراز وساروا غرباً حتى اتوا بغداد في ايام المستنكفي سنة ٣٣٤ هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم باللقاب المذكورة وجعل معز الدولة امير الامراء واستبدوا في المملكة واستولوا على الخلافة وعزلوا الخلفاء وولهم فرفعوا منار الشيعة واحياوا معالمها واضعوا نفوذ الاترك والخلافة العباسية لانزال في بغداد . ولما افضت اماره الامراء الى عضد الدولة لقب بالملك وهو اول من خوطب بهذا اللقب في الاسلام . وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ — ٤٤٧ هـ

الدول التركية في ظل العباسيين

الدول الصغرى

لما قويت شوكة الاترك في الدولة العباسية وهاجم الخلفاء كما تقدم طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس فاستقلوا بها فبنت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس كما نبنت الفروع الفارسية في بلاد الفرس واليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سني نشأتها واسماء مؤسسيها وبلادها :

اسم الدولة	مقرها	مدة تأسيسها	مؤسسها
١ الطولونية	مصر	٢٥٤ — ٢٩٢ هـ	احمد بن طولون
٢ الابلكية	تركستان	٣٢٠ — ٥٦٠	عبد الكريم ستق
٣ الاخشيدي	مصر	٣٢٣ — ٣٥٨	محمد الاخشيدي
٤ الغزنوية	افغانستان والهند	٣٥١ — ٥٨٢	البتكين

وتدرج الاترك في الولايات الاسلامية كما تدرج الفرس قبلهم اي من الامارة الى السلطة وهم اول من سموا سلاطين في الاسلام واولهم سلاطين الدولة الغزنوية التي منها السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وناشر الاسلام فيه.

الدولة السلجوقية وفروعها

على ان هذه الامارات نشأت فروعاً للمملكة العباسية اي كان امراؤها او سلاطينها من عمال الدولة العباسية او قوادها او فواد بعض الامارات الاخرى واسنقلوا كما نشأت الامارات الفارسية قبلها والامتان تنافسان في النفوذ لاختلاف العصبية واختلاف المذهب بين السنة والشيعة

وكانت السنة قد تقوّت بظهور الامارات التركية . فلما قامت دولة آل بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر عظم امر الشيعة في العالم الاسلامي وتضعفت السنة فشنت شأن المملكة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في اواسط القرن الخامس وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة الى جدّها سلجوق فجاءت في حال الحاجة اليها لانها لم تشع المملكة العباسية ونصرت مذهبها (السنة) بعد ان كادت تضمحل بين يدي الشيعة في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب واوشكت ان تستولي على المشرق كله فجاء السلجوقيون من اقصي الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها . وبعد ان كانت ولايات مستقلة يملكها امراء من الفرس والأتراك والاكرد والعرب جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن يكلك امير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها وعلم انه لا يبايع ذلك وهو على غير دين الاسلام فاسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر السلطة حتى اكتسحوا المملكة العباسية وامتد سلطانهم من افغانستان الى البحر الابيض . واصبح العالم الاسلامي لثنازعه ثلاث دول اسلامية اكبرها دولة السلاجقة في المشرق ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب والثالثة دولة بني امية في الاندلس . فشأن الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التي تقدمتها لان هذه امارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها واما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وفتح تلك المملكة . والدولة الالبكية نشأت مستقلة ايضاً لكنها لما اثرت في المملكة الإسلامية

وللسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الاسلام وفي ايامهم تكاثر نزوح الأتراك الى المملكة

الاسلامية في فارس والعراق والشام للسبكني والارتزاق في ظل ابناء جلدتهم . والسلاجقة اول من انشأ المدارس في المملكة الاسلامية بارقي ما بلغت اليه في عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي في اواسط القرن الخامس . وقد فصلنا ذلك وعلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ٢٠١ ونظام الملك فارسي الاصل من اولاد الدهاقين ولكنه انشأ ما انشأه من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمؤسسات باسم سلطانه ملك شاه

والسلاجقة دول تفرعت من اصل واحد وعرفت باسم واحد ولكنها تمتاز بعضها عن بعض باما كن حكمها واكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم اصل سائر الفروع واقرى منها جميعاً واليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها :

١	السلاجقة العظام	حكموا	من سنة ٤٢٩ — ٥٥٢ هـ
٢	سلاجقة كرمان	«	« ٤٣٣ — ٥٨٣
٣	« سوريا	«	« ٤٨٧ — ٥١١
٤	« العراق وكرديستان	«	« ٥١١ — ٥٩٠
٥	« بلاد الروم (اسيا الصغرى)	«	« ٤٧٠ — ٧٠٠

فحكمت الدولة السلجوقية على الاجمال نحواً من ثلاثة قرون وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين الى آخر حدود الشام

انتقال المملكة السلجوقية الى الانابكة

وكان السلاجقة في ايام سلطتهم يولون الاعمال او الولايات قواداً من مماليكهم يسمىونهم الانابكة واحدهم انابك وهو لفظ تركي معناه « الاب الامير » واستعملوه اولاً بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك . واخذ الانابكة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم الا الفرع الرومي في اسيا الصغرى فانه ظل في حوزة السلاجقة حتى اتى العثمانيون في آخر القرن السابع — واليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى الى مماليكهم الانابكة وغيرهم وسني حكم كل دولة منها :

١	الدولة البورية	في دمشق	من سنة ٤٩٧ — ٥٤٩ هـ
٢	« الزنكية	« الجزيرة والشام	« ٥٢١ — ٦٤٨
٣	« البكتيجينية	« اربلاء وغيرها	« ٥٣٩ — ٦٣٠
٤	« الاررقية	« ديار بكر وماردن	« ٤٩٥ — ٧١٢

٥	دولة الشاهات	في ارمينيا	من سنة ٤٩٣ — ٦٠٤
٦	اتابكة اذربيجان	« اذربيجان	« ٥٣١ — ٦٢٢
٧	الدولة السلغرية	« فارس	« ٥٤٣ — ٦٨٦
٨	« الهزارسية	« لورستان	« ٥٤٣ — ٧٤٠
٩	« الخوارزمية	« خوارزم	« ٤٧٠ — ٦٢٨
١٠	« القطاغية	« كرمان	« ٦١٩ — ٧٠٣

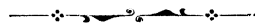
وما زالت هذه الممالك في حوزة الاتابكة وغيرهم من ممالك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكسحوها كلها واستولوا عليها

سلاجقة الروم

اما الفرع السلجوقي الذي ظل سائداً دون سائر الفروع فهو سلاجقة اسيا الصغرى وهي بلاد الروم في اصطلاح تلك الايام . على ان مملكتهم هناك تفرعت الى عدة فروع يحكم كل منها عائلة سلجوقية صغيرة وهاك اسماءها مع اسماء العائلات السلجوقية التي كانت تتولاها :

اسم الامارة	اسم العائلة	
١	ميسيا	آل كرامبي
٢	بيسيديا	« حميد
٣	فريجيا	« كرميان
٤	ليسيا	« تاكة
٥	ليديا	« سروخان وايدين
٦	كاريا	« منتشا
٧	بفلاغونيا	« فزل احمدي
٨	ليكونيا	« قرمان (١)

وما زالت هذه الامارات في سلطة الامراء السلاجقة حتى اتى العثمانيون فاستولوا عليها وانشأوا الدولة العثمانية في اوائل القرن الثامن للهجرة



الدول الكردية في ظل العباسيين

الدول الصغرى

الاكراد قوم اشداء واكثرهم اهل بادية وخشونة وجفاء يقيمون في الحيام ويتقسمون الى قبائل وعشائر وبطون وهم اقل قبولاً للحضارة من الفرس والترك وغيرها من الامم الشرقية التي دانت للإسلام في ابان التمدن الاسلامي . وقد ظلوا اهل ظعن ورحلة في معظم ذلك التمدن . وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالاعراب ومقامهم على الاكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ولا يزال سوادهم هناك الى الآن ونظراً لتمسكهم بالبدو والحشونة لم تستخدمهم الدولة العباسية في اعمالها الا قليلاً فلم ينبغ فيهم احدٌ من رجال الامارة المستقلة او اهل السياسة والتدبير الا بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن . واول من أنشأ دولة كردية مستقلة في الاسلام حسنوية بن حسين البرزكاني زعيم قبائل الاكراد في كردستان في اواسط القرن الرابع للهجرة وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها ديناور وهمدان ونهاوند وسرماج وغيرها . وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة . ولم يطل عمرها كثيراً فحكمت من سنة ٣٤٨ هـ — ٤٠٦ هـ ثم استقل من الاكراد ابو علي بن مروان في ديار بكر سنة ٣٨٠ هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين وبابج خلفه للفاطمين حيناً من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩ هـ

الدولة الايوبية

على ان الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الاسلام الا على عهد الدولة الايوبية من سنة ٥٦٤ — ٦٤٨ هـ ومؤسسها السلطان صلاح الدين الايوبي . وهو من اعظم رجال الاسلام تعقلاً وسياسة وبسالة وتديراً أنشأ دولته على انقاض الدولة الفاطمية بمصر وبابج فيها للعباسيين وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا وانقذ بيت المقدس من ايديهم وماآثره اشهر من ان تذكر . وارتفع شأن الاكراد في ايام دولته وتولوا الامارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ولما مات اقتسم مملكته اخوته وأولاده وأولاد اخوته ولذلك لم يطل حكمها . فغلهم على معظمها ممالكهم الاترك كما غلب الانابة ملوكهم السلاجقة قباهم فكان للمماليك بمصر دولتان تعرفان بالسلطين المماليك كما سيجيء

(ملاحظة) ومما يحسن التنبيه اليه في هذا المقام ان الاسلام أثر في أمم المشرق تأثيراً خاصاً وساقها الى التمدن تدريجاً فتسابقت الى انشاء الدول وتأسيس الممالك باعتبار اسبقيتها في الاسلام وقربها من العالم الاسلامي . فاول من اسلم من تلك الامم العرب وأسسوا الدولة الاسلامية العربية فاتحت بهم أولاً الفرس وهم اقرب امم المشرق الى جزيرة العرب فكانوا اسبق الاعاجم الى انشاء الدول . ثم جاء الاتراك من وراء بلاد فارس فلما انتشر الاسلام بينهم أسسوا الدول ونظموا الحكومات ثم ظهر الاكراد وهم اقرب من الاتراك الى العالم الاسلامي يومئذ لكنهم تمدنوا بعدهم لان الاتراك اقرب منهم الى سياسة الدول . وامتد الاسلام في تركستان وماوراءها من بلاد التتر او المغول فنهض هؤلاء واغاروا على بلاد الاسلام لانهب والقتل لكنهم ما لبثوا ان احتكوا بالعالم الاسلامي حتى اخذوا الى النظام وأنشأوا الدول . ويقال نحو ذلك عن تأثير الاسلام في المغرب وخصوصاً قبائل البربر في شمالي افريقيا كما تقدم

الخلافة والسلطة

او الدين والسياسة

لما ظهر الاسلام كان النبي رئيس المسلمين في أمور الدنيا والدين وهو حاكمهم وقاضيم وصاحب شريعهم وامامهم وقائدهم . وكان اذا ولى احد اصحابه بعض الاطراف خوله السلطتين السياسية والدينية واوصاه ان يحكم بالعدل وان يعلم الناس القرآن . ولكنه ما لبث ان فصل بين المنصيين في من كان يولهم أمور الرعية فبعث في السنة الثامنة للهجرة ابازيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام وقال لهما « ان اجاب القوم الى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابو زيد على الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنة »

على ان ذلك لم يكن قاعدة عامة لان الامير كثيراً ما كان يتولى الخراج والحرب والصلاة معاً كما تولاها يزيد بن المهلب في العراق من قبل سليمان بن عبد الملك ^(١) ويقال بالاجمال ان مصالح الدولة الاسلامية بمد ان كانت محصورة بالنبي سياسياً ودينياً تفرعت

في أيام الخلفاء الى عشرات من المناصب الا الخلافة فانها ما زالت حتى الآن تشمل الرئاسة في أمور الدين والدنيا

والخلافة في الاصل منصب ديني تولاه الخلفاء الراشدون لاتمام العمل الذي بدأ به النبي وهو نشر الاسلام والجهاد في سبيله وكانوا يتولون أمور المسلمين السياسية ايضاً لما يقتضيه الجهاد من الحرب وأسبابها كادارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد ويدخل في ذلك ولاية الاعمال وحماية الخراج . على انهم كانوا يفعلون ذلك بصيغة دينية اي ان كل ما يعملونه في الدين ينتهي الغرض منه فيكونوا يجندون الرجال ويفتحون البلاد في سبيل الدين . فلما انتشر الاسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة الى الجهاد جاز للرئاسة الدينية ان تستقل عن السيادة السياسية او تنقسم الرئاسة الى الخلافة والسلطة كما حدث في النصرانية وغيرها

ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الاسلام يختلف عما في النصرانية لان النصرانية انتشرت أولاً في عامة الناس ثم انتقلت الى رجال الدولة . واما الاسلام فانه ظهر أولاً في رجال الدولة وانتقل منهم الى العامة لان اقدم اهل الاسلام الصحابة وهم جند المسلمين وأمرأؤهم وقد نشروا الاسلام في الارض وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم . فلما تأيد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الامراء في السلطة الدنيوية كان منصب الخلافة من اكبر اسباب تغلبهم لتأثير الدين على اذهان الناس في تلك الايام فقد كانوا لا يجتمعون الا تحت رايته وخصوصاً في الشرق ولا يزالون على ذلك حتى الآن

على ان اهل النقوى من المسلمين كانوا يجعلون حداً فاصلاً بين الخلافة والسلطة فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها اهل المطامع بالدهاء والقوة خالفوه وابوا مبايعته فلما قُتل علي وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية لم ير المسلمون بداً من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك لكنهم استنكفوا من ان يسموه « خليفة » او يعترفوا له بسلطة دينية فسموه « ملكاً » وهو يأبى الا ان يجمع الرئاستين العلم ان الرئاسة الدنيوية وحدها لا تفيد شيئاً — ذكروا ان سعد بن ابى وقاص دخل على معاوية بعد ان اسنقر الامر له وقال « السلام عليك ايها الملك » فضحك معاوية وقال « ما عليك لو قلت يا امير المؤمنين » فقال « نقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما احب اني وليتها بما وليتها به »

فيظهر من ذلك انهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء ويعتقدون ان بني امية نقلوا الاسلام من الدين الى العصبية والسيف ثم الى الملك البحت

الخلافة لازمة للسلطة المطلقة

وفي اعتقادنا ان الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه الا بالدين او ما يقوم مقامه . فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكيتها الا وفي سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين بان تجعل لملوكها مزبة على سائر الناس . واذا اريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى وهي افضل الحكومات واطولها عمراً والا فانها تهلّ سريعا ويكفي لانحلالها ان يتولى شؤونها ملك قليل التدبير ناقص الاختبار فيغتصب ملكه بعض وزرائه او قواده . واذا تدبرت تاريخ الدول الاسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيرا كبيرا في طول بقائها واتساع نطاقها — اعتبر ذلك في الدول التي نشأت في اثناء التمدن الاسلامي من الفرس والترك والكرد والجركس كالبيهيين والسلاجقة والايوبيين وغيرهم من الدول الضخمة فان بين ملوكها جماعة من دهاء الرجال وقهارة السياسة ولم تطل اعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية . وانظر الى الدول العربية التي جمعت بين الخلافة والسلطة كالعباسيين والفاطميين والامويين في الاندلس مع ما طرأ عليها من اسباب السقوط فقد صبرت وطال جهادها . واذا نظرت الى الدول العجمية رأيت اطولها عمراً وأوسعها ملكاً الدولة التي جمعت بين السلطين وهي الدولة العثمانية . وبنو امية في الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على أزمة الرئاسة الدينية ما استطاعوا الى الحكم سبيلا فانهم انما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما في الخلافة من الصبغة الدينية وتوفقوا الى اعوان عرفوا ان العامة لا تحكم بمثل الدين فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة وسموا الخليفة « خليفة الله » وقالوا « خليفة الرجل في اهله افضل من رسوله في حاجته » كما تقدم — والعلماء يتكرون ذلك ولا يصدقونه وأما العامة فكانوا يساقون به الى الطاعة بالارهاب رغم ما كان يعتور صحة خلافة بني امية من الشكوك

فلما افضت الخلافة الى بني العباس وهم من عائلة النبي ومن أولى الناس بخلافته كان المسلمون اطوع لهم مما لبني امية واعتقدوا ان خلافتهم تبقى ابد الدهر حتى يأتي السيد المسيح^(١) وغرس في اذهان الناس بتوالي الازمان ان الخليفة العباسي اذا قتل اخلل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجفّ النبات^(٢)

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفضيم حتى الرشيد مع تعمله وانتشار العلم في عصره فقد ذكروا انه كان يحتمل ان يمدح بما يمدح به الانبياء فلا ينكر ذلك ولا يردّه حتى قال فيه بعض الشعراء « فكأنه بعد الرسول رسول » ^(١) فكيف يكون حال الخلفاء في عصر الانحطاط اذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفي اولو الامر بالكلام دون الاعمال — واذا شاخت الدولة تمسك اهلها بالعرض وتركوا الجوهر — فلا غرو اذا سموا الخليفة في ايام المتوكل « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » ^(٢) او قالوا قول ابن هاني للمعز الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار ^(٣)

الخلفاء والفقهاء

ويدل ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة الناس والاصل في هذا التقديس انما هو للدين وتعميم الخلافة فرع منه . ولذلك كان بين الخلفاء الاولين وعلماء الدين الاسلامي كالحفاظ والمحدثين والفقهاء علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر — ومعنى ذلك ان الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية فهو أمير الناس في السلم وقائدهم في الحرب وامامهم في الصلاة وهو قاضيهم وفقههم كما كان النبي في اول الاسلام . فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة الى تقسيم الاعمال بمقتضى سنة العمران عمد الخليفة الى انابة من يتولى تلك الاعمال عنه . فالوالي انما هو نائب الخليفة في العمل الذي يتولا والقاضي نائبه في القضاء وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة . وقس على ذلك سائر المناصب الادارية والسياسية والقضائية وكذلك في المهن الدينية كالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون اعمالهم بالنيابة عن الخليفة . فكما يحتاج الخليفة الى نصرة العمال والقواد والقضاة في تأييد سلطته الدنيوية فهو يفتقر أيضاً الى نصرة الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية . ولذلك رأيت الخلفاء يقرّبون اهل العلم ولاسيما في اوائل الاسلام (وهم يومئذ الحفاظ او القراء) وكان اليهم المرجع في حل المشكلات الدينية او القضائية والفقهية وهي أساس الاحكام السياسية في الدولة الاسلامية . ونظراً لتهوس العامة بالدين على الاجمال كان لافقهاء تأثير شديد في الدولة فلا يقطعون بامر هام الا باستفتائهم حتى في تنصيب الخلفاء فاذا انكر الفقهاء يعمة احدهم انكروا الناس .

(١) الاغانى ١٨ ج ١٢ (٢) المسعودي ٢٨٠ ج ٢

(٣) ابن الاثير ٢٤٥ ج ٨

ولذلك كان الخلفاء يجلون العلماء ويقربونهم ويعولون على مشوراتهم في عصر الراشدين والدولة على سذاجتها لم يلبسها غش ولا دهاءً فاذا نهوا الخليفة او الامير عن عمل انتهى واخذ بنصيحتهم

فلما طمع بنو امية بالخلافة وطمسوها من طريق الدهاء والبطش كان في جملة ما اهملوه من قواعد الراشدين الاخذ باقوال اهل العلم لانهم لو اطاعوهم ما تيسر لهم الملك . ففاسى العلماء في اوائل دولة الامويين عذاباً شديداً من المقاومة والضغط فاضطر بعضهم للافتاء بما يرضي اهل الدولة وابتى البعض الآخر الا الحق فاضطهدوهم وضيقوا عليهم — بدأوا بذلك من ايام عثمان والعمال يومئذ من بني امية وقد اخذوا يمهّدون السيل لسلطانهم بجمع الاموال والاستئثار بالنفوذ . وفي حكاية ابي ذر الغفاري مع معاوية بن ابي سفيان دليل ناطق على ما كان من جرأة اهل العلم على الخلفاء وانكار الامويين ذلك . وقد فصلناها في بعض ما تقدم من هذا الكتاب^(١)

فلما استتب الامر لبني امية حبست الافكار وتقيدت اللسنة ولم يتقدم من العلماء في مناصب الدولة الا المتملقون . وبعد ان كان الخليفة لا يعمل عملاً الا بمشورة فقهاء المدينة اغفل بنو امية المدينة وفقهاءها الا عمر بن عبد العزيز فانه عاد الى مشورتهم . فظل الاحرار من الفقهاء في زوايا الاهمال معظم ايام بني امية . فلما تسلط العباسيون واطهروا انهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الامويين ظهر اهل الافكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد وقربهم الخلفاء واكرمهم فعادوا الى جرأتهم في خطاب من يؤانسونه منه اصغاء كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف وكما فعل سفيان الثوري لما استدعاه الرشيد الى بغداد ليكرمه ويقربه فكتب اليه سفيان كتاباً قال فيه : « اما بعد فاني كتبت اليك اعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك انك هجمت على بيت مال المسلمين فانفقته في غير حقه وانقضته في غير حكمه . ولم ترض بما فعلته وانت ناء عني حتى كتبت اليّ تشهدني على نفسك . فاما انا فاني قد شهدت عليك انا واخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل . ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . . . هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في ارض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل . . ؟ ام رضي بذلك حملة القرآن واهل العلم (يعني العاملين) ؟

ام رضي بفعلك الايتام والارامل ام رضي بذلك خلق من رعيتك ؟ ^(١) ودخل سفيان المذكور على المهدي مرة ولم يسم بالامارة فلم يغضب عليه المهدي بل استعطفه ^(٢) وكان اكثر الخلفاء الاولين من بني العباس اذا لقوا فقيهاً او زاهداً طلبوا اليه ان يعظم فاذا وعظهم بكوا حتى تحضل لحاهم • واشهر المتعطين من الخلفاء المنصور والرشيد والمعتمد والواثق ولهم حكايات مشهورة

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامّة مثل توسط الامراء والقواد في تأييد السيادة الدنيوية وقد يغني الفقهاء على الواسطتين جميعاً لان عامّة المسلمين ينقادون الى فقهاءهم ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامّة النصارى الى كهنتهم • فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون الى الفقهاء للاستعانة بهم على اخضاع العامة واملاك قلوبهم وكذلك كان يفعل السلاطين والامراء لنفس هذا السبب او لسبب اخرى • والنفع متبادل بين الفئتين لان الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالاً وجاهاً ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم اعظم وابقى • فرسخ احترام الخلفاء في قلوب العامة ونمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين وكان الخلفاء يدعون للعامة باسم الدين ايضاً • حتى كثيراً ما كانوا يضطرون الى مسيرة بعض الناس في بعض اعتقاداتهم الدينية ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفاً لما في نفوسهم او مناقضاً للواقع كما فعل المهدي اذ جاءه رجل بنعل زعم انها نعل النبي فقبلها المهدي منه واجازة عليها مع اعتقاده كذبه وانما خاف ان كذبه ان يحمل العامة قوله على القصور في الدين ^(٣)

ولم يكن للخلفاء بدٌّ من اظهار اتقوى والقيام بالفروض الدينية لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك • ذكروا ان الوليد بن يزيد الاوي مع اشتهاره بالخلاعة والتهتك كان اذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطوية ثم يتوضأ فيحسن الوضوء وبؤى ثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة فيصلي فيها احسن صلاة باحسن قراءة واحسن سكوت وسكون وركوع وسجود فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب ^(٤)

(١) الديميري ١٨٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢١٠ ج ١

(٣) كتاب الاذكياء ٢٩ (٤) الاغانى ١٤١ ج ٦

الدول الاسلاميه والخلافة

فهذا السبب كان الامراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالادارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين اذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم . فاذا اراد احدهم الاستقلال بولاية او فتح بلد او انشاء امارة لنفسه بعث الى الخليفة في بغداد ببايعه ويطلب منه ان يعطيه تقليداً او عهداً بولاية ذلك البلد او ان يلقيه ويخلع عليه واذا ابى الخليفة ان يجيبه غضب وعدّ ذلك تحقيراً له وقد يجرّد عليه الجند ليكرهه على تنصيبه

فالامارات او الممالك التي اسنقلت عن الدولة العباسية في فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها قبل قيام الدولة الفاطمية كان اصحابها يخطبون خليفة بغداد ويعثون اليه بال معين في العام مع انهم في أمن من سطوته . وانما يريدون ان يرضى العامة عن سلطانهم

وكذلك كانت شأن الاجناد الاتراك وامرائهم فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلاً وخلعاً لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خالياً يوماً واحداً لاعقادهم انه بدون الخليفة لا تستلح العامة . حتى الملوك او السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيء فيها واصبح الخليفة آلة في ايديهم مثل آل بويه وآل سلجوق فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش حتى اذا ظفروا به وغلبوه بايعوه واكرموا ورفعوا مقامه وتبركوا به . فعضد الدولة البويهية ملك بغداد واستبد بها وهو شيعي على غير مذهب الخليفة . وكان يغالي في التشيع ويعتقد ان العباسيين غضبوا الخلافة من مستحقها فلم يكن ثمّة باعث ديني يدعوه الى طاعة خليفة بغداد ومع ذلك فانه بايعه وعظم شأنه واعاد من امر الخلافة ما قد نسي وامر بعمارة دار الخلافة والاكثر من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته واكرمه غاية الاكرام^(١)

وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يعرفون حاجة الامراء المسلمين الى رضاهم فاذا ساءهم احد منهم هددوه بالخروج من بغداد فيضطر الى استرضائهم لان خروجهم يغضب العامة^(٢) ويجبرهم على خلع الطاعة لتقدسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ — ولذلك فلم يكن من سبيل الى نزع سلطته او الاعتراض عليها الا من وجه ديني فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين فيلبسون الصوف ويدعون الى المعروف او يعلقون في

(١) ابن الاثير ٣٥٧ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٢١٣ ج ٩

اعتناقهم المصاحف^(١) او نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة . واذا اراد احد الخلفاء ان يصلح ما بينه وبين العامة اصلحه بالتقوى . فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون اوصاه باظهار الورع والدين ليستميل القواد^(٢) ولما رأى ابو مسلم الخراساني اهل اليمن في مكة قال « اي جند هؤلاء لولقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة » يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للممالك الاسلامية بدء من خليفة تباعه ليثبت ملكها . وقد يستاء بعض الامراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته الا اذا رأى خليفة آخر يبايعه فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلت كثير من البلاد بيعه خليفة بغداد وبايعت للفاطمين في القاهرة . ولما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبي على مصر وزهبت الدولة الفاطمية منها فأول شيء فعله انه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسي في بغداد وطلب المنشور منه والخلع عليه . وكانت الخلافة العباسية في غابة الانحطاط والضعف وهو في غنى عن بيعتها ولكنه علم انه اذا لم يبايع خليفة فلا يرضي الناس

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الايوبية فلنهم بايعوا للعباسيين وكانت الخلع تأتبعهم من بغداد الى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله توقف شأن الخلافة فاضطربت احوال مصر وبذل سلاطينها جهودهم في ايجاد خليفة يبايعونه^(٣) ولو اعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحداً ليحكموا العامة به^(٤) على انهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم الى القاهرة وفرضوا لهم الرواتب واحنفلوا بهم احنفالاً عظيماً وبالغوا في احترامهم واکرامهم^(٥) مع علمهم ان اولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئاً ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الاسلام بالاطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسي بالقاهرة ويطلبون التقليد منه او المنشور لانبأت سلطتهم على يد السلاطين المماليك^(٦) فما الذي بعث اولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة طريد شريد لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في اذهان العامة ؟ ولانكر ان بعضهم كان يطلب بيعه

(١) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٨ (٢) كتاب الاذكياء ٢٧

(٣) ابو الفداء ٢٢٢ ج ٣ (٤) ابن الاثير ١١٩ ج ٩

(٥) المقرئ ٣٠١ ج ٢ (٦) ابن خلدون ٥٤٣ ج ٣

الحليفة تديناً ولكن الاكثرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها

الخلافة في غير قريش

ومما يستحق النظر والاعتبار ان ملوك المسلمين غير العرب على اختلاف مواطنهم واجناسهم ولغاتهم ودولهم من الفرس والازناك والاكراذ والبربر والجركس وغيرهم مع ما بلغوا اليه من سعة الملك وعز السلطان ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم لم يخطر لاحد منهم ان يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثاني بعد تضعضه بفتوح المغول ولا ادعاها احد من العرب غير قريش .
 واول سلطان غير عربي ببيع بالخلافة السلطان سليم العثماني ولا تزال الخلافة في دولته الى الآن

على ان الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن من الامراء المسلمين او القواد غير العرب كانوا اذا طعموا بالسيادة الدينية او الخلافة انتحلوا لانفسهم نسباً في قريش كما فعل ابو مسلم الخراساني لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة وربما طمع بالخلافة فانتحل لنفسه نسباً في بني العباس فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس^(١)
 وأما الملوك او السلاطين الأعاجم فلما ضخمت دولهم في اواخر العصر العباسي ورأوا انحطاط الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك الا ان يستبدلوا بخلافة أخرى . على ان بعضهم طمع بالنفوذ الديني من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المثنوي سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في ابامه ان يتزوج بابنته وغرضه من ذلك ان تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب^(٢) ولم يتوفق الى مراده

ولما افضت السلطة الى السلاجقة تقدموا في هذا الطريق خطوة خرى فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة ايضاً ولكن على ان يتزوج السلطان طغرل بك السلجوقي ابنة الخليفة وهو يومئذ القائم بامر الله فخطبها اليه ووسط قاضي الري في ذلك فانزعج الخليفة لهذا الطلب ايما انزعاج اذ لم يسبق ان يتزوج بنات الخلفاء الا اكفاؤهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده فاخذ في استعطافه ليعفيه من الاجابة على طلبه فابى السلطان الا ان يجاب . وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة فاضطر الخليفة الى القبول — فمقدله عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يجر مثله قبله لان آل بويه لم

يطمئئوا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب^(١) اذ يكفي من الخليفة تنازلاً ان يتزوج بنات الملوك لا ان يزوجهم بناته ولم ينل هذا الشرف احد قبل طغربك . ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية قبل الارض بين يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب فلم تكشف الحمار عن وجهها ولا قامت له وظلّ اياماً يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يتوفى لاتمام ما اراده لانه توفي في تلك السنة . اما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تلتها دولة اسلامية قبل العثمانيين فلما فتح السلطان سليم مصر وجد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣ هـ

العصر العربي الثاني

الامارات العربية والعنصر العربي

نريد بالعصر العربي الثاني العصر الذي جدّد فيه العرب سطوتهم واعادوا سلطانهم ونفوذهم في الدولة بعد ان غاب الفرس على امورهم واستبدوا بهم . فقد رأيت ان شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الاموية وتغلب الفرس في الدولة العباسية حتى غلب الامين فانكسرت تلك الشوكة وتضعف شأن العرب ثم جاء المعتصم فقطع اعطيهم ومنعهم من مصالح الدولة فذلوا ونقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم واصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة في العراق او الشام او مصر حتى الاكراد والاعراب والقرامطة فلم ينفعهم ذلك الا قليلاً لتغلب الاتراك في مصالح الحكومة على ان بعض القبائل العربية تمكنت باسباب مختلفة من انشاء امارات صغيرة في ما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس واجنادهم الاتراك في القرن الرابع للهجرة ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم فاستقل آل حمدان من بني تغلب بالموصل وحلب وغيرها من سنة ٣١٧ - ٣٩٤ هـ وكانت دولتهم عربية

احياوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية اشهر أمرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظمه فيه ابو الطيب المتنبي

ونشأ في حلب في ذلك القرن ايضاً دولة عربية أخرى اسمها المرداسية نسبة الى اسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب من المضربة خشكم في حلب هو واولاده من سنة ٤١٤ - ٤٧٢ هـ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بني عقيل من كعب من المضربة فتولوها من سنة ٣٨٦ - ٤٨٩ هـ وظهرت في اثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالمزيدية نسبة الى مزيد الشيباني من قبيلة اسد وقد أنشأوا مدينة الحلة في العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ - ٥٤٥ هـ

وهناك دولتان انشأها رجال من العرب في العصر العباسي الأول وفي بلاد غير عربية فالاولى ان تعداً من الدول الاعجمية وهما الدولة الدلفية التي انشأها ابو دلف العجلي في كردستان والعلوية التي انشأها الحسن بن زيد في طبرستان واذا اضفنا الى ما تقدم دولة الاغالبية التي اسنقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ودولة الادارسة الاآي ذكرها بلغ عدد الدول العربية الصغرى في النهضة العربية الثانية ثمانية دول هذا بيانها مع اسماء مؤسسيها ومدة حكم كل منها ننشرها بحسب تاريخ تأسيسها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ الادريسية	مراكش	١٧٢ - ٣٧٥ هـ	ادريس بن عبد الله
٢ الاغلبية	تونس وغيرها	١٨٤ - ٢٨٩	ابراهيم بن الاغلب
٣ الدلفية	كردستان	٢١٠ - ٢٨٥	ابودلف العجلي
٤ العلوية	طبرستان	٢٥٠ - ٣١٦	الحسن بن زيد
٥ الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧ - ٣٩٤	بنو حمدان
٦ المزيدية	الحلة	٤٠٣ - ٥٤٥	مزيد الشيباني
٧ العقيلية	الموصل	٣٨٦ - ٤٨٩	بنو عقيل
٨ المرداسية	حلب	٤١٤ - ٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الامارات العربية الصغرى التي ظهرت في بلاد اليمن كالزيدية في زيد واليعفوربة في صنعاء وغيرها

على ان هذه الدول قلما اثرت في احياء سطوة العنصر العربي او ارجاع شوكة العرب

لانها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم الا العلوية والادارسة . ولا حرج عليهم فان الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا باكثر امارات المملكة العباسية ورسخ في اذهان الناس ان الدولة العباسية باقية الى رجوع المسيح فبات الشرق كله تحت سيطرة العباسيين يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم فانجحت آمال العرب نحو الغرب

وكان الامويون اصحاب العصبة العربية واكبر اعداء الفرس ومن جاورهم من الاعاجم قد انشأوا دولة عربية في الاندلس من سنة ١٣٨ هـ سياً في الكلام عليها . فالعرب الذين كانوا يطعمون باحياء العنصر العربي ويكبرون ذهاب دولة العرب في ظل العباسيين كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون في الاندلس او يقيمون في افريقيا بظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية

واكثر العرب نفوراً من تلك الدولة واشدهم بغضاً لها شيعة العلويين لا سيما بعد ان قضى على آمالهم في الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك . وكان بعض اصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب في اوائل دولتهم فانشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الادريسية نسبة الى ادريس بن عبد الله حكمت من سنة ١٧٢ — ٣٧٥ هـ ولم يطمع امرؤها بلقب الخلافة

وبقي في الشرق جماعة من العلويين كانوا لا يزالون يؤملون الفوز بشيعتهم الموالي الفرس فلما رأوا العباسيين غلبهم على ما في ايديهم بعد فتنة الامين والمأمون واستبداد رجال الاتراك في الدولة ومقاومتهم العنصرين الفارسي والعربي جميعاً يشؤوا من نصرة الموالي فنزح بعضهم الى المغرب تدريجاً وظل البعض الآخر في المشرق يترصدون ضعفاً يبدو لهم من الدولة العباسية فيفتنمون الفرصة للوثوب عليها لا يزالون بمن يستنصرون او على من يقولون . فكانوا يقومون تارة بالفرس او الخراسانيين وطوراً بالاكرد او الديلم او غيرهم من الامم النائمة على الاتراك او الفئات المظلومة من فساد الاحكام واستبداد الخدم ولم يفز احد منهم بانشاء دولة غير الحسن بن علي في طبرستان صاحب الدولة العلوية التي ذكرناها ولم يطل عمرها . وكثيراً ما كانت تلك الفئات المظلومة تتخلل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة كما فعل صاحب الزنج في العراق فانه اقلق راحة الدولة العباسية واجنادها وعملها بضعة عشر عاماً بما جمعه من اباقي العبيد والزوج الذين كانوا يكسحون السباخ في ضواحي البصرة والكوفة واستنهض سائر السودان فتركوا اسيادهم وقاموا معه

خارب الدولة في وقائع كثيرة قتل فيها نحو ٢,٥٠٠,٠٠٠^(١) وكانوا يفعلون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعي^٢ اسمه علي بن محمد زعم انه من نسل الحسين واتهمت تلك الثورة بقتل الداعي وتبديد رجاله

على ان الشيعة العلوية لم يكن لها شأن بذكر الا بعد ظهور الدولة البويهية الشيعية في الشرق واستيلائها على بغداد واستبدادها في الخلافة . وكان الشيعة قد أنشأوا خلافة علوية في بلاد المغرب فاشتد ازهم بذلك وحملوا على المشرق ليتمسكوا بفتحهم في مصر وفتحوها في اواسط القرن الرابع للهجرة واقاموا فيها وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية هي اكبر دول الشيعة وسيأتى ذكرها

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحمة للدولة العباسية وقد قام بنصرتها العرب والبربر وهؤلاء يتخولون لانفسهم نسباً في العرب . وكانت الآمال عالقة باحياء العنصر العربي على يدها كما كان في صدر الاسلام فبايعها معظم العالم العربي يومئذ حتى في العراق وما بين النهرين فان اهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قريتهم من بغداد عاصمة العلويين^(٣) على انهم لم يستطيعوا احياء ذلك العنصر لذهاب دولة آل بويه من المشرق وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك وانتصارها للعباسيين واتخاذها مذهبها ودفاعها عنها فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب الاول سني والثاني شيعي

فلما تغلب الاكراد على الدولة الفاطمية واستخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الايوبي اعدوا البيعة العباسية اليها سنة ٥٦٧ هـ وكان العنصر العربي قد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد في الاحكام من الاتراك والارمن وغيرهم كما سيجي، فعاد العنصر العربي الى الضياع الا امارات صغيرة ظهرت في جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقياً الى الان

فالعنصر العربي الثاني عبارة عن احياء العنصر العربي في المغرب بعد انحلاله في المشرق واكبر العوامل في احيائه الدولتان الاموية بالاندلس والفاطمية بمصر . وكان قيامهما نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تاثير يذكر . ولم يبق للعرب قائمة في الدولة الاسلامية من ذلك الحين — الا ما ابتدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب او غيرها بدعوة سياسية او دينية كقيام الوهابية في نجد والدراويش في السودان . ولما عزم محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى في اوائل القرن التاسع عشر اراد

ان يستعين على انشائها بعصبة اسلامية واقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب والعصبة التركية للدولة العثمانية فاختر عصبية العرب فحامت الامل حوله وخصوصاً بعد حربه الوهاية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل فاحيا العنصر العربي ونشط العصبية العربية بما انشاء من المدارس والمطابع او نشره من الكتب . فكان للعرب نهضة فلما افادته في غرضه السياسي لما حال دون مطامعه من اغراض دول الافرنج في المملكة الاسلامية ولكنها افادت اهل الشرق من العرب فائدة اديبة علمية بتهديد السبيل للنهضة التي نحن فيها اما ما نتناقله الجرائد من اخبار اليمن ونجد وتمرد بعض رؤساء القبائل فلا ننويع له نتيجة تذكر لاسباب عمرانية سياسية لا نحل لها هنا فالنهضة العربية في العصر العربي الثاني الذي نحن في صدره فلما اثرت في احياء العنصر العربي . وقد ثقلت على كل من الدولتين الاموية في الاندلس والفاطمية بمصر احوال مختلفة في سياستها وشؤون حكومتها لا باس من الاتيان على خلاصتها وان كانتا بالحقيقة مقلدتين للدولة العباسية في اكثر احوالهما

سياسة بني أمية في الاندلس

من سنة ١٣٨ - ٤٢٢ هـ

اقتدت هذه الدولة في سياستها بالدولة العباسية مثل سائر الدول التي عاصرتها او نشأت بعدها . فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان كان شديداً مثل جده عبد الملك بن مروان من مذبحة اهل في مجلس السفاح سنة ١٣٢ هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر لم يذخر وسعاً في انقاذه وحمايته في اثناء ذلك الفرار والمسافة طويلة واهل البلاد ناقمون على الامويين . فلما وصل به الى المغرب سعى له في جمع الاحزاب فقطع بوغاز جبل طارق الى الاندلس وفيها من موالي بني أمية نحو خمسمائة رجل فاخبرهم بقدوم مولاه وحرّضهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك فنصروه وجمعوا كلمة المضربة واليمنية — وجمعها صعب في ذلك العهد . فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه اليهم فدخل الاندلس وتولى امورها سنة ١٣٨ هـ ولذلك سموه الداخل

حكمها اولاً باسم الدولة العباسية وخطب بها للنصور نحو سنة ولم يجسر في بادىء

الرأي على انشاء خلافة اخرى مع وجود الخلافة العباسية لان النبي واحد وخليفته واحد . وكان ابي عبد الرحمن ابن عم يقال له عبد الملك بن عمير بن مروان شديد العصبية للامويين واسع الامل في ارجاع خلافتهم وكانوا يسعون به شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه وقد حارب في نصرة ابن عمه حروباً ثبتت له بها الدولة فخره على قطع الخطبة العباسية ولما آس منه تردداً صاح فيه « اقطعها والآن قتل نفسي » فقطعها ولكنه لم يجسر ان يسمي نفسه خليفة فكانوا يسمون امويي الاندلس في اوائل دولتهم الامراء ثم سموهم الخلفاء واتفق في انشاء ذلك ان المنصور العباسي اهان مالك بن انس امام المدينة لما علمته من افتائه بخلع المنصور لانه كان قد بايع للعوليين فاغتم الامويون نقمة مالك عليه وقربوه منهم واكرموه فانتهج كل منهما بصاحبه . فالامويون رأوا فيه اماماً كبيراً بنصر دعوتهم او يؤيدها من حيث الدين ويطعن في خلافة بني العباس . ورأى مالك في الامويين ملجأً كبيراً وتعزية لما ذاقه من شدة بني العباس . فشاع مذهب مالك في الاندلس من ذلك الحين وكانوا قبل على مذهب الاوزاعي مثل اهل الشام . وقد نقلوا الفتوى الى رأي مالك في ايام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ^(١)

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسي في تأييد دولته وكانا متشابهين من عدة اوجه : منها ان والدة كل منهما بربرية وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الامور . واتفقا بان كلاهما قتل ابن اخيه فقتل المنصور ابن اخيه السفاح وقتل عبد الرحمن ابن اخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ^(٢) وقد اقتدى عبد الرحمن بالمنصور في سياسة الفتك والغدر لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تأييده فسخط على بدر مولاة لفرط دلاله عليه ولم يرع حق خدمته وصدق مناصحته فاخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ١٥٦ هـ الى مكان بقي فيه الى ان هلك كما قتل المنصور ابا مسلم الخراساني بعد بلائه في انشاء دولته ^(٣) . وقتل عبد الرحمن ايضاً ابا الصباح بن يحيى رئيس العرب اليمانية وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه ^(٤) ففعل به مثل فعل بني العباس بابي سملة وابن كثير وغيرها . وقام اليمانية رجال ابي الصباح يطلبون بثاره فوقع عبد الرحمن بهم واكثر القتل فيهم واستوحش من العرب قاطبة وعلم انهم يصحبونه على غلٍ وحقدٍ فانحرف عنهم الى اخاذ المالك ليتقوى بهم على اعدائه فبعث الى كبراء مملكته يبتاع

(١) نفح الطيب ٧٩٩ ج ٨ (٢) نفح الطيب ٧١٥ ج ٢

(٣) ابن الاثير ٥ ج ٦ (٤) نفح الطيب ٧٠٦ ج ٢

موالهم فاقتنى موالى الناس من كل ناحية واعتضد بالبربر فوجه اليهم في بر العدو على شواطئ افريقيا واستوفدهم نجاء منهم كثيرون فاكرم وفادتهم وأحسن اليهم وقربهم فرغبوا في خدمته فاستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠,٠٠٠ رجل غلب بهم على اهل الاندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين

الصقالبة

ثم عمد الامويون بعده الى استخدام الخصيان الصقالبة وهم غلمان كان النخاسون يحملونهم من شمالي أوربا يتجرون ببيعهم في انحاء العالم وكان الاتجار بهم رائجا . والسبب في رواجه ان قبائل السلاف (الروسين) نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ثم اخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو اواسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بمدئذ قبائل السلاف (او السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم . فاضطروا وهم تازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم فتكاثر الاسرى من الجانبين . وكان من عادات اهل تلك الاعصر ان يبيعوا اسراهم ببيع الرقيق فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقية ومنها الى الشام ومصر فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة . فكان التجار من الافرنج وغيرهم يتعاونون الاسرى من السلاف والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرها الى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود - ولا يزال اهل جورجيا والكرس الى اليوم يبيعون اولادهم ببيع السلع - فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء امامهم سوق الاغنام وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث الى ان يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها يتقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يتعاونون الذكور لخدمة او الحرب والاناث للتسري . وغلب على أولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلب » ومنها « صقلبي وصقالبة » واصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الابيض على الاجمال

على ان عبد الرحمن الداخل قلما رغب في الصقالبة واول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) فانه استكثر من اقتناء الممالك وارتبط الخيول ببابه وتشبه بالجبارة . وهو اول من جند الاجناد المرتزقين بالاندلس لجعل الممالك من

المرتزقة فبلغت عدتهم ٥,٠٠٠ ملك و كانوا يسمونهم الخرس لعجمة السنتهم ثم تدرج الامويون باستخدام الصقالبة حتى تكاثروا في ايام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسي بالاتراك قبله • واستقل بنو أمية بمملكتهم هذه في اوربا عن سائر ممالك الاسلام في اسيا وافريقيا ولم يكونوا يطمعون في التغلب على الممالك الاخرى فقطعوا علاقتهم معها ومنعوا اهل دولتهم من الحج الى الحرمين^(١) مخافة ان يقع احد منهم في ايدي العباسيين فلم يحج سائر ايامهم احد من اهل دولتهم وما ابيح لهم الحج الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوع مملكة الاندلس الى ملوك الطوائف غير العرب

ملوك الطوائف بالاندلس

وبلغت الاندلس ابان مجدها في ايام عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وكان عاقلاً كريماً توفرت الثروة في خلافته وكانت ايامه مثل ايام هرون الرشيد في بغداد من حيث الرغد والرخاء • وخلفه ابنه الحكم وكان محباً للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد وبلغت مملكة الاندلس في ايام هذين الخليفين الى اوج مجدها سطوة واهية وثروة واخذ شأن الخلافة بعدها بالانحطاط فاستبد اهل الدولة وجندها في الاحكام وهم موالي الامويين من البربر والصقالبة كما استبد الفرس والاتراك في الدولة العباسية وكان العرب في مقدمة رجال الدولة واهل العصية ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة لان الامويين اهل عصية للعرب كما تقدم فلما استبد الصقالبة والبربر في المناصب والاعمال اخذت شوكة العرب بالضعف تدريجاً حتى غلب ابن ابي عامر وزير الحكم بن الناصر على أمور الدولة في ايام هشام بن الحكم في اواخر القرن الرابع للهجرة ومكر باهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضاً ببعض ومنع الوزراء من الوصول الى الخليفة وهو عربي الاصل من التهمة فاصبح يخاف الجند على نفسه فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فكبحهم بدسيسة واخرجهم من القصر ثم فتنك بالجند الصقالبة وأخر رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم واستقدم اليه رجالاً من برابرة افريقية وزناة وقدمهم واستعان بهم • فانكسرت شوكة العرب في الاندلس من ذلك الحين وما زالت الدولة هناك آخذة في الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم باسرع مما حدث في الدولة العباسية لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بني أمية ولان العباسيين

ارسخ قديماً في الخلافة لقرايتهم من النبي • فانقسمت مملكة الاندلس في أوائل القرن الخامس للهجرة الى امارات تولاهما اصحاب الاطراف والرؤساء وفيهم العرب والبربر والموالي فغلب كل انسان على ما في يده فصاروا دولاً صغيرة متفرقة ولذلك سموا ملوك الطوائف وهاك اشهرهم مع اسماء اماراتهم

اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمو	مالقة والجزيرة	٤٠٧ — ٤٤٩ هـ
» عباد	اشبيلية	٤١٤ — ٤٨٤
» زيري	غرناطة	٤٠٣ — ٤٨٣
» جمهور	قرطبة	٤٢٢ — ٤٦١
» ذواتون	طليطلة	٤٢٧ — ٤٧٨
» عامر	بلنسية	٤١٢ — ٤٧٨
» هود وتوجب	سرقوسة	٤١٠ — ٥٣٦

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رأيت فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحيدين وظل الانقسام متتابعاً بين تلك الممالك والخصام متوالياً والافرنج يفتنمون ضعفهم وانقسامهم ويسترجعون مملكتهم امارة بعد امارة وبلداً بعد بلد حتى غلبوا على المسلمين وأخرجوهم من الاندلس • وآخر مدينة افتتحتها الافرنج من تلك المملكة غرناطة وكانت في حوزة بني نصر نسبة الى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩ هـ توالى عليها منهم بضعة وعشرون ملكاً آخرهم ابو عبدالله محمد بن علي فاستخرجها الافرنج من يده سنة ٨٩٧ هـ وفرّ ابو عبدالله وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالاندلس



الدولة الفاطمية

من سنة ٢٩٧ — ٥٦٧ هـ

الشيعة في المغرب

قد علمت حال الشيعة في أيام بني أمية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب ثم ما كان من حالهم في الدولة العباسية وخصوصاً في أيام المنصور والرشد والمتوكل من الاضطهاد والقتل فحملهم ذلك على الفرار الى اطراف المملكة الاسلامية فهاموا على وجوههم شرقاً وغرباً كما تقدم . وكان في من جاء منهم نحو الغرب ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى اخو محمد بن عبدالله الذي بايعه المنصور ثم نكث ببعته . فأتى ادريس مصر وهي يومئذ في حوزة العباسيين فاستخفى في مكان أتاه اليه بعض الشيعة سرّاً ومنهم صاحب البريد فحمله الى المغرب في أيام الرشد فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ — ٣٧٥ هـ على ان هولاء لم يسموا انفسهم خلفاء

اما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة بنت النبي لان اصحابها ينتسبون اليها وتسمى ايضاً الدولة العبيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وهمّت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقها فاشار بعضهم على معز الدولة البويهى ان ينقل الخلافة الى العبيديين او لغيرهم من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلاً « ليس هذا برأي فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من اهل الخلافة لو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدولة عن عزمه ^(١)

على ان الشيعة اعتزت في المشرق بهذه الدولة واحيا البويهيون كثيراً من الاحتفالات

الدينية الشيعية ومنها عاشوراء تذكار مقتل الحسين ^(١) وحملوا الخليفة علي ان يخطب لعضد الدولة في بغداد اي ان يذكر اسمه في الخطبة فخطب له وهو اول من خطب له فيها . فوقع التحاسد بين الاثراك والدليم هناك ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين والترك يمثلون السنة والدليم او الفرس يمثلون الشيعة . فحمل الاثراك اهل بغداد على الاحتفال ببعض الاعياد عكس احتفال الشيعة ^(٢) نكابة بهم الشيعة في مصر

على ان ظهور الشيعة في الشرق هوّن على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها وكانت قصبتها قبلاً المهديّة بأفريقية وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن علي والمؤرخين في انتسابهم اليه اقوال متناقضة فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم اليه وان السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيراً لشأنهم ^(٣)

والمصريون كانوا يحبون علياً من صدر الاسلام وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ولكن فلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية لان العلويين استنصروا اولاً اهل العراق وفارس كما تقدم فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس وقتل محمد بن عبد الله الحسيني وبعض اهله من بني حسن وفرّ سائر العلويين من وجه الدولة العباسية كان في جملتهم علي بن محمد بن عبد الله فجاء مصر بأمر دعوته ^(٤) بعض رجال الشيعة لكنه مالبث ان حمل الى المنصور واختفى

وكان حال الشيعة العلوية بمصر ينقلب بين الشدة والرخاء بنقلب احوال الخلفاء في بغداد فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس . فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل ابي طالب الى العراق فاخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ولما قدموا العراق ارسلهم الى المدينة واستتر من بقي في مصر على رأي العلوية . لان عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة نزلاً من الخليفة — يحكي ان رجلاً من الجند اقترب ذنباً اوجب جلده فامر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجلده فأقسم الرجل عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه فزاده ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر فورد كتابه الى العامل ان

(١) ابن الاثير ٢١٦ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٦٥ ج ٩

(٣) المقرئ ٣٤٩ ج ١ (٤) المقرئ ٣٣٨ ج ٢

يضرب الجندي المذكور مئة سوط فضربه . وتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين فعلم
 رجل منهم له دعاة وانصار فقبض عليه وارسله الى العراق مع اهله وضرب الذين بايعوه
 ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر ان لا يضمن علوي ضيعة
 ولا يركب فرساً ولا يسافر من القسطنطين الى طرف من اطراف مصر وان يمنعهم من اتخاذ
 العبيد الا العبد الواحد . واذا كان بينهم وبين احد الناس خصومة قبل قول خصمه فيه
 بغير ان يطالب ببينة . فقامي العلويون عذاباً شديداً بسبب ذلك

ولما اسفل احمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ هـ اضطهد الشيعة لانه تركي
 ولانه على رأي الخليفة العباسي فاقتص آثار العلويين وحاربهم مراراً . حتى اذا ضعف
 امر بني طولون بمصر واختلت احوال الدولة العباسية في بغداد وتغلب آل بويه عليها في
 القرن الرابع للهجرة اخذ حزب الشيعة ينتعش وينقوى فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي
 سنة ٣٥٦ هـ بقيادة جوهر الصقلي كانت الازدهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ففتح
 جوهر مصر على اهون سبيل وخطب فيها للعلويين واقام شعارهم وازال شعار العباسيين
 وبنى مدينة القاهرة وانتقل اليها مولاه المعز لدين الله وتوالى من دولة الفاطميين بمصر
 عشرة خلفاء وجملة خلفائهم منذ انشأوا دولتهم في افرقيا الى انقضائها بمصر ١٤ خليفة
 حكموا من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ وانتقلت مصر منهم الى الاكراد الايوبيين

سياسة الدولة الفاطمية

ان الفاطميين من جملة الدول الاسلامية التي قلدت الدولة العباسية في نظام
 حكومتها وسائر شؤونها الا ما يتعلق منها بالدين فانهم ابدوا كل ما يوافق مذهب
 الشيعة من اثار العلويين وتقدمهم والعمل باقوال ائمتهم . فالف يعقوب بن كلس وزير
 العزيز بالله الفاطمي كتاباً يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله
 وبوبه على ابواب الفقه فبلغ حجمه نحو نصف حجم صحيح البخاري وهو يشتمل على فقه
 الطائفة الامامية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في نشر هذا الفقه بين المسلمين
 حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة وبين يديه
 خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والادباء . وجعله مرجع القضاء في الفتوى
 وافق الناس به ودرسوه في الجامع العتيق (جامع عمرو) وعمل الخلفاء على ترغيب الناس

في حفظه بالبدل والعطاء فاجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلاً من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه ارزاقاً تكفيهم فضلاً عما كان يصلهم من مال العزيز بالله في الصلات السنوية وامرهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر وكان يخلع عليهم في عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيباً لهم في نشر فقه الشيعة وتعاليمهم واجلسوا اناساً في قصر الخلافة لقراءة علوم اهل البيت على الناس لان بانتشار ذلك المذهب ثابدهم تلك الدولة لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا . وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا في عقابه فانفق انهم عثروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ للمالك فضرروه وطافوا به في المدينة . وكان يعقوب الوزير المذكور يهودياً واسلم وخدم الدولة الفاطمية خدماً جزيلة في تاييد دعوتهم كما رأيت فلا عجب اذا عاده العزيز في مرضه وقال له « وددت لو انك تباع فابتاعك بلكي »^(١)

وتتمشى سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الحطة في نشر مذهب الشيعة فانشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ^(٢) لنشر كتبهم ولما تولى الخليفة الظاهر سنة ٤١١ هـ أخرج من كان في مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم . وشددوا الاوامر على الناس ان يحفظوا كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير وجعلوا لمن حفظ ذلك مالا^(٣) ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية في الموارث توريت ذوي الارحام فالبت عندهم اذا انفردت استحققت المال باجمعه^(٤) تأييداً لحقهم في وراثة الخلافة لانهم ينتسبون الى فاطمة بنت النبي وهي منفردة بالارث

ادوار الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة ادوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية فقد رأيت ان نفوذ الكلمة في الدولة العباسية كان في اوائلها مشتركاً بين العرب والفرس ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر فكان النفوذ في اوائلها مشتركاً بين هذين العنصرين ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك والبربر قوم أشداء مساكنهم في شمالي افريقيا وقد نصروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذاباً شديداً لانهم ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشرة مرة وثبوا فيها كلها

(١) ابن الاثير ٣٢ ج ٩ (٢) الجزء الثالث من هذا الكتاب ٢٠٨

(٣) المقرئ ٣٥٥ ج ١ (٤) المقرئ ١١١ ج ١

على المسلمين ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير في أواخر القرن الأول . ولما نقم الناس على بني أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ولكن ساء لهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم لانهم كانوا يكرهونهم للعصية فقصروا العلويين نكابة فيهم . - إلا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال - ولابرو فضل كبير في نشر الاسلام باواسط افريقية مثل فضل الاتراك في نشره باواسط آسيا الى الهند والصين . لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في افريقية الغربية فنشروا الاسلام هناك

فلما كانت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من انصارها ولا سيما قبائل كتامة وصنهاجة وهوارة فاخذوا بساعد الفاطميين منذ قيامهم على ايام عبيد الله المهدي اول خلفائهم في اواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولته سنة ٢٩٧ هـ اتخذ بطانته منهم وجعلهم من اهل الدولة وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بامر الله (سنة ٣٢٣ هـ) ثم المنصور بنصر الله (سنة ٣٣٤ هـ) ثم المعز لدين الله (سنة ٣٤١ هـ) وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي ايام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ اراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته كانه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بامر الله سنة ٣٨٦ هـ وكان يعتقد فضل البربر فقدمهم وقربهم فاشتدوا ان يتولى امورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وعي كالوزارة عندهم . فاستبد في امور الدولة وقدم البربر واعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلياً وقد تاقت نفسه الى الولاية فاغراه بابتعار عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاه برجوان فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيراً من رجال دولة ابيه وجده فضعف البربر وقوي الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشاركة فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت امه امة سوداء

استكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود وكان هو يستكثر من الاتراك فاصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ فال تنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار الشام فانه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو ارمني الاصل فقتل اهل الدولة واقام بمصر جنداً من الارمن وصار من حينئذٍ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهاً واكابر اهلها^(١)

وكان السلاجقة في اثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس وذهبت دولة آل بويه وضعف امر الشيعة هناك وولّى السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الأتابكة) على الولايات واسنقل كل منهم بولايته كما تقدم ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شيعان الاكراد منهم نجم الدين ايوب واخوه اسد الدين شركويه وقد بلغا عنده منزلة رفيعة وكانت خلافة مصر قد افضت سنة ٥٥٥ هـ الى العاضد بن يوسف وكان ضعيف الراي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ وطال تنافسهم حتى اُخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملاً

وكان في جملة المنافسين وزير اسمه شاور قد غلب على امره فذهب الى نور الدين زنكي واستنجد على رجل آخر كان ينافس في الوزارة فاغتم نور الدين تلك الفرصة للقبض على مصر وانجده باسد الدين شركويه في جند من الممالك فردّ الوزارة الى شاور وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت فزاد تداخل نور الدين في شؤون مصر ونائبه فيها شركويه ومعه ابن اخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح الدين الابوي الشهير . ومات شركويه بمصر سنة ٥٦٤ هـ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة

وكان صلاح الدين من اهل المطامع الكبرى فلما قبض على ازمة النيابة وهي كالوزارة ورأى ضعف الخليفة اراد مصر لنفسه وليس لاميره نور الدين . فلما مات العاضد خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة العباسي ونقل حكومة مصر من الشيعة الى السنة وقبض على ازمة الاحكام . واستفحل امر الصليبيين في تلك الابام فأتى اعمالاً لا يزال التاريخ يردّد صداها الى اليوم اهمها استرجاع بيت المقدس ومد سلطته على الشام وغيرها . وانشأ الدولة الايوبية وهي كردية الجنس سنية المذهب فعادت مصر الى ظل الدولة العباسية من حيث البيعة فقط

وعمد صلاح الدين ومن خلفه من اهله الى الاستكثار من المالك الاتراك
والجراكسة للجندي على جاري العادة في تلك الاعصر حتى اذا كثروا استبدوا في شؤون
الحكومة وطمعوا بالسلطة . فلما ضعف امر الدولة الايوبية قبضوا هم على ازمة الحكومة
وانشأوا بمصر دولتين عرفتا بدولتي السلاطين المالك وهما المالك البحرية والمالك البرجية
حكمت الاولى من سنة ٦٤٨ — ٧٩٢ هـ والثانية من سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ وكانتا نبايعان
للخليفة العباسي وهو مقيم في بغداد . فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة
العباسي (المستعصم) فر من بقي من بني العباس والتجأوا الى سلاطين مصر على عهد الملك
الظاهر بيبرس وظلوا فيها والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثماني وفتحها سنة
٩٢٣ هـ والخليفة العباسي عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم فبايع للسلطان سليم وسلم
اليه الآثار النبوية فانقلبت الخلافة من العباسيين الى العثمانيين من ذلك الحين ولا تزال
فيهم الى الآن



العصر المغولي أو التتري

انحدال المملكة الاسلامية

من قيام جنكزخان سنة ٦٠٣ هـ — الى وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ

قد رأيت في ما تقدم ان الدولة العباسية لما فسدت احكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ضعفت علاقة اطراف مملكتها بدار الخلافة فتفرّعت الى فروع بعضها فارسي وبعضها تركي او كردي والبعض الآخر عربي وكلها تباع للخليفة العباسي في بغداد حتى نشأت الدولة الفاطمية في المغرب وخلافتها علوية ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرها ثم اصابها ما اصاب تلك فمالت الى الشيوخة مثلها ولكنها انقرضت قبلها على يد صلاح الدين الايوبي وعادت مصر الى مبايعة العباسيين على ان الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف واستبد السلاجقة بمملكتها في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر حينئذ ثم اقتسمها ممالئكم الانابكة كما تقدم

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الاسلامية قد تولّاها الضعف والانقسام ولا سيما في المشرق بمن تنازع على سلطتها من الاتراك قواد السلاجقة وممالئكم واهمهم الخوارزمية في خراسان وتركستان والخلافة العباسية قد تناهت في الضعف وبلغت المهرم حتى اشرفت على الانحلال وانما استبقاها اصحاب الاطراف ليستعينوا بها على تأييد سلطتهم بالبيعة . واصبحت مملكتها الواسعة يتنازعها ثلاث امم كانهم اقتسموها فيما بينهم وهم الاتراك السلاجقة وقوادهم في المشرق والاكراد الايوبية في مصر والشام والبربر في المغرب والاندلس (الموحدون) وقد ذهبت دولة العرب ذهاباً تاماً الا امارات صغيرة بقيت في اليمن ونحوها . وهذه الدول على اختلاف اجناسها واطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسي في بغداد على ضعفه وانحلال دولته ولكنها تختصم على الاستئثار بالسلطة في العالم الاسلامي

فلما رأى اعداء الدولة الاسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا الى الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها . فهاجمها الكرج والارمن واللاتن من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب حتى كثيراً ما كانوا يدخلونها

بعشرات الالوف فيكتسحون اذريخان وما جاورها يقتلون وينهبون ويعودون بالاسرى والسبايا والغنائم وكانت سبايا المسلمين تزيد احيانا على عدة آلاف غير القتلى^(١) — كما كان العرب يفعلون بهم في اوائل دولتهم . على انهم لم يستطيعوا فتحا ولا رسخت لهم قدم في مملكة الاسلام

وهجم عليها من الغرب ام الافرنج الصليبيين هجوم الفتح وقد تكاتفوا لاكتساح المملكة الاسلامية بحجة الدين لان القبر المقدس فيها ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حينما ولو اجتمعت كلتهم لافتتحوا ما وراء ذلك ولكنهم انقسموا على انفسهم وجاءهم صلاح الدين الابوي بسالته ودهائه وتدبيره فغلبهم على ما في ايديهم واخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

اما من الشرق فجاءها التتار والمغول بقبايلهم وبطونهم وهم في خشونة البداوة وقوة الابدان وقد توفقوا الى رجل شديد البطش هو جنكز خان القائد الشهير فحمل بهم من اواسط آسيا على العالم المتمدن في اوائل القرن السابع للهجرة وليس للمسلمين يومئذ رجل مثل صلاح الدين فدوخ جنكز خان مملكة الاسلام من اقصى اطرافها الشرقية الى حدود العراق غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠.٠٠٠ ميل مربع

المغول

المغول او المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالي بحيرة بيقال في جنوبي سيبيريا وتاريخهم القديم سقيم لانهم لم يظهروا الى بظهور جنكز خان في اوائل القرن السابع للهجرة وكانوا قبله مثل سائر القبائل الرحل يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص في تلك البلاد البعيدة عن المدن وقد كفوا الناس خيرهم وشرهم ولا شأن لهم بين الامم حتى في ايام جنكز خان لانهم كانوا لا يزيدون على ٤٠.٠٠٠ خيمة فاذا حسبنا في الخيمة عشرة انفس لم يزد عددهم على ٤٠٠.٠٠٠ نفس فحمل جنكز خان بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها في بضعة عشر عاما كما خرج بدو العرب من جزيرة العرب في اول الاسلام وافتتحوا مملكتي الروم وفارس بنحو تلك المدة . وفي الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة لان المسلمين كانوا في ايام جنكز قد تحضروا وانغمسوا في الترف وانقسموا على انفسهم كما كان الروم والفرس عند ظهور الاسلام — والتاريخ يعيد نفسه

✽ جنكرخان ✽ كان والد جنكرخان اميراً على ١٣ قبيلة من المغول تحت رعاية الخان الاكبر ملك التتري يهود متبادلة بينهما . ولد جنكرخان سنة ٥٤٨ هـ فسموه تموجين وهو اسمه الذي كان يعرف به في نشأته الاولى . وبعد اربع عشرة سنة توفي ابوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه واصبح كل منهم يطلب السيادة لنفسه . وكان تموجين شديد البطش من حدائته فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم . وهذه اول وقائعه فهاه الناس . على انه لم يستغن عن استنجاد الخان الاعظم فانجده واكرمه وبنته في اماره ابيه وازوجه ابنته

وكان تموجين قد شب على ظهور الخيل وتعلم رمي النشاب وضرب السيف وانقن الفروسية بسائر فروعها . وكان قوي البدن شجاعاً صبوراً على التعب والجوع والعطش والبرد والام وعود رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على نصرته وانقادوا لامره

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد في اعضاء اسرته وغيرهم من رجال الدولة وكان تموجين قد اغرى الخان باولئك الامراء فضيق الخان عليهم فاوغرت صدورهم فثاروا عليه وشقوا عصا الطاعة وحاربوه وغلبوه فاستنجد تموجين فانجده واعاده الى كرسيه ومثل باعدائه حتى ألقى سبعين رجلاً منهم في الماء الغالي وهم احياء

فلما ظفر تموجين وظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسده فادرك تموجين ذلك فسعى في اصلاح ما بينها بالحسنى فلم ينجح فعزم على تعاربه فتخاربا فانتصر تموجين بخافه الامراء وحسدوه وحاربوه وكان الفوز له . فتولى عرش المغول

وحارب تموجين بعد ذلك حروباً فاز فيها فازداد امراؤه تعلقاً به فاحتفلوا بتهنئته احتفالاً اعظم من ذاك في سهل على ضفاف سلكا فاجتمع الامراء والخانات فوقف فيهم وكان قوي المعارضة فابدى . ثم جلس على لباده سوداء فرشوها له هناك واصبحت تلك اللباده اثراً مقدساً عندهم من ذلك الحين . ثم وقف بعض الحضور وكان من اهل النقوى والنفوذ فقال « مهما بلغ من قوتك فانها من الله وهو سيأخذ بيدك ويشد ازرك فاذا فرطت في سلطانتك صرت اسود مثل هذه اللباده ونبذك رجالك نبذ النواة » وفي هذا القول من حربة البداوة والجرأة مثل ما يروونه عن جرأة العرب على خلفائهم وامرائهم في صدر الاسلام . ثم تقدم سبعة امراء انهضوه باحترام وساروا بين يديه حتى اقعده على عرشه ونادوا باسمه ملكاً على المغول . وكان في جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة فنقدم وليس عليه كساء وقال « يا اخوتي قد رأيت في منامي كأن

رب السماء على عرشه الناري تحديق به الارواح وقد اخذ بمحاكمة اهل الارض فحكم ان يكون العالم كله لمولانا تموجين وان يسمى جنكركخان اي الملك العام» ثم التفت الى تموجين وقال « لبيك ايها الملك فانك تدعى منذ الآن جنكركخان بامر الاله » ولم يعد يعرف بعد ذلك الا بهذا الاسم

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده عمد الى فتح العالم فसार اولاً نحو الشرق الى مملكة الصين وكان لامبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة فلما استفحل امر جنكركخان ابى الدفع ومعنى ذلك الالباء اشهار الحرب . فعمل جنكركخان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم وامعن فيها قتلاً ونهباً والصينيون يومئذ اسبق الامم في الاختراعات الحربية فاستخدموا النار اليونانية التي استعان بها اليونان على دفع العرب وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل ان يعرفه اهل الغرب بازمان . على ان ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل فما زال جنكركخان زاحفاً حتى احتل باكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية . فازداد ذلك الفانح رغبة وقوة فتحول بجنده الجرار نحو الغرب اي غربي بلاده وهي مملكة الاسلام

وكانت المملكة الاسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال وقد انقسمت الى عدة ممالك بردية وتركية وفارسية واقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة الاتراك وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت في اواخر أيامها على معظم العراق العجمي وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الحبال وخراسان وفارس وعلى ما وراء النهر وقسم من افغانستان وبعض الهند . وكانت قصبة تلك الدولة مدينة خوارزم ومنها سمي سلطانها « خوارزمشاه » فحمل جنكركخان نحو الغرب وجنده يزيد على ٧٠٠,٠٠٠ مقاتل واكتسح تركستان وما وراءها وأوغل فيها قتلاً ونهباً مما تقشعر له الابدان

ومما حله على ارتكاب تلك الفظائع انه لما وصل بجنده الى تركستان سير جماعة من التجار الاتراك معهم الذهب الى سمرقند وبخارا من بلاد ما وراء النهر (تركستان) ليشترؤا له ثياباً للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك اسمها اترار وهي آخر مملكة خوارزمشاه مما يلي بلاد جنكركخان . وكان لخوارزمشاه هناك نائب فلما جاءته هذه الطائفة من التتر ارسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر ما معهم من الاموال فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم وأخذ ما معهم وانفاذه اليه . فقتلهم وسير ما معهم وكان

شيئاً كثيراً ففرقه خوارزمشاه في تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم • وعذره في هذه المعاملة ان المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرها من تركستان وصاروا بحاربون عساكره فلذلك منع الميرة عنهم

فلما قتل نائب خوارزمشاه اصحاب جنكزخان حمي غضبه وجمع من الرجال فوق ما كان عنده وحمل على مملكة الاسلام وكتب الى علاء الدين خوارزمشاه يقول « تقتلون اصحابي وتأخذون اموالهم تهبأوا للحرب فاني قادم اليكم بجمع لا قبل لكم به » فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وامر بخلق لحى الجماعة واعادهم الى جنكزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له ان خوارزمشاه يقول لك « انا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا حتى انتقم وافعل بك كما فعلت باصحابك » فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب اذ جاءته كنيهم في اول الاسلام

وقد فعل جنكزخان كما قال تماماً فزحف بحيشه على المملكة الاسلامية فدخلوها من بلاد تركستان فصاروا غريباً وهم ينتقلون من مدينة الى أخرى فيقتلون وينهبون ويحرقون ويهدمون لا يخلفون وراءهم الا الاطلال البالية بما لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسان • وهنا يفترق بدوالمغول عن بدو العرب فان هؤلاء ابقوا على البلاد التي فتحوها وأمنوا اهلها وجعلوهم في ذمتهم واقتبسوا تمدنهم وبنيوا عليه تمدناً من عند انفسهم • وأما المغول فلم يكن همهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة وليس هنا محل الافاضة في سيرة هذا الرجل ^(١) وإنما يقال بالاجمال انه تمكن في حياته من انشاء مملكة لم يتوفق لمثلها احد من الفاتحين قبله ولا بعده لا الاسكندر المكدوني ولا يوليوس قيصر الروماني ولا نادرشاه الفارسي ولا نابوليون بوناپرت الفرنسي — انشأ مملكة تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ودخل في سلطانه ملايين من الصينيين والتشوكوت والافغان والهنود والفرس والأتراك وغيرهم

انشأ جنكزخان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة وكذلك معظم رجاله فاستعان في وضع الشرائع والنظام بن دخل في سلطانه من المسلمين ورعاياه كما استعان العرب في انشاء دولتهم اول الاسلام بالفرس والروم وغيرهم • توفي جنكزخان سنة ٦٢٤ هـ وهو في السادسة والسبعين من عمره وقد تولى الملك ٢٢ سنة

وبعد وفاته انقسم اولاده مملكته على عادة المغول في هذه الحالة باعتبار ان البلاد ملكة

فيورثها لآعقابه فيقتسمونها كما يقتسمون سائر امواله فانقسمت مملكة المغول بمده الى اربعة فروع تفرقت في اولاده الاربعة ثم تفرع كل منها الى غير فرع مما يطول شرحه فنكتفي بذكر ما يهمننا منها :

ان اولاد جنكزخان الذين افضت الحكومة اليهم اربعة اقطاي وطلوي وجوجي وجقطي فانقسمت المملكة فيما بينهم على ما يأتي ويعرف ملوكها بالخاقانات وهم

- | | | | |
|---|------------|-------------------|----------------------|
| ١ | دولة اقطاي | في زنفاريا وغيرها | من سنة ٦٠٣ — ١٠٤٣ هـ |
| ٢ | » طلوي | » بلاد المغول | » ٦٥٤ — ٧٥٠ |
| ٣ | » جوجي | » قيجاق وغيرها | » ٦٢١ — ٩٠٧ |
| ٤ | » جقطي | » ما وراء النهر | » ٦٢٤ — ٧٦٠ |

فالدولة الاولى (اقطاي) كانت لها السيادة العظمى واول ملوكها جنكزخان نفسه ولا يهمننا تاريخها في هذا المقام . واما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن في تاريخ الاسلام نعي به فرع « هولاكو » وهو ابن طلوي بن جنكزخان تولى بعض المقاطعات في مملكة ابيه واستقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤ هـ وعرفت دولته فيها بدولة ايلخان او مغول الفرس وكان في بلاد فارس بقايا من مملكة خوارزمشاه فضمها اليه وأقدم على ما لم يقدم عليه احد من اسلافه — وذلك أنه لما استقر له الملك في فارس حمل على بغداد هولاكو وسقوط بغداد

والسبب في ذلك ان المنافسات بين السنة والشيعة ببغداد تكررت في اواخر الدولة فلا تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في اصلاحه وبما ان الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالباً على الشيعة وكانوا يقيمون معاً في الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد اليهم بتدبير شؤونها وكان الخليفة في ايام هولاكو المستعصم بالله تولى الخلافة سنة ٦٤٠ هـ وكان ضعيف الرأي ووزيره رجل من الشيعة اسمه مؤيد الدين بن العلقمي ذو دهاء ومكر . فالتق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جاري العادة وكان للخليفة ولد اسمه ابو بكر شديد العصبية على الشيعة فاستعان بقائد الجند (الدوادار) وامر العسكر ان يفتكوا بالشيعة ففجعوا على الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي ولم يعد يستطيع صبراً فكتب الى هولاكو سرّاً وادلعه في ملك بغداد وارسل اليه اخاه ليخضعه على القدوم فزحف هولاكو على بغداد بجيش عظيم . فلما علم الخليفة المستعصم بقدومهم بعث الدوادار في من

بقي ببغداد من الجند وهم لا يزيدون على ٢٠,٠٠٠ مقاتل فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهمزم عسكر الخليفة وتشتت

اما هولاكو فاقبل حتى نزل الجانب الشرقي من بغداد وارسل قائداً من قواده نزل الجانب الغربي قبالة دار الخلافة والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمي فانفذه لمخابرة هولاكو بشأن الصلح فعمل مكيدته وعاد وقال للخليفة « ان هولاكو يقيق في الخلافة كما فعل بسطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر » وحسن له الخروج الى هولاكو فخرج اليه في جمع من اكابر اصحابه فانزلهم في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والامائل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد فلما اجتمعوا امر هولاكو بقتلهم فقتلوا ثم بذلوا السيف في بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف الا الاطفال فاخذوهم في جملة الاسرى والسبي ودام القتل والنهب في دار السلام اربعين يوماً ثم نودي بالامان ودخلت بغداد في سلطة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية كما كان يخاف ذهابها المنصور والمهدي والرشد وقد نكبوا ووزراءهم وقوادهم خوفاً من ذلك . على ان الخلافة العباسية لم تنقرض تماماً بل انتقل من بقي من العباسيين حياً بعد مذبحه هولاكو الى مصر واقاموا في ظل السلاطين المماليك كما تقدم

اما هولاكو فلما ملك عاصمة العالم الاسلامي في ذلك العهد طمع بفتح ما وراءها فحمل على الشام وكانت في حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية فردوه عنها فافتتح بما دخل في حوزته وقد امتدت مملكته من الهند الى الشام واورثها لاولاده فانقضت دولته ولم يمت عليها القرن (٦٥٤ — ٧٥٠ هـ) وانقسمت الى ولايات صغيرة ما زالت في اضطراب وتضعضع حتى اخضعها تيمورلنك

تيمورلنك

ينسب هذا القائد العظيم الى دولة جنكيزخان وليس هو من نسله ولكنه من عائلته وكان جده وزيراً عند جغتاي بن جنكيزخان . ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ ولما ترعرع تولى بعض الاعمال في دولة اقطاعي بما وراء النهر ثم ترقى الى رتبة الوزارة فطمع بالملك فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيزخان قبله ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة ولم تمض سبع سنوات حتى دوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وافغانستان وفارس واذريجان وكردستان ثم جاء العراق فاستخرج

بغداد من الحيلارية وكانوا قد تملكوها بمد هولاً كونهم حول أعنة خيوله شرقاً نحو الهند ففزا قشмир ودهلي وتحول غرباً لفتح اسيا الصغرى وكانت في حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد فبلغ تيمورلنك في فتوحه الى انقره وحارب بايزيد وأسر سنة ٨٠٤ هـ واكتسح سائر بلاد المشرق الى آخر حدود الشام وبايعه سلاطين مصر على الطاعة فتحول لمحاربة الصين فأت في الطريق سنة ٨٠٧ هـ قبل ان ينظم حكومته فذهبت فتوحه هدرأ فمادت البلاد التي فتحها الى ملوكها الاولين وعادت الاحوال الى ما كانت عليه قبله . على ان الدولة التيمورية طال حكمها في ما وراء النهر الى سنة ٩٠٦ هـ وبوفاة تيمورلنك ينقضي العصر المغولي وبانقضائه ينقضي الدور الاول من تاريخ الاسلام

الدور الثاني

من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت ان المغول لم ينشئوا دولة ثابتة في بلاد الاسلام ولم يكن لهم شأن في التمدن الاسلامي وانما علاقتهم بهذا التمدن انهم جاؤوه والدولة الاسلامية في آخر دورها الاول وفي منتهى التضعف والضعف بمن حمل عليها من الافرنج والكرج والارمن والالان فزادوها ضعفاً وذهبوا ببقية الخلافة العباسية في بغداد وعادوا عنها وهي تكاد تكون في حال الاحتضار وقد تبدد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها على أن ذلك كان مقدوراً للدولة العثمانية في العصر التركي الثاني ولدولة شاهات الفرس في العصر الفارسي الثاني ويتألف منهما الدور الثاني من تاريخ الاسلام

فعاد التتر عن المملكة الاسلامية في اوائل القرن التاسع للهجرة ومصر في حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب . والشام بعضها في ايدي أولئك المماليك وبعضها في ايدي بعض اعقاب الايوبيين حتى يكاد يكون كل بلد مستقلاً بنفسه . والعراق وبلاد فارس وما بين النهرين يتنازع عليها الايلخانية والحيلارية والمظفرية والقرقونية وليتمورية وغيرهم . وما وراء النهر وأفغانستان في سلطة المغول التيمورية . واسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة . وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر وبقايا الانابكة . وشمالى افريقيا كان منقسماً بين المرينية والحفصية . والاندلس لم يبق منها في سلطة المسلمين الا الدولة النصرانية في غرناطة . وجزيرة

العرب تحكمها امارات صغيرة تخارب وتتغازى . وهذه الدول مع ضعفها واحتلال أحوالها
تجمعها خلافة اضعف منها هي بقية الخلافة العباسية في الديار المصرية
تلك كانت حال العالم الاسلامي من الاضطراب والتضعف عند تغلب الدولة العثمانية
لجأت في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية وقد يؤس المسلمون من فتحها بعد ان
حاولوه مراراً . وحارب العثمانيون اعظم ملوك أوروبا وطاردهم الى بلاد المجر وحاصروا
فيئاً عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردنمان واكتسحوا البحر الايض الى
شواطئ اسبانيا فارتعدت أوروبا خوفاً منهم . وفتحوا المشرق الى العراق ثم ساروا
جنوباً غرباً حتى فتحوا الشام ومصر وفيها بقية الدولة العباسية فتنازل العباسيون لهم
عن الخلافة كما تقدم . فامتدت مملكتهم في ايام السلطان سليمان (سنة ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ)
من بودا بست على ضفاف الطونة الى اصوان على ضفاف النيل ومن الفرات بالعراق الى
بوغاز جبل طارق فاجتمع العالم الاسلامي الغربي تحت جناح الدولة العثمانية ولا يزال .
وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سبباً لطول بقائها اكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية
حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم لان سلطتهم اصبحت بعد القرن الثالث من انشاء
دولهم اسماً بلا رسم

ونفض الصفويون من الجهة الاخرى في بلاد فارس وبين النهرين فأنشأوا دولة شيعية
كبرى جمعت تلك البلاد الشيعية في حوزتها ثم انتقلت الى الدولة القاجارية الباقية الى الآن
كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية . فالعالم الاسلامي الآن في دوره الثاني تحكمه دولتان
اسلاميتان كبيرتان الدولة العثمانية في الشمال والغرب وهي سنية والشاهات القاجارية في
الشرق وهي شيعية وليس من شأننا النظر في سياستهما في هذا الكتاب

« تم الجزء الرابع »



الفهرست

صفحة	صفحة
٥٤	٣ المقدمة
٥٨	العصر العربي الاول
٦٢	٩ البدو والحضر
٦٥	١٠ العصبية العربية قبل الاسلام
٦٩	١٥ الامومة والخطوة
٧٤	١٧ توابع العصبية العربية
٧٨	١٩ العيد في الجاهلية
٨١	٢١ الموالي « «
٨٦	٢٥ النزلة الاجانب « «
٩١	٢٦ سياسة الدولة « «
١٠٣	٢٨ مناقب العرب « «
	سياسة الدولة في عصر الراشدين
	٣٠ الجامعة الاسلامية
	٣٤ طبقات عربية اسلامية
	٣٥ سياسة خلفاء الراشدين
	٣٩ انتشار العرب في الارض
	٤٤ العبيد والموالي في الاسلام
	سياسة الدولة في عصر الامويين
	٥٠ انتقال الخلافة الى الامويين
	٥٣ رغبة بني امية في السيادة
١٠٦	انتقال الخلافة الى العباسيين
١١٢	سياسة العباسيين في تأييد دولتهم
١١٧	« « « « معاملة الرغبة
١١٧	الموالي الفرس
١٢١	اهل الذمة
١٢٩	حرية الدين
١٣١	العصبية العربية في العصر العباسي
	نكبة الوزراء الفرس
١٣٦	الوزراء الفرس قبل البرامكة

صفحة	صفحة
١٧٨	١٣٧ الوزراء البرامكة
١٧٩	١٤٠ نكبة البرامكة
	١٤٦ الامين والمأمون
	١٥٠ الاسرار في الدولة العباسية
	١٥١ اخذ الاط انساب بعد الاسلام
	العصر التركي الاول
	١٥٦ الجند التركي في الدولة العباسية
	١٦١ الخدم ونفوذهم « «
	١٦٥ تأثير النساء في سياسة الدولة
	١٦٧ فساد الاحكام في الدولة العباسية
	تصعب المملكة العباسية
	١٧٣ الدول الفارسية في ظل العباسيين
	١٧٤ « التركية « «
صفحة	
١٧٨	الدول الكردية في ظل العباسيين
١٧٩	الخلافة والسلطة او الدين والسياسة
	العصر العربي الثاني
١٨٨	الامارات العربية والعنصر العربي
١٩٢	الدولة الاموية في الاندلس
١٩٧	« الفاطمية بمصر
١٩٧	الشيعة في المغرب
١٩٩	سياسة الدولة الفاطمية
	العصر المغولي او التتري
٢٠٤	انحلال المملكة الاسلامية
٢٠٥	المغول
٢١١	الدور الثاني

(تم الفهرست)



